coptic-books.blogspot.com

٣٤

الكاردينال جوزيف راتسينجر
البابا بندكتوس السادس عشر

ملح الأرض

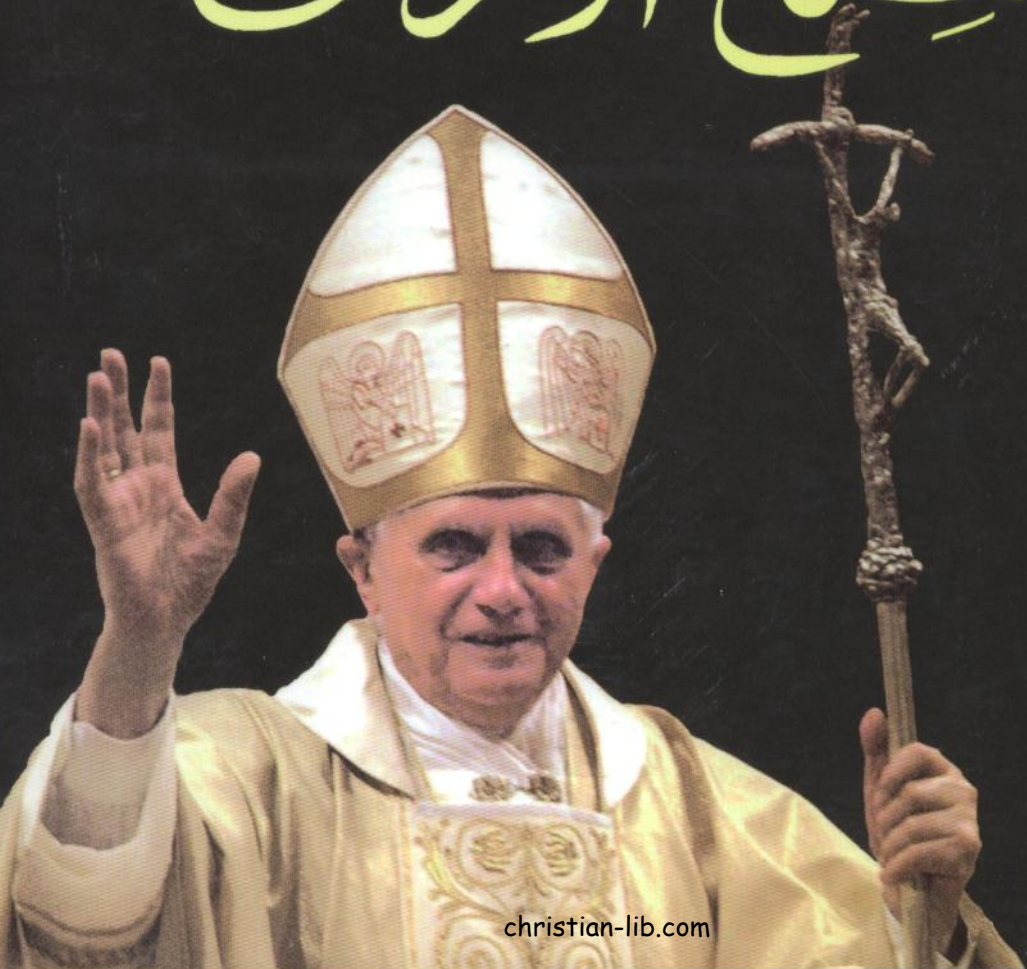

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

christian-lib.com

رقم القسم
الرقم العام
الرقم الخاص

coptic-books.blogspot.com

مِلْحُ الأَرْضِ

المسيحيّة والكنيسة الكاثوليكيّة
على أعتاب الألفيّة الثالثة

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

طبعة أولى

٢٠٠٩

*

جميع الحقوق محفوظة

*

منشورات المكتبة البولسية

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص. ب : ١٢٥
هاتف : ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس : ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف : ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس : ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – شارع سيّدة النجاة – مقابل مطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس : ٠٨/٨١٢٨٠٧

christian-lib.com

رقم القسم
الرقم العام
الرقم الخاص
coptic-books.blogspot.com

سلسلة
الفكر المسيحي بين الأمس واليوم

٣٤

الكاردينال جوزيف راتسينجر
البابا بندكتوس السادس عشر

ملح الأرض

المسيحية والكنيسة الكاثوليكية على أعتاب الألفية الثالثة

محاورات مع بطرس زيفالد

ترجمه عن الألمانية
الدكتور نبيل الخوري
الأستاذ في الجامعة اللبنانية
والجامعة الكاثوليكية أيخشتيت (ألمانيا)

وقدم له الحبر الأعظم
قداسة البابا بندكتوس السادس عشر

مكتبة دير السيدة العذراء برموس

منشورات المكتبة البولسية

وقف دير السيدة العذراء برموس
christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

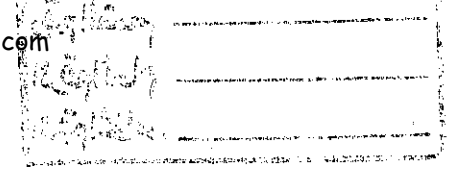

صدر الكتاب في طبعته الأصليّة:

Joseph Ratzinger
Benedikt XVI.

Salz der Ered

Christentum und katholische Kirche im 21. Jahrhundert

Ein Gespräch mit Peter Seewald

Deutsche Verlags-Anstalt
München

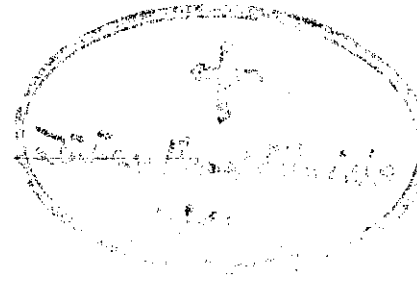

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

Vatikanstadt
30. 1. 2008

Herrn
Univ.-Prof. Dr. Nabil el-Khoury
Kronenstr. 3c

D-72070 T ü b i n g e n

Lieber Herr Professor el-Khoury!

Es war für mich eine große Überraschung und Freude, nach so vielen Jahren wieder von Ihnen zu hören. Die Zeiten, in denen Sie in Tübingen und in Regensburg zum Kreis meiner Schüler gehörten, sind wieder lebendig vor mir aufgestanden. Ich finde es gut, daß Sie in der Katholischen Universität Eichstätt unsere akademische Jugend in die große Theologie des christlichen Ostens einführen und zugleich die ganze gegenwärtige Problematik darstellen können, vor der sich die Christen dort in den Ursprungsländern unseres Glaubens befinden.

Nicht weniger freue ich mich darüber, daß Sie meine unter dem Titel *„Salz der Erde"* veröffentlichten Gespräche mit dem Journalisten Peter Seewald ins Arabische übersetzt haben und so umgekehrt Ihren Landsleuten im Libanon wie überhaupt den Christen und Muslimen des arabischen Raumes die Probleme des Glaubens in der westlichen Welt vorstellen, zusammen mit den Antworten, die unser Glaube zu geben hat.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

view in der Darstellung wesentlicher Fragen menschlicher Existenz mit sich bringt. Wir – Peter Seewald und ich – saßen damals, wie es das Vorwort schildert, in einer Mönchszelle in Montecassino beisammen, und ich versuchte, auf die weitreichenden Fragen zu antworten, die mir mein Partner stellte, der in das Gespräch auch die großen Linien meiner eigenen Biographie eingeflochten hat. Herr Seewald hat die Aufnahme der Tonbänder, auf denen unser Dialog aufgezeichnet war, dann ins Schriftliche übersetzt; mit ganz geringen Änderungen ist alles so stehengeblieben, wie ich es im Augenblick zu sagen vermochte. So ist der Text fragmentarisch und kann nicht in die Tiefe gehen, aber die Leser haben offenbar das Frische der Improvisation geschätzt, die keine gelehrten Reflexionen zuließ, aber gerade deshalb direkter zum Herzen spricht. So ist das bescheidene Buch zu meiner Überraschung ein großer Erfolg bei den Lesern geworden. Ich hoffe, daß es auch den Christen in der arabischen Welt in allen Mühsalen ihres Lebens Zugang zum Glauben öffnen und so Hoffnung schenken kann.

In diesem Sinn bin ich mit den besten Segenswünschen für Sie, Ihre Leser und Ihre Hörer

im Herrn Ihr

Benedictus PP XVI

P.S. Dieser Brief an Sie ist zugleich als Geleitwort für das Buch gedacht.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

حاضرة الفاتيكان
٢٠٠٨/١/٣٠

إلى السيّد البروفسّور الدكتور نبيل الخوري

لقد كانت هذه لي مفاجأة كبيرة سارّة، أن أعود وأسمع عنك بعد مرور مثل هذا العدد من السنين. فإنّ الوقت الذي كنتَ فيه في توبنغن ورغنسبورج في عداد تلاميذي، عاد وانبعث حيًّا أمامي. وإنّي استحسن أن يتاح لك في الجامعة الكاثوليكيّة أَيخشْتِيت أن تقرّب لشبابنا الجامعيّ اللاهوت العظيم الخاصّ بالشرق المسيحيّ، وأن تعرض لهم في الوقت عينه القضايا الحاضرة التي يجابهها اليوم المسيحيّون في البلاد التي كانت منشأ إيماننا.

ولا يقلّ سروري أن أعلم أنّك قد نقلت إلى اللغة العربيّة أحاديثي التي تبادلتها مع الصحافيّ بطرس زِيفالد ونُشرت في كتاب عنوانه "ملح الأرض". فإنّك بذلك تعرض، في اتّجاه معاكس، على مواطنيك في لبنان وعلى المسيحيّين والمسلمين عامّة في الأقطار العربيّة مشاكل الإيمان القائمة في الغرب، وذلك مع الأجوبة التي يستطيع إيماننا أن يقدّمها بشأنها. وإنّي لعلى عِلم بما يتضمّنه طابع المقابلة الصحافيّة في عرض مسائل الوجود البشريّ الجوهريّة. فإنّا – أنا وبطرس زِيفالد – كنّا جالسين، كما تذكر مقدّمة الكتاب، في قِلاّية في دير مونته كاسينو. وكنت أحاول أن أجيب عن الأسئلة البعيدة المدى التي كان مُحادِثي يطرحها عليّ، وهو يحبك في نسيج الحديث الخطوط العريضة لحياتي الشخصيّة. إنّ السيّد زِيفالد نقل بعد ذلك ما ضُبط على الشُّرُط التي تمّ تسجيل حوارنا عليها، إلى الصيغة الكتابيّة. ولقد ظلّ، ما عدا بعض التعديلات الطفيفة، كلّ شيء على حاله كما استطعت أن أقوله في تلك اللحظة. بذلك جاء النصّ أجزاءً متفرّقة لا تغوص في العمق. ولكنّ القرّاء، على ما يبدو، قد استحسنوا طلاوة الكلام العفويّ، الذي لم يفتح المجال للخوض في تفكير علميّ، ولكنّه، بفضل ذلك بالذات، قد خاطب القلوب بطريقة أكثر مباشرة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

وبذلك – وهذا كان لي مفاجأة كبيرة – لاقى الكتاب نجاحًا كبيرًا عند القرّاء. وإنّي آمل أن يستطيع أن يفتح أيضًا للمسيحيّين في العالم العربيّ، مع جميع متاعب حياتهم، مدخلاً إلى الإيمان وأن يمنحهم الرجاء.

وعليه فإنّي أقدّم لك ولقرّائك ولسامعيك أفضل أدعية البركة.

في الربّ

البابا بندكتوس السادس عشر

ملحق: هذه الرسالة الموجّهة إليك معدّة في الوقت عينه لأن تكون مدخلاً إلى الكتاب.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

SUMMO PONTIFICI BENEDICTO XVI
QUI VERBA QUAE IN COLLOQUIO
DE SALE TERRAE HABITO PROTULIT
IN ARABICAM UT VERTERENTUR LINGUAM
ET IN ORIENTE QUOQUE LUCEANT PERMISIT
LAUDES GRATAS AGIT TRANSLATOR
GRATESQUE SUMMAS

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

تمهيد

روما في الشتاء. كنت ترى الناس في ساحة القدّيس بطرس يتجلببون بمعاطفهم، ويتدرّؤون بمظلاّتهم، بينما يحتسي بعضهم الشاي في المقاهي، فأعرّج أنا لزيارة ضريح في «الكامبو سانتو» (Campo Santo). وكانت الهررة تبدو متذمّرة.

وكعادته، في كلّ سبت، كان الكاردينال ما يزال يعمل في مكتبه. وكنّا ننوي بعدئذٍ الخروج من المدينة إلى محيط «فراسكاتي» (Frascati) حيث معهد الآباء اليسوعيّين «فيلاّ كافاليتّي» (Villa Cavaletti). وبإزاء الرصيف، كان السائق ينتظر داخل سيّارة مرسيدس، كان مجمع عقيدة الإيمان اشتراها مستعملة من ألمانيا لسنوات خلت. وكنت أبدو، وأنا أقف بجانب حقيبتي الضخمة، وكأنّني مستعدّ للقيام بجولة حول العالم. أخيرًا، فتح الباب، فترجّل على مهل رجل بشعره الأبيض، وقامته النحيلة، وقفطانه الأسود ذي الطوق الإكليريكيّ، ومحفظته الصغيرة البسيطة.

كان قد مضى وقت طويل على انفصالي[1] عن الكنيسة، ولم تكن الدوافع تنقصني. ففي الماضي، كان الجلوس في أماكن العبادة، على قلّة حصوله، يعرّض صاحبه لكثير من الأفكار الورعة، التي تجمّعت خلال عقود من الزمن. أمّا الآن، فإنّ الشكّ تسلّل إلى الأمور اليقينيّة، وظهر كلّ تقليد، وكأنّه سحيق في القدم، وبدون حياة. وكان بعضهم من أصحاب الرأي القائل بوجوب أن يتكيّف الدين وحاجات الإنسان. وكان يرى بعضهم الآخر أنّ المسيحيّة قد انتهى زمن صلاحيّتها، ولم تعد تلائم العصر. فالانفصال عن الكنيسة ليس مسألة واهية، بل هو بالتأكيد أقلّ بساطة من العودة إليها ثانية. فهل إنّ الله موجود فعلاً؟ وإذا كان الجواب

(١) ليس من فصل، في ألمانيا، بين الكنيسة والدولة. وأمّا الانفصال عن الكنيسة، فيتمّ بإقرار في الحاكميّة، أو المختاريّة؛ وبعدئذٍ، يتمّ شطب الاسم عن لائحة المذهب الدينيّ، الذي كان صاحبه ينتمي إليه.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

بالإيجاب، فهل ما نزال بحاجة إلى كنيسة؟ وكيف ينبغي أن تكون هذه الكنيسة، وكيف نوجدها؟

ولم يستعلم الكاردينال مطلقًا عن ماضيّ وعن وضعي وحالتي، بل طلب أن يطّلع مسبّقًا على أسئلتي، فما حذف منها، ولا أضاف عليها. وكان جوّ اللقاء جادًّا ورصينًا، ولكن، من وقت إلى آخر، كان «أمير الكنيسة» يبدي استرخاء، وكأنّه في حضرة تلميذ. وكان يقطع المقابلة وينسحب للتأمّل، أو ليصلّي إلى الروح القدس، كي يلهمه الكلام الصحيح. والله أعلم.

والكاردينال راتسينجر (Ratzinger) بنظر الناس، وبخاصّة أبناء بلده الأمّ، هو رجل كنيسة مناضل وموضوع نزاع. وفي كلّ مرّة، كان الكثير من تحليلاته وتخميناته يصيب أهدافه ويتحقّق بدقّة وبالتفصيل. وقلّة هم المسيحيّون الذين يشبهون هذا الرجل الذكيّ البارع، المتحدّر من جذور بسيطة، من قرى بافاريا، في ما خصّ وعيهم للخسارة، التي تتكبّدها الكنيسة في عصرنا.

سألته مرّة عن عدد الطرق التي توصل إلى الله. ولم أكن أعلم في الواقع بما سيجيب. وكان بإمكانه القول: هناك طريق واحد، أو عدّة طرق. ولم يدعني الكاردينال أنتظر طويلاً جوابه، فقال: الطرق المؤدّية إلى الله هي بعدد الكائنات البشريّة.

بطرس زيفالد

ميونيخ، ١٥ آب ١٩٩٦

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الإيمان الكاثوليكيّ
علامات وكلمات

سيّدي الكاردينال، يُقال إنّه يحدث أن يتوجّس البابا خوفًا منكم. فيتساءَل قائلاً: يا إلهي، ماذا سوف يقول الكاردينال راتسنجر في ذلك؟

(راتسنجر ضاحكًا): قد يقول ذلك على سبيل الدعابة، ولكنّه بالتأكيد لا يخاف منّي!

هل من مراسيم محدّدة، حين تكون بحضرة البابا؟

كلاّ.

هل تُصلّيان قبلاً؟

كلاّ، يُؤسفني أن أقول إنّنا لا نفعل ذلك؛ نجلس معًا إلى طاولة العمل.

تدخلان وتتصافحان؟

نعم. انتظر بادئ الأمر، ثمّ يدخل البابا، نتصافح ونجلس سويًّا إلى الطاولة. وغالبًا ما يتلو ذلك «دردشة» خاصّة، لا علاقة لها باللاهوت. وأبدأ أنا فأعرض مطالبي. يطرح البابا أسئلة، ونعود فنتحاور.

هل يعبّر عن رأيه بكلمات موضوعيّة؟

يختلف الأمر من موضوع إلى آخر. أحيانًا، ينتظر للقضايا الجوهريّة أن يعرف ما رأيي. كيف يجب، مثلاً أن يتمّ انضمام المرتدّين من الكنيسة الأنجليكانيّة إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، يجب إيجادُ سبُلٍ قانونيّة لذلك. في أمور كهذه، لا يتدخّل كثيرًا، يكتفي بالقول: «كونوا واسعي الصدر». ومن ثمّ، لا يهتمّ كثيرًا بالآليّة التي نقرّر اتّباعها.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لكن، هناك موضوعات أخرى تعنيه بشكلٍ جادّ أكثر. كلّ ما يدور حول موضوع الأخلاق، مثلاً أخلاق الحياة (البيوتيك)، أو الأخلاق الاجتماعيّة، كلّ الحقل الفلسفيّ، كلّ ما يخصّ الفلسفة. أو أيضًا بالتحديد كلّ مجالات التعليم المسيحيّ وتعاليم الإيمان؛ هذه تهمّه شخصيًّا، وهنا ننقاد إلى حوارات عميقة.

ما هو الزيّ الخاصّ الذي ترتديه للمناسبة؟

الصاية. التقليد يفرض لبس الصاية لدى زيارة البابا.

والبابا؟

يرتدي الصاية البيضاء.

بأيّةِ لغة تتخاطبان؟

نتخاطب باللغة الألمانيّة.

ليس باللاتينيّة؟

كلاّ.

خاطبكم يومًا زائر متديّن من جماعة الهوتيرير البروتستنتيّة قائلا «أخ جوزف». هل اعتبرتم ذلك غير مناسب، أو غير لائق؟ إذ ينبغي أن ناديكم بـ «صاحب النياقة»، بحسب التقليد الكنسيّ.

لا، بل أعتبر «أخ جوزيف» جميلاً جدًّا. بالطبع، هذا ليس أسلوب الكلام الذي نعتمده، ولكن، بما أنّنا نتكلّم عن رابط الأخوّة الذي يوحّد المسيحيّين – لقد كتبت سنة ١٩٦٠ كتيّبًا حول الأخوّة المسيحيّة – هذا حقًّا موضوع حاولت منذ زمن أن أبحث فيه.

هل يُطلب من الكاردينال أن يلتزم أمورًا أعلى، أعني أهمّ ممّا يُنتظر من كاهن أو من رئيس أساقفة؟

الكاردينال إنسان مسيحيّ، إنّه كاهن وأسقف. هو شخص تُعهد إليه في الكنيسة مسؤوليّة التبشير بالإنجيل، والاحتفال بالأسرار. ببساطة لا أوافق على التعبير: «طلبات أهمّ»، إنّما أفضّل أن أقول: هناك طلبات محدّدة ومحصورة بدور الكاردينال. حتّى الخوري، خوري الريف البسيط، توكل إليه مهمّات جسيمة، إذ عليه فهم أبناء رعيّته

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

ومؤازرتهم في المرض والألم، في الفرح، في الزواج، كما في الجنازات، وكذلك في الأزمات وفي الأوقات السعيدة. وعليه أن يشرك إيمانه بإيمانهم ويحافظ على حسن مسيرة سفينة الكنيسة.

ألا يُرهق التعامل اليوميّ المفروض مع الله؟ ألا يتعب الإنسان من ذلك ويشعر بالملل؟

أعتبر التعامل اليوميّ مع الله ضرورة لي. فكما نحتاج يوميًّا إلى التنفّس، وكما نحتاج يوميًّا إلى الضوء وإلى الطعام، وكما يحتاج المرء إلى الصداقات في حياته اليوميّة، وإلى أشخاص معيّنين، كذلك هو الحال بالنسبة إلى العلاقة بالله التي هي من عناصر مقوّمات الحياة الغاية الضرورة؛ إذا غاب الله فجأة، لن أتمكّن من التنفّس روحيًّا؛ فلا سبب إذًا للملل. قد يشعر المرء بالملل من ممارسات أو قراءات تقويّة، لكن ليس من العلاقة مع الله بحدّ ذاتها.

هل صحيح أيضًا، أنّ الانشغال بالله وبالكنيسة لا يحوّل الإنسان، بشكل تلقائيّ وفي كلّ الميادين، إلى إنسان أكثر عدلاً وأكثر حكمة وإيمانًا وإنسانيّة؟

للأسف نعم، فالمطالعة اللاهوتيّة، بحدّ ذاتها، لا تحوّل الإنسان عفويًّا إلى الأفضل. ولكن، بإمكانها المساهمة قليلاً في ذلك، إذا لم تمارس فقط رغبةً في النظريّة، بل في محاولة الإنسان على ضوئها فهم ذاته وفهم العالم كلّه، بشكل أفضل، واعتمادها، عند ذلك، أسلوب حياة. لكنّ اللاهوت هو في الأساس عمل فكريّ، وبخاصّة عندما يُمارَس بجدّيّة علميّة وبصرامة. بإمكانه أن يؤثّر في طريقة وجود الإنسان، ولكنّه لا يكفي وحده لتحسين البشر بحدّ ذاتهم.

هل من متطلّبات ليسوع، يعسر تحقيقها، حتّى على الكرادلة؟

بالتأكيد، لأنّ الكاردينال ضعيف كغيره من البشر، وقد يُعرّضه مركزه المثقل بالمسؤوليّات الجديدة إلى مصاعب أكبر: برأيي، إذا اختصرنا الوصايا العشر، بالوصيّة الكبرى: المحبّة، فهناك ما لا يمكنه هو أيضًا تطبيقه بشكل كامل. فمن الواضح أنّ محبّة الله والناس غالبًا ما تكون صعبة جدًّا، وخصوصًا إذا أردناها بالشكل الذي يتلاءم وكلمة الله. والتاريخ يُظهر لنا بوضوح، ومن دون أيّ شكّ، كم من الممكن أن يكون الكرادلة ضعفاء.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هكذا إذن يصعب أيضًا على كاردينال أحيانًا أن يحبَّ الناس.

تعلم، في أيّ حال، أنّه يستحيل حبّ الناس جملةً. بالطبع، لأنّ فيهم من يكون ثقيل الظلّ، فيصعب تقبّله. حتّى إنّ المرء يأخذ في التساؤل، هل الإنسان طيّبٌ، وهل الخالق تساهل إلى حدٍّ بعيد، إلى حدٍّ أصبح معه هذا المخلوق خطرًا وغير جدير بأن يكون موضع محبّة. لكن عندها عليّ الاعتراف بأنّي لا أستطيع الحكم على من أجهله، وأمّا الآخرون فعليّ أن أتركهم على حالهم. والطيّبون الذين أعرفهم يؤكّدون لي بأنّ الخالق يعرف تمامًا ماذا فعل.

هل تعترف، وهل لديك معرّف؟

نعم، أعتقد أنّ هذا ضروريٌّ بالنسبة إلينا جميعًا.

هل يمكن أنّ يخطأ الكاردينال أيضًا؟

ترى ذلك أحيانًا.

هل تشعر أحيانًا، كباقي الناس، أنّك حائر وعاجز ووحيد؟

نعم، بخاصّة في موقعي الحاليّ، حيث قواي أضعف من أن تنهض بواجبها كاملاً. وكلّما تقدّم المرء في السنّ، كلّما شعر بأنّ قواه لم تعد كافية لإنجاز ما يجب عليه إنجازه، وبأنّه ضعيف، أو في حيرة من أمره، أو أنّه أضعف من المواقف التي يواجهها. عندها، أتوجّه إلى الله قائلاً: الآن، عليك أنت أن تساعدني، فأنا لم أعد قادرًا على الاستمرار، كما أنّ الشعور بالوحدة موجود. ولكن عليّ أن أعترف بأنّ الخالق وضع في طريقي، الحمد لله، العديد من الناس الطيّبين، بحيث لا أشعر بالوحدة القاسية.

أنت رئيس المجمع الرومانيّ لعقيدة الإيمان، منذ سنة ١٩٨١. وهذا ليس أقدم مجمع فاتيكانيّ وحسب، بل إنّه شكّل، ولقرون عديدة، ما سُمّي «دائرة التفتيش المقدّسة» والمخيفة. عملك هو المحافظة على صفاء الإيمان الكاثوليكيّ، والدفاع عن الكنيسة في وجه الهرطقات، وإذا اقتضى الأمر معاقبة المخالفين للإيمان. هل فعلاً كلّ ما يقوله رئيس مجمع عقيدة الإيمان هو بشكل تلقائيّ رأي الكنيسة بشأن العقيدة؟

بالطبع لا. لن أتجرّأ يومًا على فرض آرائي اللاهوتيّة المسيحيّة في ما يتّخذه **مجمع الإيمان** من قرارات. إنّي أتحفّظ فعلاً، وأفهم دوري كمنسّق ووسيط لجماعة عمل كبيرة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

نحن نعمل ضمن أطرٍ واسعة. ونراسل لاهوتيّين من العالم أجمع بهدف الاستشارة؛ كما لدينا اتّصال بالمطارنة ودوائرهم؛ ولدينا لاهوتيّونا بروما، واللجنة اللاهوتيّة، ولجنة الكتاب المقدّس، ثمّ هناك لجنة الاستشارة، المسمّاة (Konsulta)، وفي النهاية هناك الكرادلة الذين يشكّلون اللجنة العليا للقرار. وداخل هذه الحلقات الواسعة فقط يمكن أن تصاغ القرارات. نحن لا نقرّر شيئًا في مجلس الكرادلة، طالما لم يتّفق المستشارون على الجوهر، فنقول: عندما تقوم بين لاهوتيّين كبار فروقات واضحة، في أمور العقيدة، يستحيل علينا عندها الجزم بأنّ أحدها صالح. ولكن، عندما تتّسع دائرة الإجماع وتتوافق، في ما هو جوهريّ، جماعة المستشارين، فعندئذٍ فقط، نُصدر القرار.

ولكن، يمكنكم إعطاء رأيكم الخاصّ بأمور كثيرة.

بالطبع، فلقد عملت طويلاً كأستاذ، وأحاول، ضمن الممكن، متابعة النقاشات اللاهوتيّة. ومن الطبيعيّ أن يكون لديّ تصوّري الخاصّ حول كيفيّة تنظيم اللاهوت، وأعبّر عن ذلك أيضًا في منشوراتي الخاصّة.

هل حدث أن اضطُرّ الكاردينال راتسنجر إلى مناقضة ذاته يومًا؟ يعني: هل اختلف رأيك في مسألة ما، عن الرأي العامّ، الذي اضطُررتَ إلى الإعلان عنه، بصفتك رئيسًا لمجمع الإيمان؟

لنقل إنّه من الممكن أن تدخل تعديلات تبلورت مع الوقت. ببساطة، أنا أتعلّم، من خلال النقاشات، أنّ هناك نقطة أو أخرى لم أفقهها جيّدًا؛ فمن غير الممكن أن أتعنّت برأيي، والاقتناع بصوابيّة رأي الآخر فرصة جديدة لي. ومن المحتمل أن يطرأ دائمًا تعديل على ما سبق وقُرّر، بسبب التطوّر الناتج عن الشرح والبحث المعمّق.

العديد من التحذيرات والنداءات التي أطلقتَها يبدو أنّها لم تؤتِ ثمارها. ومن المؤكّد أنّك لم تنجح في تكوين حركة واسعة، تقف بوجه تيّارات الزمن، كما أنّك لم تُحدث تحوّلاً في التفكير، لدى كثيرين. لكنّك اطمأننت مرارًا أنّ الله سوف يقود الكنيسة على دروب نجهلها. ولكن، أليس من المحزن أن يدور النقاش في حلقة مُفرغة، وأن نرى مستوى الحوارات يتدنّى، بينما يبدو لنا، في هذه الأثناء، أنّ مضامين الإيمان تندثر أكثر فأكثر، وأنّ هناك حالة من اللامبالاة تتوسّع؟

لم أتخيّل أبدًا أنّني قد أتمكّن من تغيير حركة التاريخ. وعندما نرى أنّ سيّدنا نفسه

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

مات على الصليب، نلاحظ، عندها، أنّ الطرقات التي يسلكها الله لا تقود سريعًا إلى نجاحات يمكن قياسها. إنّني أعتقد أنّ هذا الأمر مهمٌّ جدًّا: ماذا يجري، ولماذا لا تسير الأمور بسرعة؟ فيجاوبك بأمثال مثل حبّة الخردل، والخمير في العجين، وما شابه، ليقول لنا إنّ الدرسات الإحصائيّة ليست من المقاييس التي يستعملها الله. وبالرغم من ذلك، فإنّ الذي يحدث مع حبّة الخردل والخمير في العجين، وما شابه، هو أساسيّ وجازم.

على ما أعتقد، علينا ألاّ نلجأ إلى معايير النجاح الكمّيّ؛ فنحن، بالواقع، لسنا شركة تستطيع بالأرقام أن تحدّد نجاح سياستها وزيادة مبيعاتها. ما نفعله هو العمل الذي نضعه بين يدي الله. لكنّه، ومن جهة أخرى، من غير الصحيح أنّ المستقبل معتّم، فهناك، في كلّ القارات، وخاصّة بين الشباب، تفجّر جديد للإيمان.

قد يكون علينا أن نتخلّى عن مفهوم كنيسة تضمّ جميع الشعوب. ومن الممكن أن نكون أمام نوع جديد، مرحلة جديدة من تاريخ الكنيسة، إذ تنضوي المسيحيّة تحت عنوان حبّة الخردل، أي تتقلّص لتنحصر بمجموعات صغيرة، لا وزن لها، لكنّها، بدورها، تعيش إيمانها بعمق وبقوّة ضدّ الشرّ، وتحمل الخير إلى العالم، وتُدخل الله إليه. وهناك حركات كثيرة من هذا النوع، لا أريد أن أعدّد أسماء. ومن المؤكّد أنّه لم تعد هناك ارتدادات جماعيّة إلى المسيحيّة، أو تحوّلات تاريخيّة من نموذج إلى آخر؛ لكن، هناك دلالات إيمان قويّة في الحاضر، تدلّ على أنّ الإيمان ما زال يفعل في الإنسان، ويعطيه الديناميّة والسعادة. إذن هناك حضور فعّال للإيمان هو ذو معنًى في عالمنا.

إلا أنّ عددًا متزايدًا من الناس يتساءل: هل إنّ سفينة الكنيسة سوف تُكمل الإبحار في المستقبل، وهل الإبحار فيها أمرٌ ما زال يستحقّ المغامرة؟

أجل، أنا مقتنع جدّ الاقتناع. إنّها سفينة قديمة وجديدة في آن. إنّ تشخيص الحاضر يُظهر لنا بوضوح أنّنا ما زلنا بحاجة إليها. علينا فقط أن نُخرج هذه السفينة، ولو فكريًّا، من موازين الصراع المسيطرة على حاضرنا، وسوف نرى، عندها، مدى الانهيار الذي سيحدث والتدهور الذي سيلحق بالقوى الروحانيّة.

بإمكاننا أن نلاحظ أنّ انهيار الكنيسة والمسيحيّة، الذي عشنا فيه في السنوات الثلاثين

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أو الأربعين الأخيرة، هو مسؤول أيضًا عن الانهيارات النفسيّة، وعن الصعوبة التي ترافق تحديد الأهداف المهمّة في الحياة، وعن الانحطاط الذي نراقبه. في هذا الإطار أقول: إن لم تكن هذه السفينة موجودة، لوجب الآن اختراعها. إنّها تتّفق والحاجات الدفينة للطبيعة البشريّة، إنّها موجودة في عمق ما يكون الإنسان وما يحتاج إليه، وما يجب أن يكون عليه، أنّ الإنسان الذي لن يفقد قواه الجوهريّة، على ما أعتقد، سوف يؤمن ويتأكّد أنّ هذه السفينة لن تغرق.

في الوقت الراهن، من الصعب التخيّل أنّ حياة تسير وفق الإيمان الكاثوليكيّ، تستطيع في وقت قريب ومنظور أن تُعتبر حديثة؛ حتّى إذا أمعنّا النظر فيها، نجدها بشكل أو بآخر، تجسّد أفضل الخيارات، والأكثر ثقة بالنفس والأكثر راديكاليّة يمكن تصوّرها.

لدى الناس اعتقاد بأنّ الكنيسة هي عبارة عن نظام قديم ومتصلّب، يزداد تقوقعًا وتحجّرًا، ويلفّ ذاته بغطاءٍ مُصفّح، يخنق به الحياة التي في داخله. إنّه انطباع العديد من الناس. بدلاً من ذلك، ندرة هم الذين يدركون ما ينتظرهم من يافع وجريء، ما هو كريم، ما هو بمثابة الوثبة من الحياة الراكدة. لكنّ الأشخاص الذين اجتازوا تجربة الحداثة واحتملوها حتّى النهاية، هم الذين يدركون الفرق.

والظاهر للعيان، أنّ إدراك ماهيّة نظام الكنيسة وأهدافها قد ضاع. إنّ معنى إشارات هذا الإيمان وتعابيره، تبدو وكأنّها محتجبة خلف حائط من الضباب؛ إذا ما أجرينا المقارنة بالزن- البوذيّ، على سبيل المثال، لا يعتقد أحدٌ أنّه باستطاعته استيعاب هذا النظام، من دون تمرّس أو علم.

علينا أن نعترف بأنّنا، في الواقع، لم نعد نعرف المسيحيّة. في كنيسة ما، مثلاً، كم هناك من لوحات لم تعد تعنينا إطلاقًا، وحتّى لم نعد نعرف ما تمثّله. حتّى المفاهيم التي كان يألفها الجيل الذي سبقنا، مثل بيت القربان، أصبحت كلمات غريبة بالنسبة إلينا. وعلى الرغم من ذلك، ما زال يسود الاعتقاد بأنّنا نعرف تمامًا ما هي المسيحيّة، وبأنّه علينا الآن البحث عمّا هو جديد.

بمعنًى آخر، يجب أن يتطوّر من جديد حبّ اكتشاف المسيحيّة، والرغبة في التعرّف فعلاً على ما تكتنز. من المهمّ جدًّا للتبشير أن نتخلّص من هذا الشعور بالركود، أو

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

بالمعروف مسبّقًا، وأن نخلق فضولاً للتعرّف على الكنوز التي تختبئ تحت ثقل الأنظمة، والاعتراف بأنّ الوصول إلى ثروات الحياة هذه يستحقّ العناء.

كي نعرض كلّيًا وباقتضاب هذا السؤال المهمّ: «كاثوليك» – ماذا يعني بالتحديد؟ هل هذا نظام خاصّ؟ أو إنّه طريقة خاصّة لترتيب العالم والأشياء؟ لقد قرأت في كتاباتك الجملة التالية: «إنّ جميع البشر هم خليقة إله واحد، لذلك هم جميعًا متساوون، وكلّهم إخوة، وكلّهم مسؤولون عن الآخرين، كما أنّهم مدعوّون جميعًا إلى محبّة الآخر مهما اختلف.» فهل هذه جملة كاثوليكيّة حقيقيّة؟

نعم، هذا ما آمله. إنّ الإيمان بالله كخالق نقطة أساسيّة في الكاثوليكيّة. من هنا نصل إلى الإيمان بوحدة الوجود البشريّ في كلّ البشر، وإلى المساواة بين الكرامة البشريّة.

لكنّني أشكّ بأن يكون باستطاعتنا اختصار الكاثوليكيّة كنمط حياة بمعادلة ما. نستطيع إظهار العناصر الأساسيّة، ولكنّ الأمر يفترض أكثر من «الأخذ بالعلم»، كما لو كنت أتّعرف إلى برنامج حزبٍ ما. إنّها حياة وسط تركيبٍ حياتيّ يستحوذ على مشروع العمر كلّه. لذلك، أعتقد بأنّه من المستحيل التعبير في كلمات فقط. إنّها بالتاكيد طريقة حياة، طريقة للتعايش، إنّها طريقة للتواصل والتبادل، مصحوبة بطريقة تفكير وفهم، حيث يتنامى الاثنان معًا.

بالطبع، يمكننا تعداد النقاط الأساسيّة: قبل كلّ شيء، إنّنا نؤمن بالله، وبالتحديد بإله واحد يعرف الإنسان، يقيم علاقة به، وهو قريب منه، وقد أصبح، بوساطة يسوع المسيح، قريبًا منّا، وهو يصنع التاريخ معنا. لقد اقترب منّا بشكل واقعيّ، حتّى إنّه أسّس معنا جماعة.

لكنّني أشدّد على القول، بأنّ كلّ ذلك بالإمكان فهمه فقط عندما نلقي بنفسنا على الطريق؛ ولا يمكن الفصل مطلقًا بين الفهم والحياة؛ وبعيدًا عن هذه الطريقة، لا أعتقد أنّه بإمكاننا فهم الكاثوليكيّة.

من الواضح أن لا معادلة بسيطة لذلك، عندئذ، هل يمكن على الأقلّ تعداد العناصر التي تشكلّ جوهر هذا الإيمان؟

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

إنّ أحد هذه العناصر هو أنّنا نرى يسوع الحيّ، المتجسّد، ابن الله الذي أصبح إنسانًا. وإنّنا من خلاله نؤمن بأنّ الله هذا انحدر واتّضع، وأصبح صغيرًا حتّى إنّه اهتمّ بالإنسان، وصنع معه التاريخ، وكانت الكنيسة الوعاء المميّز، الذي احتوى هذا التاريخ، كما شكّلت تعبيره. إنّ الكنيسة ليست مؤسّسة بشريّة فقط، على الرغم ممّا لا يمكن تجاهله من الطاقات البشريّة فيها؛ لكنّ الإيمان يقتضي الحياة مع الكنيسة، وفيها، حيث يتمّ تبنّي الكتب المقدّسة، ومحاولة الحياة وفقها.

«من جعل نفسه صغيرًا مثل هذا الولد، يقول الإنجيل بحسب القدّيس متّى، هو الذي يكون الأعظم في ملكوت السماوات» (١٨ : ٤).

إنّ لاهوت ما هو صغير هو مقولة أساسيّة في المسيحيّة، وإيماننا يميل إلى الاعتقاد بأنّ عظمة الله الخاصّة تتجلّى، وبنوع خاصّ، في اللاقوّة. إنّها تنطلق إلى الاعتقاد بأنّ قوّة التاريخ تكمن، وعلى مدًى بعيد، في الإنسان المحبّ. فهي إذن قوّة لا يمكن قياسها وفق تصنيفات القوّة. هكذا أراد الله، وعن تصميم، ليبرهن من هو، أن يتجلّى تحت ضعف مولود الناصرة والجلجلة. إذن، ليس قويًّا من يستطيع أن يدمّر أكثر – علمًا أنّه بالنسبة إلى العالم، تعتبر القدرة على التدمير البرهان الأسمى للقدرة – لكن، على العكس من ذلك، إنّ ذرّة محبّة هي أقوى بكثير من أيّ قوّة تدمير.

لقد قلتَ مرّة، إنّ الإيمان المسيحيّ ليس نظريّة، إنّما هو حدث.

وهذا مهمّ جدًّا. حتّى عند المسيح ذاته، فالجوهريّ ليس أنّه بُشّر ببعض الأفكار – ما قد فعله طبعًا – إنّما الجوهريّ كي يصبح المرءُ مسيحيًّا هو أن أؤمن بهذا الحدث. لقد دخل الله العالم وعمل، إذن هو فعل، هو واقع، وليس مجرد مجموعة أفكار.

ما الذي يفتنك في أن تكون كاثوليكيًّا؟

ما يفتنني هو هذا التاريخ الطويل والحيّ، والذي ندخل فيه. إنّ ما يشكّله، وإن على الصعيد الإنسانيّ البحت، هو حدثٌ مميّزٌ. أن تتمكّن مؤسّسة، رغم الكثير من الضعف والإخفاق البشريّ، من المحافظة على استمراريّتها؛ وأن أعرف نفسي، من خلال تقاسم الحياة مع هذه الجماعة الكبيرة، أنّني على شركة مع كلّ الأحياء والموتى في هذه الجماعة؛ وأن أجد فيها اليقين حول الجوهريّ في حياتي – هذا الإله المتّجه نحوي – ذلك اليقين الذي عليه، أستطيع أن أبني حياتي، ومعه أستطيع أن أحيا وأموت.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أليس يسوع المسيح، ومعه بنية الكنيسة، سرًّا بحدّ ذاته، يستطيع المرء قبوله أو رفضه، على حدّ القول الأميركيّ: «خذه أو اتركه»؟

هذا صحيح، على الإنسان أن يتّخذ قرارًا. لكنّ الأمر ليس كما لو كان عليّ قبول فنجان من القهوة أو رفضه. فللقرار أبعاد أعمق، لأنّه يلامس كلّ هيكليّة الحياة، ولأنّه يلامس ذاتي بأعماقها. عندما أبني حياتي من دون الله أو أكون ضدّ الله، يكون لفعلي وقع مختلف بالطبع عن حياة بنيتُها على الله. إنّه قرار يُمسك بكلّ الوجهة التي ينتمي إليها وجودي. كيف أرى العالم، كيف أريد أن أكون، وكيف سأصبح، ليس اختيارًا أنتقيه من بين القرارات التي تُعرض عليّ في سوق الاحتمالات. على العكس، هنا يُطرح تصميم الحياة كلّه للنقاش.

يرى الكثيرون في الدين ما يُشابه الدرع، أو الوسيلة، أو التركيب، يرتديه الضعيف والإنسان الجاهل حتّى يُرتّب أموره مع ذاته ومع العالم. وكما يقول المحلّل النفسّي س.ج.يونغ: «الديانات هي أنظمة للعلاج النفسيّ بالمعنى الضيّق للكلمة. في الكنيسة صور قويّة تعبّر عن كامل المشاكل النفسيّة». هل هذا يكفي وهل هذا هو الإيمان؟

ما يقوله يونغ وما تبنّاه بعده دريفرمان، هو صحيح، أنّ للدين قوًى شافية وهو يُعطي أجوبة ويساعد تخطّي المحن والمخاوف الأصيلة. لكن إذا عددنا الدين وسيلة معالجة نفسيّة وحاولنا بوساطة صوره أن نُشفى فهذا بالتأكيد يفقدُ فعاليّته. ففي آخر المطاف سوف تنكشف هذه الصور على أنّها غير حقيقيّة وتفقد فعاليّتها الشافية.

صحيح أنّ هذا ميزة ثانويّة للديانة، لكنّها لا تكون الدين في جوهره. إنّ ظاهرة توق الإنسانيّة في كلّ مراحلها إلى الأزليّ، إلى المختلف تمامًا وإلى محاولة التواصل معه تُبرز أنّ للدين أبعادًا. إنّ جوهر الدين هو علاقة الإنسان الذي يتخطّى ذاته بهذا الغائب المجهول، الذي يُسمّيه الإيمان الله، ومقدرة الإنسان على أن يدخل إلى هذه العلاقة الأوّليّة، بتخطّيه كلّ ما هو ملموس وقابل للقياس. يعيش الإنسان وسط علاقات، وحياته جيّدة بقدر ما تكون علاقاته الجوهريّة – أعني مع الأب، الأمّ، الأخ، الأخت وإلى ما هنالك– علاقاتٍ أساسيّة يُقيم فيها كيانه العميق. لكنّ أيّة من هذه العلائق لن تكون صحيحة إن لم تكن العلاقة الأولى التي هي مع الله، جيّدة. أعني بذلك أنّ هذه العلاقة بحدّ ذاتها هي مضمون الدين.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لدى كلّ الحضارات الكبيرة التي عرفناها وما زلنا، عامل مشترك هو الدين. يبدو كأنّ التعاليم كلّها تعزف ألحانًا متشابهة، كالدعوة إلى الاعتدال، والتنبيه من الأنانيّة والاستقلاليّة. لماذا، إذًا، لا تكون الديانات كلّها واحدة؟ ولماذا تصنيف الإله المسيحيّ على أنّه أفضل من الإله الهنديّ؟ ولماذا نحصر الخلاص بديانة واحدة؟

إنّ هذا الاقتراح ظهر خلال عصر التنوير مع ظهور البحث التاريخيّ في الدين، وكان قد ظهر قبل ذلك، لكن يمكن تنفيذه عندما نتمعّن بتفحّص الديانات. هناك أبعاد ومستويات مختلفة، كما أنّ هناك ديانات مريضة بشكل واضح، قد تكون بعض الأحيان هدّامة للإنسان.

إنّ النقد الماركسيّ للدين صحيح بقدر ما هناك من ديانات أو ممارسات دينيّة تغرّب الإنسان. لنأخذ مثلاً أفريقيا، حيث يكوّن الإيمان بالأرواح حتّى الآن عائقًا كبيرًا يحول دون بناء الأُطر الاقتصاديّة الحديثة لتنمية البلاد. فحيث عليّ حمايةُ نفسي دائمًا وفي كلّ مكان من الأرواح، وحيث خوف غير منطقيّ يطبع مشاعر الحياة كلّها نكون بالتأكيد بعيدين عمّا يطمح إليه الدين بصلبه. بإمكاننا أن نرى في عالم الديانات الهندّية («الهندوسيّة» هي في الواقع تسمية مضلّلة تشمل العديد من الديانات) أشكالاً مختلفة للغاية: بعضها سامٍ وطاهر يتّسم بفكرة الحبّ، لكنّ البعض الآخر وحشيٌّ جدًّا وينطوي على طقوس قتل.

نعرف أنّ الأضاحي البشريّة طبعت تاريخ الديانات بطريقة فظيعة، كما نعرف أنّ الديانات السياسيّة تحوّلت إلى وسائل للقمع والتخريب. كذلك عرفنا ظواهر مَرَضيّة في الدين المسيحيّ نفسه. فإحراق الساحرات هو عودة إلى الجرمانيّة وقد فرض إعلان البشارة بصعوبة التخلّي عنه مع بداية العصر الوسيط، فعاد ليظهر في نهاية القرون الوسطى مع تراجع الايمان. بكلمة واحدة، إنّ الآلهة جميعها ليست متساوية، هناك آلهة سيّئة جدًّا، نجد ذلك في عالم الآلهة اليونانيّة أو الهنديّة. إنّ فكرة تساوي الديانات تنتهي بالفشل ببساطة بمجرّد النظر إلى واقع تاريخ الديانات.

أليس في إمكان شخص أن ينال الخلاص، من خلال اعتقادات غير الإيمان الكاثوليكيّ؟

إنّها لَقضيّة مختلفة تمامًا. بلا ريب، من الممكن أن يتلقّى شخص من ديانته الإرشادات

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

التي تساعده على أن يصبح إنسانًا نظيف القلب يُعجب الله وينال الخلاص. بالتأكيد، إنّ هذا ممكن، بل من المؤكّد أنّه سوف يحصل وبكثرة. لكن أن نستنتج من ذلك أنّ هذا يعني تناغم الديانات وكأنّها تعزف سمفونيّة واحدة، وأنّها كلّها في نهاية المطاف، تعني الشيء نفسه، هذا خطأ.

حتّى إنّه من الممكن أيضًا أن تُصعّب الديانات أحيانًا على الانسان أن يكون صالحًا. وذلك يحدث أيضًا ضمن المسيحيّة عندما تسلك نظام حياة خاطئًا أو تتّخذ أشكالاً مذهبيّة وإلخ. لذلك كانت هناك دائمًا ولا زالت، في تاريخ الديانات وعالمها الواسع، حاجة كبيرة لتنقيتها، حتّى لا تصبح عائقًا في وجه العلاقة الجيّدة مع الله، وإنّما لتضع الإنسان فعلاً على الطريق الصحيح.

وأقول: إذا كانت المسيحيّة، انطلاقًا من صورة المسيح، قد فرضت ذاتها في تاريخ الأديان على أنّها الدين الصحيح الأوحد، فهذا يعني أنّه ظهرت، في صورة المسيح وفي كلمة الله، القوّة المنقّية الحقيقيّة. صحيح أنّ المسيحيّين لا يعيشونها حتمًا، بشكل صحيح دائمًا، لكنّها تقدّم المعيار والاتّجاه للتطهير الضروريّ، حتّى لا تصبح الديانة نظام قمع واغتراب، إنّما لتكون طريقًا يسلكه الإنسان نحو ذاته ونحو الله.

يرى الكثيرون في الواقع أنّ الإيمان المسيحيّ الكاثوليكيّ، يعبّر عن نظرة متشائمة للعالم.

خلال الثورة الفرنسيّة ظهرت إيديولوجيّة تقول إنّ المسيحيّة التي تؤمن بنهاية العالم، بالدينونة وما يتبعها، هي بطبيعتها متشائمة. بالمقابل العصرُ الحديث الذي اكتشف التطوّر كشرعة للتاريخ، هو متفائل في جوهره. أمّا الآن فإنّنا نرى أنّ هاتين النظريّتين المتناقضتين تنحلاّن ببطء. إنّنا نرى ثقة العصر الحديث بذاته تتداعى بازدياد، لأنّه يتوضّح لنا، وباستمرار، أنّ التطوّر يجلب معه تطوّرًا في إمكانيّات التخريب، وأنّه من الممكن ألاّ يكون الإنسان أخلاقيًّا قادرًا على أن يلحق بتطوّره العقليّ، وأنّ قدرته تتحوّل إلى قدرة للتدمير. في الواقع لا نجد في المسيحيّة فكرة تقول إنّ تطوّر التاريخ يجرّ معه بالضرورة تطوّرًا للإنسانيّة نحو الأفضل.

عندما نقرأ رؤيا القدّيس يوحنّا نرى أنّ الإنسانيّة، في النهاية، تدور ضمن حلقات. هناك دائمًا أهوال تأتي وتزول، ثمّ تعود أخرى لتلحقها. إنّ الرؤيا لا تعلن حالة خلاص

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

يبنيها الإنسان نفسه وسط التاريخ. ما من دليل في المسيحيّة يؤكّد الفكرة التي تقول إنّ الأمور البشريّة تتحوّل دائمًا نحو الأفضل. في الوقت نفسه يؤكّد الإيمان المسيحيّ أنّ الله لن يترك الإنسانيّة تسقط إلى النهاية، ولذلك لن تتحوّل أبدًا إلى حدث فاشل حتّى لو اعتقد الكثيرون اليوم أنّه كان من الأفضل ألاّ تظهر البشريّة أبدًا.

في هذا الإطار يتّضح لنا أنّ النموذج الذي يحدّد التفاؤل والتشاؤم على هذه الصورة هو غير ملائم أبدًا. إنّ كلّ مسيحيّ يستطيع أن يرى، مثل كلّ إنسان عقلانيّ، أنّ أزمات كبيرة تعصف بالتاريخ، وأنّه، وربّما اليوم بالتحديد، قد يكون العالم أمام إحداها. كما أنّه يستطيع أن يتعرّف إلى التاريخ الذي لا يندفع بوساطة قوّة داخليّة إيجابيّة نحو الأفضل، ومن ثمّ، فالأخطار واقعيّة، لكنّ لديه في النهاية التفاؤل الأخير، بأنّ الله يُمسك بالعالم حتّى إنّ أهوالاً فظيعة كأوسشفيتز مثلاً، التي تهزّنا في الصميم، يساعدنا الله على تجاوزها لأنّ الله أقوى من الشرّ.

الصليب – رمز مرعب؟

إنّ له بالتأكيد وقعًا مرعبًا لا يجب أن نخفيه. إنّها أفظع طريقة قتل عرفتها العصور القديمة، وكان من الممنوع تطبيقها على الرومانيّين لأنّها كانت تحطّ من الكرامة الرومانيّة. إنّ رؤية أنقى الناس يُقتل بهذه الطريقة الفظيعة يدفعنا أوّلاً إلى الرعب من أنفسنا، لكنّنا نحتاج أيضًا إلى هذا الذعر من ذاتنا، وإلى ما يدفعنا للخروج من راحتنا مع أنفسنا.

هنا أعتقد أنّ لوتير قال كلمة صحيحة، وهي أنّ على الانسان أن يذعر أوّلاً من ذاته حتّى يسلك الطريق الصحيح. لكنّ المفاجئ أنّ الأمر لا يبقى في إطار الهول، لأنّ من ينظر إلينا من على الصليب ليس واحدًا من ضحايا الإنسانيّة المفجعة، كما أنّه ليس بائسًا أو يائسًا، وما يقوله لنا هذا المصلوب يختلف عمّا قاله سبارتاكوس ورفاقه المقهورون، لأنّه من على هذا الصليب تنظر إلينا المحبّة، تلك المحبّة التي تجعل الحياة تدبّ من جديد ومن عمق هذا الرعب. إنّ من ينظر إلينا، هو صلاح الله بذاته، الذي يسلّم نفسه بين أيدينا، يقدّم نفسه لنا ويحمل معنا هول التاريخ كلّه. وإذا تمعّنّا في الأمر، فإنّ هذه الإشارة التي تكشف لنا خطورة هذا الكائن الذي هو الإنسان وفظاعاته، تُظهر لنا في الوقت نفسه أنّ الله هو الأقوى، الأقوى في ضعفه وأنّه يحبّنا. إنّه بهذا يعطينا إشارة تسامح تزرع أملاً حتّى في أحلك أعماق التاريخ.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

غالبًا ما يُطرح السؤال، كيف يُمكن بعد أوسشفيتز أن نتحدّث عن الله، وأن نتابع اللاهوت. بإمكاني القول إنّ الصليب اختصر مُسبّقًا رعب أوسشفيتز. الله قد صُلب، وهو يقول لنا إنّ الله الذي يظهر ضعيفًا هو الله المتسامح بشكلٍ غير معقول، إنّه في غيابه الظاهر هو الأقوى.

غالبًا ما تبدو الحقيقة حول الله والإنسان حزينة وثقيلة. هل هذا يعني أنّ الايمان، بطبيعته، هو فقط للأقوياء؟ غالبًا ما يبدو وكأنّه تعجيزٌ للإنسان. فكيف يمكنه إذًا أن يولّد الفرح؟

أودّ أن أقلب القول: الإيمان يولّد الفرح. إن لم يكن الله هنا فالعالم يتصحّر، وكلّ شيء يصبح مُملاًّ، ومنقوصًا تمامًا. بإمكاننا أن نرى اليوم بوضوح أنّ عالمًا بدون الله يزداد تآكلا ويصبح عالمًا فاقدًا تمامًا للفرح. فالسعادة الكبيرة تأتي من وجود المحبّة العظمى. وهذه هي شهادة الإيمان الأساسيّة. أنت محبوب بشكل لا يتزعزع. لذلك انتشرت المسيحيّة انتشارها الأوّل بين المساكين والمتألّمين.

من الطبيعيّ أنّه من الممكن تفسير ذلك، على الطريقة الماركسيّة، والقول إنّ ذلك كان عزاءً عوضًا من أن يكون ثورة. لكنّني أعتقد أنّنا تخطّينا، بمعنًى ما، هذه التعابير. فالمسيحيّة بدّلت العلاقات بين الأسياد والعبيد، بحيث استطاع بولس الرسول أن يُخاطب سيّدًا قائلاً له: لا تؤذِ عبدك لأنّه أصبح أخًا لك.

من هنا يمكننا القول إنّ حجر المسيحيّة الأساسيّ هو الفرح. الفرح لا بمعنى التهريج الرخيص الذي بإمكانه أن ينشأ على خلفيّة من الارتباك. إنّنا ندرك أنّ التهريج غالبًا ما يكون قناعًا يغطّي اليأس. إنّما السعادة الحقيقيّة تلازم وجودًا قاسيًا لتجعله قابلاً لأن يعيشه الإنسان. وفق الإنجيل يبتدئ تاريخ يسوع المسيح عندما يقول الملاك لمريم: افرحي! وليلة الميلاد يقول الملائكة من جديد: إنّنا نبشّركم بفرح عظيم. ويسوع يقول: إنّني أبشّركم ببشارة عظيمة. إذًا النواة التي تشكّل جوهر المسيحيّة، هي: إنّني أعلن لكم فرحًا عظيمًا، الله موجود هنا، وهو يحبّكم، وذلك إلى الأبد.

على الرغم من ذلك يبدو الإلحاد وكأنّه دائمًا أسهل من الإيمان. هنا تكمن المفارقة: من جهة الإيمان موجود مبدئيًّا، الإنسان مخلوق دينيّ، لكنّه من جهة أخرى عليه دائمًا الكفاح من أجل الحفاظ على الإيمان.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

إنّ سهولة الإلحاد هي سهولة نسبيّة. بمعنى أنّه من السهل التحرّر من قيود الإيمان والقول إنّ هذه القيود تتعبني بثقلها، لذلك سوف أتركها على حدة. سهولة الإلحاد تكمن في هذا الفعل الأوّليّ. لكنّه ليس من السهل أبدًا أن نعيش مع الإلحاد. أن نعيش بدون إيمان يعني أن نعيش دائمًا في حالة عدميّة (نيهيليّة) نفتّش باستمرار عن نقطة ارتكاز للحياة. إنّ الحياة وسط إلحادٍ جماعيّ معقّدة. نستطيع أن نتبيّن هذا الأمر عندما نطّلع على فلسفة الإلحاد عند سارتر وكامو وسواهما.

قد يكون فعل الإيمان قرارًا والتزامًا معقّدًا، لكنّه في اللحظة التي يُلاقيني فيها الإيمان – « بإمكانك أن تفرح» – ينتج عنه شعور داخليّ كبير بالخفّة والارتياح. إذاً لا يجدر بنا التركيز على المجهود من جهة واحدة. فسهولة الإلحاد وصعوبة الإيمان يُحدّدان في مستويات مختلفة تمامًا. على ما أعتقد أنّ للإلحاد صعوبته الكبرى. إنّ الايمان يخفّف من ثقل الإنسان. هذا ما نجده عند آباء الكنيسة، خصوصًا في لاهوت الحياة الرهبانيّة، حيث يقولون إنّ الإيمان يعني أنّنا نصبح كالملائكة. بإمكاننا أن نطير لأنّنا لا نشعر أبدًا بالثقل. حالة الإيمان هي حالة الخفّة والتخلّص من الوزن الثقيل الذي يشدّنا إلى الأسفل لنفلت منه ونحلّق في فلك الإيمان.

بماذا يختلف كاثوليكيّ صالح عن باقي الناس؟

إنّ الكاثوليكيّين بشر كغيرهم. نجد بينهم الدرجات كلّها من الخير والشرّ. فنحن نجد في الديانات كلّها بشرًا يتمتّعون بصفاء داخليّ يمكّنهم من ملامسة السرّ الأكبر والطريقة الفضلى للحياة كإنسان من خلال دياناتهم. علينا أن نبتعد عن الحسابات التي تحدّد أمكنة وجود الناس الصالحين. لكنّني أجرؤ على القول: من يعش الإيمان بصبر ويسمح للإيمان أن يصقل شخصيّته، سوف يجد أنّ الإخفاقات والصعوبات تطهّر شخصيّته وتجعله صالحًا.

هل الإنسان الكاثوليكيّ أسعد من غيره؟

إنّ السعادة بالطبع مقولة معقّدة. لنفكّرنّ فقط بالعظة على الجبل مع ما نسمّيه التطويبات. إنّ السيّد يفتتح بعظة الجبل مدرسة للسعادة، ويقدّم للإنسانيّة المسيحيّة مدرسة للسعادة: «إنّني أدّلكم على الطريق». لكن عندما نعاود القراءة، نجد أنّ مدرسة السعادة هذه تتضارب مع كلّ ما يتصوّره عامّة الناس عن مفهوم السعادة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

قد نقول إنّ السعيد هو من يملك الكفاية من الخيرات، من له إمكانات ترتيب حياة جميلة. قد نقول عن الإنسان الهنيء والناجح إنّه سعيد. لكنّ السيّد يقول: طوبى للحزانى. هذا يُظهر أنّ تعاليمه عن السعادة معارضة، على الأقلّ، لكلّ ما نتصوّره عن مفهوم السعادة. إنّها ليست السعادة التي تعني توفير أسباب الراحة. هنا بالتحديد نفهم ما معنى الهداية إلى الايمان الصحيح. فعلينا أن نبتعد عن المفاهيم المعمول بها: السعادة هي الثروة، الملك والسلطة. لأنّنا عندما نحدّد هذه العناوين بصفتها معايير نكون على الطريق الخاطىء: فالكاثوليكيّ لا يوعد بسعادة «خارجيّة»، إنّما بالإحساس بالسكينة والاستقرار من خلال الشركة مع الله. أن يكون هو شعاع السعادة الأخير في حياة المسيحيّ، فهذا ما يحصل عليه في الوقت عينه.

ولكن أين هو الله، أين نجده؟ وهل يختبئ؟ يبدو وكأنّ الله نادرًا ما يتجلّى. فالناس قلقون لأنّهم يعتقدون أنّه لا يتكلّم معهم، ولا يُعطي إشارات ضوئيّة تلمع وسط ظلامهم.

إنّه لا يفعل ذلك بصوت عالٍ، كما أنّه لا يتصرّف بالضرورة على شكل الكوارث الطبيعيّة – مع أنّها يمكن أن تكون أحيانًا طريقة لمخاطبتنا – إنّه لا يتكلّم إذًا بصوتٍ عالٍ. إلاّ أنّه يتوجّه إلينا بشكلٍ مستمرّ. لكن من المؤكّد أنّ السماع يرتبط بوجود السامع على موجة المذيع نفسها. لكنّنا بنينا في خضمّ طريقة حياتنا وتفكيرنا محطّات تشويش عديدة. ثمّ إنّنا تغرّبنا كثيرًا عنه حتّى إنّنا لم نعد نتعرّف عليه بطريقة بسيطة. على الرغم من ذلك أعتقد أنّ كلّ واحدٍ منّا، المتنبّه بمعنًى أو بآخر، بإمكانه أن يعيش أو يشعر بأنّه يتحدّث إليه. من الطبيعيّ أنّه لا يصرخ بصوتٍ عالٍ، لكنّه يتكلّم من خلال إشاراتٍ وحوادثَ في حياتنا، أو من خلال أشخاص نعيش معهم. لذلك كانت اليقظة ضروريّة، كما أنّه من الضروريّ أن لا تستأسرنا أمورٌ سطحيّة نعطيها الصدارة في حياتنا.

هل يحقّ للكاثوليكيّين أن يساورهم الشكّ، أو إنّهم يكونون عندها مرائين وهراطقة؟ غرابة المسيحيّين تبدو عندما يفصلون بين الحقيقة الدينيّة والحقيقة العلميّة. إنّهم يتعاملون مع داروين ويذهبون في الوقت عينه إلى الكنيسة. فهل من الممكن الفصل بين الاثنين؟ من غير الممكن أن يكون هناك أكثر من حقيقة واحدة. فالعالم إمّا خُلق في ستّة أيّام أو إنّه تطوّر خلال ملايين السنين.

لا مراء في أن يساور الشكّ الناس باستمرار في عالم متداخل كعالمنا الحاليّ. لكنّ الشكّ يجب أن لا يعني التخلّي الفوريّ عن الإيمان. أستطيع تقبّل الأسئلة التي تقلقني

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

باستقامة والتمسّك بالله وبالنواة الحقيقيّة للإيمان. هكذا أحاول إيجاد حلول للتناقضات التي أكتشفها، مع يقيني و ثقتي المسبّقة أنّني لن أستطيع توضيح كلّ شيء وأنّه، على الرغم من فشلي، سوف تظهر حلول لما استعصى عليّ. لقد كان هناك دائمًا في تاريخ اللاهوت البقايا المستعصية على الحلّ في اللحظة الحاضرة، والتي كان من غير الممكن توضيحها بالقوّة.

إنّ الصبر على الوقت هو جزء من الإيمان أيضًا، فالموضوع الذي تطرّقت له – داروين، قصّة الخليقة ونظرّية النشوء والتطوّر – هو موضوع لم يبتّ فيه بعد في الوقت الحاضر، ومن المستحيل الفصل فيه بإمكاناتنا الحاضرة، لذلك ما زال الحوار حوله مفتوحًا حتّى الآن. فالمشكلة لا تكمن في الأيّام الستّة التي تتوسّط بشكل خاصّ بين الإيمان والتفسير العلميّ الحديث للخلق. فمن الظاهر في الكتاب المقدّس أيضاً، أنّ هذه الأيّام صورة لاهوتيّة لا تدّعي سرد قصّة الخليقة. ففي العهد القديم ذاته نجد تصويرًا آخر لقصّة الخليقة. نجد مثلاً في كتاب أيّوب وكتاب الحكمة سردًا لقصّة الخليقة لم يكن يفسّرها المؤمنون، في ذلك الوقت، على أنّها صورة فوتوغرافيّة تعكس تمامًا كيف وجدت الخليقة. لقد صُوّرت بهدف أن نفهم الأساس، وهو أنّ العالم وُجد بفعل قوّة الله، وأنّه صنيعته. أمّا كيف سارت العمليّة فهو سؤال مختلف تمامًا، وهنا يترك الكتاب المقدّس ذاته فسحة واسعة. في الجهة المقابلة، أرى أنّ نظريّة النشوء والتطوّر لم تتخطّ بعد مراحل عديدة، كونها افتراضيّة، كما يجب أن تخضع لنقاشات نقديّة عديدة في كثير من النقاط حيثما زالت ممتزجة وفي أحيان كثيرة، بفلسفات أسطوريّة.

لا ينجح العديد من الناس بالقفز من إيمان الأطفال إلى الإيمان الراشد. كيف يستطيع من قرأ الانتقادات الموجّهة إلى الكتاب المقدّس أن يعود إلى الإيمان الصافي؟

عليه أن يدرك أنّ تاريخ تكوين النصوص البيبليّة المعقّد لا يعنى الإيمان بحدّ ذاته. إنّ هناك ما هو أعظم وأكبر بكثير يتراءى إلينا من خلال هذا التاريخ. يستطيع المرء، على العكس، ومن خلال تاريخ نشأة النصوص البيبليّة المعقّد هذا، وهو بالطبع ما زال افتراضيًّا، أن يرى كيف أنّ التصريحات والوقائع قد دفعت الوعي الإنسانيّ، مع أنّها ليست من صنع الإنسان. إنّني أعتقد، أنّنا عندما نكتشف العناصر الإنسانيّة في تاريخ الكتاب المقدّس، نرى بوضوح أكبر أنّه من غير الممكن أن تكون وحيدة، إنّما هناك تدخّل ساعدّها. من ثمّ بإمكاننا أن نترك للعلم التفاصيل التقنيّة كلّها والتي يتوجّب عليه

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

توضيحها، لنعود وببساطة إلى فعل الإيمان. أن نصل إلى القناعة بأنّ هذا التاريخ الفريد من نوعه لم يبنه الإنسان وحده، ولكن وراءه ما هو أعظم وأكبر.

كم هو عدد الطرق التي تقود إلى الله؟

كثيرة. إنّها بعدد الناس. لأنّه، حتّى ضمن إيمان واحد، الطريق التي يختارها كلّ شخص هي طريق خاصّ. أمامنا كلمة يسوع: أنا هو الطريق. بمعنى أنّه في النهاية هناك طريق واحد، وكلّ من يسير باتّجاه الله هو بطريقة ما على طريق يسوع المسيح. لكنّ هذا لا يعني أنّه على صعيد الوعي أو الإرادة، كلّ الطرقات واحدة. على خلاف ذلك هذا يعني أنّ الطريق الواحد عريض بشكل أنّه يتحوّل في داخل كلّ إنسان إلى طريقه الخاصّ.

ترتوليان أطلق هذه المفارقة: «إنّني أؤمن لأنّ ذلك غير معقول». أمّا أوغسطينوس فكان يؤمن «ليعرف». والكاردينال راتسنجر، لماذا يؤمن؟

في هذه النقطة أنا أوغسطينيّ بتصميم. وكما أنّ الخليقة تأتي من العقل وهي عقلانيّة، هكذا يكون الإيمان بمعنى أنّه إتمام أسمى للخليقة ويكون بابًا ندخل منه إلى الفهم. أنا واثق من هذا الأمر، فالإيمان يكون هنا الولوج إلى الفهم والتوصّل إلى المعرفة.

تعبير ترتوليان – هو يحبّ صياغة التعابير المبالغ فيها – يتناسب بالطبع مع قمّة تفكيره عمومًا. إنّه يريد أن يقول إنّ الله يُظهر نفسه خصوصًا من خلال التناقض مع ما هو سائدٌ في العالم، وبهذا يُظهر إلوهيّته. لكنّ ترتوليان كان نوعًا ما عدوًّا للفلسفة، فأنا لا أشاطره رأيه، بل رأي القدّيس أوغسطينوس.

هل عندك أيضًا عبارة تلخّص جوهر الإيمان؟

لست بحاجة إلى شعار جديد. يبدو لي أنّ عبارة أوغسطينوس، التي تبنّاها في ما بعد توما (الأكوينيّ)، تحدّد الاتّجاه الحقيقيّ. أؤمن! فعل الإيمان نفسه يفترض أنّ هذا يأتي ممّن هو العقل ذاته. أبدأ، بإيماني، بالخضوع لمن لا أدركه وأعرف حينئذٍ أنّني أشرّع الباب إلى الفهم الحقيقيّ.

أغلبيّة الناس في عصرنا الحاضر لا يمكنهم الإيمان بما يعرفون كما أنّهم لا يعرفون بما عليهم أن يؤمنوا به. أرى في شخصك وحدة بين الفكر والإيمان، كما أرى شموليّة لم نعد نعرفها نحن المتشكّكين والمضلّلين، أبناء العصر الحديث. كيف يكون هذا الإحساس بالحياة الذي تعيشه؟

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

إنّني لا أجرؤ، الآن، أن أحكم على البشر المعاصرين بشكل عامّ، وأن أجزم بأنّهم ممزّقون حقًّا في حالتهم الحاضرة أو هل لديهم طرقٌ تهديهم إلى وحدتهم. كلّ إنسان مشدود داخليًّا بين أقطاب عديدة، وهذا يصلح أيضًا عندي وعند كلّ راهب أو أسقف، وذلك لأنّ اهتمامنا، معرفتنا أو جهلنا، موهبتنا أو فقرنا لها، كلّ ذلك لا يتطابق بشكلٍ تلقائيّ مع إيمان الكنيسة. بهذا المعنى يعيش كلّ إنسان، وأنا أيضًا، توتّرًا داخليًّا. لكنّني لن أعرّف عن هذه الحالة على أنّها حالة تمزّق داخليّ. إنّ الإيمان مع الكنيسة وبتعاليمها، ومعرفة أنّه بإمكاني الوثوق بهذه التعاليم وبكلّ ما تمثّله من معرفة وأنّها كلّها ينيرها نور الله ويعمّقها، إنّما هذا ما يدفعني إلى التماسك. إنّ الفعل الأساسيّ الذي هو فعل الإيمان بالمسيح، وانطلاقًا منه محاولة توحيد الحياة، هو ما يجمع بين الأقطاب المتنافرة بحيث لا يسمح بتحويل الشقّ إلى هاوية.

لقد ذكرت مرّة، وبمناسبة الحديث عن نشر الدعوة الإنجيليّة، عن ضرورة لقاءات تعارف جديدة، حتّى إنّك تكلّمت عن ضرورة ثورة مسيحيّة. فالدراسات الدقيقة لن تتمكّن من إظهار «الأشكال الثقافيّة الجديدة الحيّة للمسيحيّة»، إنّما يجب على الناس أن يتعرّفوا على يسوع من جديد. يبدو لي أنّ عددًا أكبر من الناس يرغبون في الإيمان، اليوم – لو استطاعوا. لكنّ الأمور لا تبدو سهلة كما في السابق.

هذا جليّ. في هذه الأثناء نعيش كمًّا من المعرفة ومن إمكانات الحياة. نجد من جهة أخرى الإيمان وقد اكتمل بناؤه وانتظم إلى أقصى حدّ، بحيث يصعب علينا فتح باب الدخول إليه. نحن بحاجة، على ما أعتقد، إلى ثورة في الإيمان عديدة الجوانب، نوعًا ما. بادئ الأمر نحن نحتاج إلى ثورة كي نجد الشجاعة فنناقض المسلّمات الشائعة. لدى الغالبيّة اليوم، إيديولوجيّة متوسّطة تهدف إلى اكتساب الإنسان مستوًى حياتيًّا معيّنًا، وإلى أنّه يتمكّن من تحقيق ذاته من خلال ما يتمنّاه أو ما يطمح إليه، وإلى أنّ الله يشكّل قوّة مجهولة الحجم، لا يُحسَبُ لها حسابٌ في الواقع. كما أصبح من الشائع أنّ الأخلاق تنجم بالأحرى عن المصادفة والتدبير المؤدّي إلى السعادة.

كما ذكرت أنّ الإيديولوجيّا المتوسّطة التي نعيش فيها اليوم، وتُفرض علينا يومًا بعد يوم، تقودنا إلى قناعات تعزل الكائن البشريّ عن الجوهر. يستحيل على الإنسان الولوج إلى الجوهر، ومن جهة أخرى يلاحَظ أنّ ثمّة أمرًا ما ينقصه. إذا كنّا نعاني اليوم أمراضًا جماعيّة فهذا يعود إلى غياب شيء ما في حياة الإنسان، وإلى نقص نشعر به. لذلك

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

علينا التحلّي بالشجاعة للوقوف بوجه ما يعتبر أنّه مقياس طبيعيّ للإنسان في نهاية القرن العشرين، كما علينا العودة إلى اكتشاف الإيمان بكلّ بساطته.

ببساطة من الممكن أن يتمّ هذا الاكتشاف بلقاءٍ مع المسيح، ليس لقاءً مع بطل تاريخيّ، لكن مع الله الذي أصبح إنسانًا. وعندما يتحقّق دخوله بالفعل في حياة ما، فهذه الحياة تتّخذ اتّجاهًا مختلفًا. عندئذ تنشأ ثقافة إيمان، وأنا مقتنع جدّ الاقتناع بهذا الأمر. المهمّ أنّ قرارًا كهذا يجب ألاّ يكون أبدًا قرارًا فرديًّا، إنّما يجب أن يكون قرارًا بالتضامن مع الآخرين فيشكّل جماعة. وبقدر ما يُعاش هذا القرار في ما بعد، يخلق حينئذٍ أسلوب حياة وينتج أيضًا ثقافة.

الكثيرون ينتظرون المستقبل بحماسة كبيرة، وكثيرًا ما نلاحظ ظهور هستيريا المستقبل. كما أنّنا لم نشهد أبدًا في السابق هذا العدد الهائل من البدايات والنهايات. بين وقت وآخر نظنّ أنّ الكثير من الأمور يتطوّر نحو الأفضل. من جهة أخرى يبدو هذا العالم على ما هو عليه وكأنّه معقل كبيرٌ للمجانين. مجتمعات الترف والملذّات تجاور مجتمعات الفقر المتزايد، إلى جانب الحروب، والكوارث الطبيعيّة التي تتزايد ضرباتها، ومع علامات الانحطاط الثقافيّ، تزايد انعدام الفهم والحكمة؛ لم نشهد أبدًا هذا العدد الكبير من الناس المعدومي الإرادة والمدمنين، وهذا العدد من العلاقات الزوجيّة المحطّمة، والأولاد الضائعين، والانحطاط الخلقيّ الناجم عن البؤس، ويا للعجب عن أسباب النعيم.

سيّدي الكاردينال، لقد قلت ذات يوم إنّ ما ينقص عصرنا هو القدرة على الفرح، وليس القدرة على الحزن، ولكن ألا تجد أنّ الفرح يزداد صعوبة؟

ما ألاحظه على الدوام، هو أنّ الفرح العفويّ أصبح نادرًا. في وقتنا الحاضر، غالبًا ما يُثقّل الفرح برهانات إيديولوجيّة وأخلاقيّة؛ وسرعان ما يراودني الخوف من ارتكاب ذنب بحقّ التضامن مع المعذّبين ساعة الفرح. والبعض يظنّ، أنّه لا يحقّ له بالفرح في عالم يحتوي على هذا الكمّ من الظلم والعذاب كعالمنا.

أستطيع فهم هذا الموقف بدافع من اهتمامات أخلاقيّة؛ ولكن بالرغم من كلّ ذلك، نجده خاطئًا، لأنّ العالم لن يتحسّن من خلال فقدان الفرح، وعلى العكس، إذا منعنا أنفسنا عن السعادة، باسم العذاب، فلن نساعد بذلك المعذّبين. إنّ العالم بحاجة إلى

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أشخاص يكتشفون الخير ويفرحون به، ومن خلال ذلك يتلقّون الشجاعة والاندفاع نحو الخير. الفرح لا يُلغى التضامن. عندما تكون السعادة حقيقيّة، بعيدة عن الأنانيّة ومستمدّة من إدراك الخير، فهي تفرض المشاركة لتتخطّانا. ما يُفاجئني هو أنّني ألتقي في أحياء أميركا الجنوبيّة الفقيرة بعدد أكبر من الناس الفرحين الضاحكين أكثر منّا. من الواضح أنّ لديهم، على الرغم من العوز، وعيًا يميّز الخير، يتمسّكون به، وينهلون منه التعزية والقوّة.

بهذا المعنى نحن نفتقر إلى هذه الثقة الأوّليّة التي لا يمكن أن يعطينا أيّاها سوى الإيمان الذي يقول لنا إنّ العالم جيّد، وإنّ الله موجود، وهو صالح، وإنّه من الجميل أن يعيش الإنسان بكلّ أبعاده الإنسانيّة. ومن هنا نستمدّ الشجاعة للعيش بفرح، الذي بدوره يسمح للآخرين بأن يفرحوا ويتقبّلوا البشرى الحسنة.

لنعد الآن إلى وجهَي عصرنا وفق ما أوضحته في السؤال. هناك مفهوم جديد للتضامن وللمسؤوليّة تجاه الإنسانيّة بشكل عامّ وتجاه الخليقة. هناك الحركات الجامعة التي تسعى للعمل في مناطق الأزمات وتحاول إيجاد الحلول السلميّة وتخطّي التعاسة. كلّ مواطن في هذا العقد بإمكانه أن يلاحظ ذلك، وبكلّ امتنان. ومن هنا نستخلص بوضوح أنّه من غير الممكن عمليًّا سحق الخير في الإنسان.

من جهة أخرى تحدّثتَ عن معقل للمجانين وعن الانحطاط الرهيب. هذا ما نلاحظه جميعًا. إنّني أعتقد هنا، تحديدًا، أنّ مجتمع الحشود والإمكانات الناجمة عن السيطرة التقنيّة على العالم، قد ولّدت أنواعًا جديدة من الشرّ لا يمكن تجاهلها.

إنّها تحدّيات كبرى تواجهنا: مناهضة الاهتمام بالجماعات الذي يؤدّي إلى عزل الفرد وزجّه في عزلة راديكاليّة، وخلق إمكانات حياة اجتماعيّة سليمة. هذا ما يستدعي التزامًا كاملاً مع الإقرار مسبقًا بأنّه من المستحيل النجاح من خلال التقنيّات فحسب، بل بعملنا أيضًا.

أعني أنّه يظهر هنا عنصران أكيدان: إنّ الإنسان مخلوق خُلُقيّ يحمل مسؤوليّة تجاه نفسه وتجاه البشريّة جمعاء، ولكنّه أيضًا مخلوق يستمدّ من الله الوسائل للاستمرار والتقدّم.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الفصل الأوّل

السيرة الذاتيّة

الأصل والدعوة

سيّدي الكاردينال، ما رأيك بهذه الفكرة: نأتي إلى هذا العالم ونحن نعرف مسبّقًا ما يجب أن نفهمه، وحيث نريد أن نكون في هذا العالم، نحن فيه؟

بالنسبة إليّ، إنّها فكرة بعيدة المدى. لا أدري ما مصدر هذه الجملة، لكنّ الإنسان يأتي إلى هذا العالم بصفة المتسائل، حتّى إنّ أرسطو شبّه الإنسان – وهكذا فعل أيضًا توما الأكوينيّ – باللوح الأبيض. إنّهما ينفيان أيّة معرفة إنسانيّة فطريّة، ويعتبران أنّ العقل هو عبارة عن سعة إدراك واستيعاب لا غير. أمّا أنا فإنّني أضيف بعض الفوارق. على كلّ حال من الصحيح أنّ الإنسان يأتي متسائلاً، وهو بالطبع منفتح داخليًّا استعدادًا لتقبّل الأجوبة.

إنّني، نوعًا ما، أفلاطونيّ، أعني بهذا، أنّ شيئًا ما يُشابه الذاكرة، أو ذكرى الله مخفيّة في الإنسان منذ البداية، لكنّها تحتاج، من دون شكّ إلى إيقاظها. الإنسان لا يدري بسهولة ما عليه أن يعلم. وهو ليس بمجرّد حاضر، بل إنسان، إنّه كائنٌ سائرٌ في طريقه.

الديانة البيبليّة في العهدين القديم والجديد شدّدت دائمًا وبثبات على صورة شعب الله التائه، فإسرائيل كان فعلاً شعباً متنقّلاً. هذه الصورة تُظهر ما هو الوجود البشريّ في الواقع. إنّ الإنسان هو مخلوق في رحلة سفر، وإنّ طريقه ليس طريقًا وهميًّا، إنّما هناك في واقع الحياة ما يحصل له حقيقةً، ويستطيع البحث والعثور، كما أنّه بالإمكان أن يضيع الطريق.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

غالباً ما تستعمل كلمة «عناية إلهيّة». فما معناها بالنسبة إليك؟

أنا مقتنع جدّ الاقتناع بأنّ الله يرانا بالفعل، وبأنّه يترك لنا الحرّيّة؛ ومع ذلك، هو يوجّهنا. غالبًا ما أُلاحظ أنّ أمورًا بدت خطرة، غير مريحة، وحتّى مزعجة، ثمّ انقلبت فجأة وقتًا ما لتصبح إيجابيّة. وندرك فجأةً أنّها كانت جيّدة، وأنّ الطريق كان صحيحًا. وهذا ما يعني بالنسبة إليّ عمليًّا أنّ حياتي لا تتألّف من مجموعة مصادفات، إنّما هناك من يرى مسبّقًا ويسبقني على الطريق ليفكّر فيّ ويرتّب حياتي. أستطيع أن أرفض ذلك، لكن بإمكاني أيضا القبول وعندها أُلاحظ بأن نورًا مدبِّرًا كان يقودني.

إنّ هذا لا يعني أبدًا أنّ الإنسان مسيّر ومحدّد بشكل تامّ، إنّما على العكس، فإنّ هذا التدبير دعوة إلى حرّيّته الخاصّة. وذلك كما في مثَل الوزنات: وُزّع منها خمس على واحد واثنتان على الآخر، إلخ. وكلّ من أُعطي كان عليه واجبٌ محدّد، لكن كان له حقّ التصرّف على هواه. والخلاصة أنّ لكلّ فرد رسالته، لكلّ واحد موهبته المميّزة ولا أحد منّا زائد عن اللزوم، أو لا حاجة له، وعلى كلّ فرد منّا محاولة التعرّف على دعوته، وعلى أفضلِ السبل لتلبية النداء الموجّه إليه.

ولدتَ في ١٦ نيسان ١٩٢٦ في «ماركت إم إن»، من أعمال بافاريا يوم سبت النور. فهل تعني لك هذه الصدفة شيئًا؟

نعم، إنّني أجد المناسبة ملائمة، ليلة الفصح، بانتظار الفصح الذي لم يحل بعد، الذي لم يزل محتجبًا. إنّها مناسبة جميلة، توحي لي بطريقة ما الصورة التي أرى بها التاريخ ووضعي الخاصّ: على عتبة الفصح، ولكن وقت الدخول لم يحن بعد.

والداك كانا يُدعيان ماريّا وجوزف. لقد مُنحت سرّ العماد بعد أربع ساعات من ولادتك، في الثامنة والنصف صباحًا، وعلى ما يُروى كان نهار عاصف.

من الطبيعيّ أنّني لم أعد أتذكّر ذلك. لكنّ أشقّائي وشقيقاتي قد أخبروني أنّه كان يوماً كثيف الثلج وباردًا على الرغم من أنّه كان السادس عشر من نيسان. لكنّ هذا ليس بالمستغرب في منطقة بافاريا.

يبقى من غير المألوف أن تتلقّى سرّ المعموديّة بعد أربع ساعات من ولادتك.

صحيح! لكنّ السبب الحقيقيّ، – وهذا ما يفرّحني – هو أنّه كان يوم سبت النور.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

في تلك الأيّام، لم تكن تقام احتفالات ليلة الفصح، كان يحتفل بالقيامة قبل الظهر مع مباركة المياه التي بدورها كانت تستعمل طيلة السنة للمعموديّة. وبالتالي بما أنّ ليتورجيّا المعموديّة كانت قائمة في الكنيسة فقد قرّر أهلي، بما أنّني كنت قد ولدت، أنّ أُعمَّد في هذه الساعة التي هي حقًّا ساعة معموديّة بالنسبة إلى الكنيسة. إنّ تزامن ولادتي مع ساعة تحضير الكنيسة لماء المعموديّة، وأن أكون المعمّد الأوّل في الماء المبارك حديثًا، يعني لي شيئًا مميّزًا. فولادتي ربطتني بشكلٍ خاصّ بالفصح، ثمّ كان ترابط ولادتي ومعموديّتي في ما بينهما بشكلٍ غنيٍّ بالمعاني.

لقد ترعرت في الريف وكنت الصغير بين ثلاثة إخوة. والدك كان شرطيًّا والعائلة تميل إلى الفقر أكثر منها إلى البحبوحة. ذكرت مرّة أنّ والدتك كانت تحضّر الصابون على يدها.

لقد تزوج والداي عن كبر، وراتب والدي الذي كان شرطيًّا برتبة كوميسّير كان متواضعًا. لم نكن فقراء بالمعنى الضيّق للكلمة لأنّ الراتب الشهريّ كان مضمونًا على الرغم من أنّنا كنّا مجبرين على العيش ببساطة وحرص، الأمر الذي ما زلت ممتنًّا له. إذ إنّه بالتحديد، من خلال هذا الوضع، خُلِق لدينا فرح وسعادة لم نكن لنعرفهما لو عشنا في حالة من الترف. إنّني أتذكّر مرارًا كيف كان بإمكاننا أن نسعد لأشياء صغيرة، وكيف كنّا نحاول أيضًا أن نُسعِدَ بعضنا بعضًا. وكيف أنّه بالتحديد، وسط هذا الوضع الصعب ماديًّا، والمتواضع، كنّا مترابطين داخليًّا بشكل عميق.

من الواضح أنّ الأهل قاسَوا الكثير حتّى نتمكّن نحن الثلاثة من متابعة الدراسة. لقد شعرنا بهذا وحاولنا أن نبادلهم الجميل. لذلك كان هناك جوّ من البساطة والسعادة والمحبّة في ما بيننا. لقد أدركنا فعلاً قيمة ما قدّم الأهل لنا وما كانوا يتحمّلونه لهذا الهدف.

أمّا في ما يتعلّق بصنع الصابون فالدافع كان مختلفًا. الأمر لم يكن سببه الفقر إنّما الواقع الذي فرضته الحرب والذي حتّم البحث عن بدائل من الأغراض التي لم تكن موجودة. كانت أمّي طاهية، كما كانت بطبعها تتقن كلّ ما تفعل. لقد استطاعت أن تحضّر بأبسط الموادّ وأقلّها طعامًا جيّدًا، عندما كان الجوع يسيطر على البلاد.

أميّ كانت حارّة القلب وقويّة داخليًّا، والدي كان يميل إلى العقلانيّة والتصميم والاعتماد، كما أنّه كان مؤمنًا عقلانيًّا، يفهم كلّ شيء بسرعة وبوضوح، وقد تمتّع

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

دائمًا بحكم صائب مذهل. عندما جاء هتلر إلى الحكم قال: إنّ الحرب آتية، علينا أن نؤمّن لنا بيتًا.

كان هناك جيورج راتسنجر الذي قام بدورٍ ملحوظ في تاريخ منطقة بايرن.

إنّه أحد أعمام أبي. لقد كان كاهنًا وحصل على شهادة دوكتوراه في اللاهوت. كان نائبًا في مجلس أعيان المنطقة ولدى الحكومة المركزيّة، وأدّى دورًا رائدًا في المطالبة بحقوق الفلاّحين والناس البسطاء. وقد طالب بحظر عمل الأطفال وهو ما كان معتبَرًا يومها ضربًا من الوقاحة. كان رجلاً صلبًا. إنّ العائلة تفتخر به كما تفتخر بإنجازاته ومكانته السياسيّة.

كيف كان يبدو البيت عندكم؟ كيف كنتم تسكنون وتعيشون؟

إنّ عمل والدي كشرطيّ حتّم علينا حياة متنقّلة. فأنا شخصيًّا لم يعد عندي ذكريات لمكان ولادتي «ماركت إم إن»، إذ إنّنا غادرناه وأنا في الثانية من عمري. انتقلنا عندها إلى تيتمونغ، وكان مركز البوليس في ساحتها في بيت سابق لرئاسة دير. المنزل كان جميلاً جدًّا ولكنّه غير مريح. فالصالة الرئيسيّة كوّنت غرفة نومنا لأنّ الغرف الباقية كانت صغيرة جدًّا. المنزل كان يكفينا من حيث المساحة، ولكنّه كان منزلاً قديمًا ومتهدّمًا بعض الشيء. بالنسبة إلى الوالدة كان متعبًا جدًّا، فقد كان عليها نقل الحطب والفحم على درجين كبيرين. بعدها سكنّا في آشاو في فيلاّ جميلة جدًّا كان فلاّح قد بناها ثمّ أجّرها للدرك. بالطبع إنّ السكن كان بعيدًا جدًّا عن مفهوم الراحة المتوفّرة حاليًّا. فعلى سبيل المثال لم يكن لدينا حمّام، لكنّ الماء كان يصل إلى البيت.

مع اقتراب نهاية الخدمة اشترى والدي مزرعة قديمة من فلاّح في هوفشلاغ قريبًا من ترونشتين. وعوضًا من ماسورة المياه كان عندنا بئر. بالطبع كان ذلك رومنطيقيًّا جدًّا. كان يحدّ البيت من جهة غابة من السنديان والزان، ومن الجهة المقابلة الجبال التي كانت أوّل ما تلمحه أعيننا عندما نستيقظ. أمام البيت كانت هناك حديقة مغروسة بأشجار التفّاح والخوخ والكثير من الأزهار التي زرعتها أمّي. لقد كانت قطعة أرض كبيرة وجميلة، وموقعها سماويّ. أمّا في مخزن الغلال القديم المجاور فقد كان بإمكاننا أن نحلم أجمل الأحلام ونلعب بشكل رائع.

لقد كان عالمًا غير مستكشف وخفيًّا لكثرة تنوّعه. كانت غرفة منه تشكّل مصنعًا للنسيج قديمًا، لأنّه على ما يبدو كان صاحب البيت الأسبق نسّاجًا. الغرف نفسها كانت بسيطة

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

جدًّا – أعتقد أنّ البيت قد بُني حوالى ١٧٢٦– لكنّه كان بحاجة كبيرة إلى ترميم إذ كان المطر يدخل إلى قاعاته، إلخ. على الرغم من ذلك كان جميلاً ببساطة كحلم الأطفال. فلقد شعرنا داخله بسعادة رغم انعدام الرفاهيّة. بالنسبة إلى الوالد الذي كان عليه أن يموّل التصليحات، وإلى الوالدة التي كان عليها جلب الماء من البئر، كانت الأمور بالطبع أقلّ مرحًا. على الرغم من ذلك عشنا في هذا المنزل وكأنّه الجنّة. كنّا نحتاج إلى حوالى نصف ساعة لنصل إلى المدينة، لكنّ ذلك أيضًا كان جميلاً ولم نشعر يومًا بنقص في رفاهيّة السكن الحديث، ولكنّنا عشنا الحرّيّة والجمال والمغامرات التي يوفّرها السكن في بيت قديم مع ما يتمتّع به من دفء داخليّ.

هل كان الجوّ العائليّ صارمًا؟

بشكل ما، نعم. والدي كان رجلاً عادلاً جدًّا، لكنّه كان صارمًا جدًّا. لكنّنا شعرنا دائمًا بأنّ حزمه مبنيّ على الطيبة. لذلك استطعنا أن نتقبّله. أمّا الوالدة فقد عرفت كيف توازن عاطفتها وطيبتها مع ما كان عنده من قساوة. لقد كانا مزاجين مختلفين تمامًا، ومع ذلك تمكّنا، من خلال هذا التمايز بالأطباع، أن يتكاملا. لقد كان والدي صارمًا، نعم، لكن كان هناك الكثير من الدفء والسعادة التي تزايدت من خلال الألعاب التي كنّا نلعبها معًا، مع الأهل أيضًا، وخصوصًا من خلال الموسيقى التي كان لها دور هامّ في حياتنا العائليّة بما لها من قوّة جامعة.

أنت معجب جدًّا بموزارت.

نعم، على الرغم من تنقّلنا كثيرًا خلال طفولتي، بقيت العائلة دائمًا في المحيط الواقع بين إن وسالزخ. أمّا أجمل وأهمّ وأطول مرحلة شبابي فقد أمضيتها في تراونشتين، المطبوعة جدًّا بالطابع السالزبورغيّ. لذلك يمكنني أن أقول إنّ موزارت تغلغل في أعماق روحي، وهو ما زال يؤثّر فيّ بعمق لأنّه منير وعميق جدًّا في آن واحد! من الأكيد أنّ موسيقاه ليست مجرّد عزف على الإطلاق، بل إنّها تحتوي تراجيديا الوجود الإنسانيّ كلّه.

إنّ الفنّ أساسيّ. فالعقل وحده، وكما يعبَّر عنه في العلوم، لا يمكن أن يكون الجواب الكامل للإنسان، كما أنّه لا يمكن أن يعبّر عن كلّ ما يستطيع الإنسان قوله، وما يريد قوله، وما عليه أن يقول. إنّني أعتقد أنّ الله زرع الفنّ في الإنسان. الفنّ والعلم هما أهمّ موهبتين منحهما الله للإنسان.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لقد أرسل والداك الأولاد الثلاثة إلى المدرسة الداخليّة، كيف حدث ذلك؟

في ذلك الوقت كانت هذه الطريقة الوحيدة للحصول على « تعليم عالٍ». عدد المدارس الثانويّة كان قليلاً جدًّا في الريف. غالبًا ما كان بُعد المسافة إلى المدرسة هو السبب في الدخول إلى المدرسة الداخليّة. كانت أختي تحصّل دراستها التكميليّة في مدرسة للراهبات الفرنسيسكانيّات، وتقطع مسافة خمسة كيلومترات يوميًّا على درّاجتها، إلى أن طلبت بنفسها أن تلتحق بمدرسة داخليّة، فنالت ما طلبته. لقد كان أخي الأوّل بيننا الذي وصل إلى المدرسة الثانويّة فاضطُرّ إلى الالتحاق بمدرسة داخليّة. كان هذا الحلّ الوحيد. لقد ذهبتُ في البدء طوال سنتين من البيت إلى المدرسة، ثمّ كانت الفكرة بعد أن أصبحت وحيدًا في البيت، وربّما أيضًا لأسباب تربويّة، أن أدخل أنا أيضاً إلى المدرسة الداخليّة – بالطبع كان لهذا التدبير جوانبه التربوية النافعة – مع أنّني أعترف بأنّ وقعه عليّ لم يكن بالسهل، إذ يتعلّم المرء نوعًا مختلفًا من الاندماج الاجتماعيّ ومن التأقلم. لم تدم تلك المدّة إلاّ سنتين حتّى تحوّلت المدارس الداخليّة كلّها إلى معسكرات للجنود واضطررتُ إلى العودة إلى البيت.

هل يمكننا القول إنّ الأسرة كانت متديّنةً بشكل مميّز؟

بالتأكيد يمكننا أن نصفها هكذا. والدي كان رجلاً مؤمنًا جدًّا. كان يذهب الأحد إلى القداس عند السادسة صباحًا، ثمّ يعود في التاسعة ليحضر القدّاس الرئيسيّ، وبعد الظهر أيضًا، أمّا والدتي فكان إيمانها يتّصف بالحرارة والمحبّة. في هذه النقطة اتّفق الاثنان على الرغم من اختلاف أطباعهما، فكان للدين دور مركزيّ في حياتهما.

أيّ تربية دينيّة نلتم في البيت؟ من الواضح أنّه في الوقت الحاضر لدى الكثير من الأهل صعوبات في هذا المجال.

الدين كان جزءًا من الحياة بمجرّد الصلاة المشتركة. كنّا نصلّي قبل كلّ وقعات الطعام. كما أنّنا كنا نذهب يوميًّا إلى الكنيسة عندما يسمح لنا بذلك البرنامج المدرسيّ، ونهار الأحد نحضر القدّاس معًا، وعندما تقاعد والدي بدأنا غالبًا نصلّي المسبحة. عند ذلك كان الأمر متروكًا للتعليم الدينيّ في المدرسة، لكنّ والدي اشترى لنا عددًا من كتب المطالعة. فكان هناك دائمًا مجلاّت مخصّصة في مناسبات كالقربانة الأولى. لا يمكن أن نقول إنّا تربّينا تربيةً دينيّة علنًا، إنّما تلقّنا ذلك من خلال الصلاة المشتركة في العائلة وبالزيارات إلى الكنيسة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

في شبابك، ما الذي فتنك في الإيمان؟

منذ البدء كان اهتمامي كبيرًا بالليتورجيّا. وكان لإخوتي على ما اعتقد الاهتمام نفسه. لقد اشترى لي أهلي عندما كنت في الصف الثاني كتاب الصلوات (Missale) الأوّل. فكان التغلغل في عالم الليتورجيّا اللاتينيّة السرّيّ مشوّقاً للغاية، كذلك محاولة فهم ما يجري، ما معناه، وما سيقال. هكذا تدرّجنا من كتاب الصلاة الخاصّ بالأطفال وصولاً إلى الأكبر المخصّص للراشدين الكامل والمفهوم، كان ذلك نوعًا من رحلة استكشاف.

كتاب الصلاة (Missale) – ما هذا؟

إنّه كتاب القدّاس الذي يستعمله الكاهن على المذبح، وهو موجود في طبعة عمليّة، مترجمة إلى اللغة المحلّيّة، ومخصّص للعلمانيّين. بالطبع كانت الأعياد الليتورجيّة تسحرنا مع الموسيقى وكلّ ما هنالك من بدلات وصور. كان ذلك واحدًا من الوجهات الجذّابة. أمّا الوجه الآخر فكان يهمّني عقلانيًّا وهو كلّ ما يقوله الدين. كما لو أنّ ذلك قادني في تفكيري خطوة خطوة. فكان من النافع جدًّا أن نفكّر بذلك في زمن الوطنيّين الاشتراكيّين. فالناس كانوا يعرفون: هذا كاثوليكيّ ويزور الكنيسة بانتظام، أو إنّه يريد أن يصبح كاهنًا. فكنّا ننجرّ إلى نقاشات كان علينا أن نكون محصّنين لخوضها.

بالطبع كانت محاولة الفهم وإيجاد الإيضاحات والحجج مشوّقة، حتّى إنّها تحوّلت إلى مغامرة عقلانيّة، كانت تتوسّع باستمرار لتكشف آفاقًا جديدة. إنّ ترافق الحفلات الليتورجيّة – والعقلانيّة ظهرت لي حينئذٍ أنا الكائن البشريّ والذي يحاول فهم العالم، وكأنّها إمكانيّة جميلة ومميّزة لملء الحياة.

من الواضح أنّني أرى هنا ارتباطًا واضحًا بموطنك بافاريا، وبالكاثوليكيّة الخاصّة بمنطقة بافاريا. لقد أكّدت مرارًا أنّك كنت تدافع عن الإيمان المتواضع للناس البسطاء إزاء تكبّر اللاهوتيّين وأيضًا إزاء الإيمان بالرفاهة، العقلانيّ والبورجوازيّ، الخاصّ بالمدن.

لقد حاولنا بكلّ بساطة أن نكون كاثوليكيّين ومؤمنين. لكنّ إيماننا اكتسب ألوانه المشرقة في البداية في الريف ومن ثمّ في هذه المدينة الصغيرة تراونشتين، حيث انتقفت الكاثوليكيّة وتداخلت مع أعماق حضارة هذه المقاطعة وتاريخها. كان ذلك انتقافًا، تعبير مناسب حمله إلينا تاريخنا الخاصّ.

لقد كنّا في عائلتنا وطنيّين متعلّقين بمنطقة بافاريا. أصل والدي من بافاريا السفلى،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

وكما تعرف، طغى على سياسة بافاريا في القرن التاسع عشر تيّاران: كان هناك المتّجهون نحو الأمبراطوريّة، بمعنًى آخر، الوطنيّون الألمان، يقابلهم من جهة أخرى المحبّذون لبافاريا أو الاتّجاه الكاثوليكيّ– الفرانكوفيل. انضمّت عائلتي بشكل واضح إلى هذا الاتّجاه الأخير، يعزّزها انتماؤها الوطنيّ لبافاريا وكانت فخورة بتاريخ هذه المنطقة.

أصل أمّي من تيرول، لكن هنا أيضًا يغلب هذا الطابع الألمانيّ الجنوبيّ الكاثوليكيّ القويّ والحيّ. كنّا ملتصقين جدّ الالتصاق بتاريخنا كما أنّنا كنّا نعي أنّه تاريخ يحقّ الاعتزاز به. لم يكن لهذا التاريخ أيّة علاقة على الإطلاق بالتاريخ الوطنيّ الذي قاد إلى الكوارث الكبرى بين سنة ١٩٣٣ و١٩٤٥. على العكس وبالتحديد، الكوارث التي خلقها النظام الوطنّي رسّختنا في نظرتنا الخاصّة للتاريخ.

هل كان عندكم صراع بين الأب والابن؟

هذه الصراعات وجدت هنا وهناك بالطبع. لكن كان لديّ في العمق علاقة حميمة جدًّا بوالدي. خلقت هذه العلاقة في السنة الأخيرة لخدمة والدي الذي أخذ فترات طويلة من العطلة بدافع المرض. إنّ الامبراطوريّة الثالثة عارضت تصوّراته كلّها فحاول بكلّ قواه التخلّص من الخدمة. في هذه الأشهر تنزّهنا أنا ووالدي نزهات طويلة وهو ما جعلنا نتقارب. بعد تقاعد والدي، ولأنّ الأولاد الثلاثة كانوا يتلقّون التعليم في المدارس الداخليّة، مرّت العائلة بأزمة ماليّة اضطرّت أمّي أن تعود إلى عملها طاهيةً فصليّة في رايت الواقعة في فينكل. بقينا أنا ووالدي لوحدنا في المنزل. روى لي أشياء كثيرة، كما أنّه كان يتمتّع بموهبة السرد. تقاربنا الواحد من الآخر في النزهات من خلال الأحاديث. كما أنّ خطّه الألمانيّ وعداءه المصمّم للحكم آنذاك أقنعانا برأيه. كان يستمدّ قوّة إقناعه البسيطة من مصداقيّته الداخليّة. لذلك أصبح موقفه مثالاً لنا على الرغم من تعارض هذا الموقف مع ما كان سائدًا آنذاك.

كيف عبّر عن مواقفه المعادية للنظام آنذاك؟

بقي في خدمة الدولة حتّى سنة ١٩٣٧. عايشنا في تيتمونغ ما يُسمّى ب«زمن المعركة» (Kampfzeit) أي نهاية جمهوريّة فايمار. كنت ما زلت صغيرًا لكنّني أتذكر جيّدًا كم تألّم. اشترك في جريدة «الطريق القويم» (Der gerade Weg) وهي جريدة معادية

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

للنازيّة، وما زلت أذكر الصور الكاريكاتوريّة المعادية لهتلر التي كانت تحتويها. كان والدي قاسيًا جدًّا في تعابيره. ثمّ إنّ السيطرة على الحكم القريبة التي توقّعها كانت السبب الرئيسيّ الذي دفعه إلى نقلنا إلى الريف. هناك بالطبع كان الوضع مريحًا أكثر رغم وجود عدد لا بأس به من النازيّين بين الفلاّحين. لم يمارس أيّة معارضة علنيّة، حتّى في الريف، إذ كان ذلك مستحيلاً. لكنّ ثورات الغضب كانت تنتابه عند قراءة الصحف في المنزل. لقد عبّر عن موجة الاستياء بشكل بليغ وواضح أمام أشخاص كان يثق بهم. الأهمّ أنّه على الرغم من كونه موظّف دولة لم يلتحق أبدًا بأيّة منظّمة.

هل انتميت أنت إلى «الشبيبة الهتلريّة»؟

في البدء لم ننتمِ إليهم، لكن عندما أصبحت خدمة الشبيبة الهتلريّة إلزاميّة، سنة ١٩٤١ اضطرّ أخي إلى الالتحاق بها. كنت ما زلت صغيرًا. لكن في ما بعد، وأنا في الإكليريكيّة أُلحقت بالشبيبة الهتلريّة. ما إن غادرت الإكليريكيّة لم أعد أبدًا إلى هناك. كان الأمر صعبًا لأنّ المساعدة الماليّة التي كنت بأمسّ الحاجة إليها كانت مرتبطة بتأكيد المشاركة في الشبيبة الهتلريّة. لكن، وشكرًا لله، كان هناك أستاذ رياضيّات متفهّم ومستقيم جدًّا على الرغم من كونه نازيًّا، قال لي مرّة: «اذهب مرّة واحدة كي تحصل على الموافقة...» عندما لاحظ ممانعتي قال لي: «إنّي أتفهّمك، لا بأس، سوف أرتّب الأمور». وهكذا تمكنّت أن أبقى حرًّا بعيدًا عنهم.

بماذا كنت تحلم أن تصبح عندما كنت صغيرًا؟ هل كان لديك أيّ مثل أعلى؟

من الصعب الإجابة إن كان لديّ مُثُل عليا وواضحة. كما عند كلّ الأطفال، أحلامي كانت تتبدّل باتّجاهات معاكسة تمامًا. لكنّني أذكر أنّني تأثّرت مرّة جدّ التأثّر بطرّاش كان يدهن الحائط، فأردت أن أحذو حذوه. لكن عندما أتى الكاردينال فاولهابر مرّة إلى منطقتنا، مرتديًا الأحمر الساطع، تأثّرت به أكثر وقلت إنّني أريد أن أصبح مثله.

طرّاش وكاردينال: الفرق بعيد جدًّا.

نعم بالطبع. لكنّنا نرى هنا أنّ الطفل لا يقيس الفروقات بل ينطلق ممّا يراه: لكن عندما كنت في المدرسة الابتدائيّة أحسست باكرًا بالرغبة في التعليم، لذلك كان هناك معلّمون أصبحوا أيضًا مُثلاً عليا لي. هذه الرغبة انسجمت تمامًا مع رغبتي أن أصبح

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

كاهنًا. لكن بإمكاني القول بأنّ التعليم، أي الرغبة في تمرير المعرفة إلى الغير، أثارت اهتمامي منذ الصغر، وكذلك الكتابة. ابتدأت منذ الصفوف الأولى بكتابة القصائد وغيرها.

أيّ نوع من القصائد؟

ارتبطت القصائد بالمناسبات اليوميّة. أعياد الميلاد، الطبيعة. كانت دلائل تشير إلى سعادتي بالتعبير وبالتبليغ. عندما كنت أتعلّم شيئًا كنت أريد أن أبلّغه إلى الآخرين.

ألم يخطر لك أبدًا أن تؤسّس عائلة؟ وهل كانت لديك علاقة حبّ بامرأة؟ يُعرف عن البابا يوحنّا بولس الثاني أنّه كان مغرمًا جدًّا في شبابه.

أقول، إذاً: لم يخطر على بالي مباشرة تأسيس عائلة ولم يصل تخطيطي إلى هذا الحدّ. أمّا أن أكون قد شعرت بالصداقة، فمن الطبيعيّ هذا واضح.

كيف اعتلنت دعوتك؟ ومتى عرفت ما أنت إليه مدعوّ؟ لقد صرّحت مرّة: «كنت على قناعة، أنا نفسي لا أدري كيف، بأنّ الله يريد شيئًا ما منّي لا يمكنني تحقيقه إلاّ إذا أصبحت كاهنًا.

على كلّ حال لم يكن هناك شعاع إيحاء أوضح لي بأنّ عليّ أن أصبح كاهنًا. على العكس لقد نمت الفكرة ببطء، وأعدت التفكير فيها مرارًا. كما أنّني لا أستطيع تحديد تاريخ هذا القرار. لكن كان لديّ الشعور بأنّ لله مع كلّ إنسان مشروعًا، حتّى معي. توضّح لديّ باكرًا أنّ فكرة الله ترافقني، واتّضح أنّ ما يريده منّي له علاقة بالكهنوت.

هل عشت لاحقًا لحظات إيحاء أو بتعبير آخر لحظات وحي؟

إيحاء بالمعنى الكلاسيكيّ، أو ما يشابه الوحي الصوفيّ، كلاّ. أنا ببساطة إنسان مسيحيّ عاديّ. لكنّ الإيمان، بالمعنى الأوسع يضفي عليك بالطبع نورًا. باتّحاد هذا النور مع العقل، يعتقد الإنسان، كما قال هايدغر، أنّه بلا شكّ سوف يلمح فسحة واسعة مضيئة، بعد سلوك طرق الغابة.

كتبت مرّة: «كلّ ما هو موجود هو أفكار متجسّدة. إنّ روح الخالق هي الأساس وهي السبب لكلّ علّة. كلّ ما هو موجود هو عقلانيّ بأساسه لأنّه آتٍ من العقل الخالق».

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

إنّ هذه الجمل هي محاولة للتعبير عمّا طوّرته نظريّة الخلق المسيحيّة وما تحويه من فلسفة. هذا ما يعني أنّ كلّ ما هو موجود وجد بسبب قوّة خلاّقة بعيدة كلّ البعد عن أن تكون قوّة ميتة، إنّها عقل ومحبّة، وهو ما يعني أنّ كلّ مخلوق هو في النهاية عقلانيّ. على ما أعتقد هذه هي باختصار فلسفة الخلق المسيحيّة. وعندما نفكّر فيها ونتأمّلها تعطينا نورًا، لكن لا يمكننا التكلمّ هنا على لحظات وحي بالمعنى المعهود.

بعد أن صمّمت على الحياة الكهنوتيّة هل راودك الشكّ يومًا، وهل تعرّضت للتجربة أو للإغراءات؟

أكيدًا. في السنوات الستّ لدراسة اللاهوت يتعرّض الشخص لمشاكل إنسانيّة ويطرح أسئلة عديدة. هل العزوبيّة مناسبة لي؟ هل تناسبني حياة الكاهن؟ كانت تلك أسئلة لم يكن من السهل دائمًا الإجابة عنها. ولكنّ الاتّجاه الأساسيّ كان دائمًا واضحًا أمامي، ومع ذلك، كانت أزماتي عديدة.

ما هي الأزمات التي ظهرت؟ هل لك أن تعطينا مثلاً هنا؟

في سنوات دراستي اللاهوت في ميونخ كان عليّ أن أواجه سؤالين أساسيّين. كنت مسحورًا بعلم اللاهوت. لقد كان رائعًا التغلغل إلى العالم الكبير لتاريخ الإيمان. آفاق واسعة من التفكير والإيمان حاصرتني، تعلّمت فيها كيف أفكّر في الأسئلة البدائيّة للوجود الإنسانيّ وفي أسئلتي الحياتيّة. لكن مع الوقت توضّح عندي، أنّ مهنة الكاهن تتطلّب أكثر من التمتّع باللاهوت. نعم، إنّ العمل في الرعيّة غالبًا ما يقود بعيدًا وهو يتطلّب شروطًا أخرى. لم يكن باستطاعتي أن أدرس اللاهوت لأصبح أستاذًا على الرغم من أنّ هذه كانت أمنيّتي الصامتة. قبول الكهنوت يعني القبول بكلّ المهمّة، حتّى في أشكالها البسيطة اليوميّة.

ولأنّني خجول وغير عمليّ، ولأنّني غير موهوب رياضيًّا أو تنظيميًّا أو عمليًّا، كان عليّ أن أتساءل هل أنجح يومًا بمخاطبة الناس: على سبيل المثال إذا كان بإمكاني أن أقود الشباب الكاثوليكيّ وأن أوجّهه، أو أن ألقّن الصغار التعليم الدينيّ، إذا كنت صالحًا للتعامل مع المسنّين والمرضى. كان عليّ التساؤل حول استعدادي أن أقوم بذلك طوال حياتي، وإذا كانت فعلاً هذه دعوتي.

يضاف إلى ذلك السؤال حول قدرتي على احتمال العزوبيّة طوال حياتي. وفي

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الجامعات المدمَّرة آنذاك لم يكن هناك من مكان لتدريس اللاهوت، لذلك عشنا طوال سنتين في قصر فورستريد وتوابعه على طرف المدينة. فالحياة الجامعيّة لم تقتصر على العلاقة بين الطلاّب والأساتذة آنذاك إنّما كانت أيضًا بين الطلاّب والطالبات. هذا ما طرح السؤال حول معنى الزهد وهدفه النهائيّ إلى سؤال عمليّ في اللقاءات اليوميّة. لقد حملت هذه الاسئلة مرارًا عبر حديقة قصر فورستريد الجميلة وبالطبع إلى الكابيلاّ الخاصّة به، إلى أن تمكّنت أن أقول «نعم» أكيدة في خريف ١٩٥٠ عند رسامتي الشمّاسيّة.

هل انخرطت في الجيش في نهاية الحرب؟

نعم، بدأ سحب الإكليريكيّين من تراونشتين لكونهم فرقة كاملة نحو ميونخ في سنة ١٩٤٣. كنت في السادسة عشرة. ولقد أمضينا في الخدمة حوالى العام تقريبًا من آب ١٩٤٣ إلى أيلول ١٩٤٤. لقد أُلحقنا في ميونخ بثانويّة ماكس، حيث تابعنا أيضًا ساعات تدريس. الموادّ كانت مجتزأة ولكن رغم ذلك كان لدينا ساعات تدريس بشكل لا يستهان به. من جهة كان كلّ هذا غير باعث للفرح، لكنّ صداقة الزمالة أفاضت على تلك المرحلة سحرها.

علامَ كانت تقوم خدمتك في الدفاع المضادّ للطائرات؟

كانت السريّة المدفعيّة تنقسم إلى مجموعتين أساسيّتين: قطيع المدفعيّة من جهة، ووحدة القياسات من جهة أخرى. منذ ذلك الوقت كانت المعدّات الإلكترونيّة والبصريّة لكشف الطائرات القادمة وتحويل المعلومات المتعلّقة بتحديد المسافات إلى قطع المدفعيّة. بالإضافة إلى التمارين المنتظمة، كان علينا أن نكون عند كلّ إنذار قرب الآلات. الأمر الذي تطوّر ليصبح مزعجًا مع الوقت، ذلك لأنّ إنذارات الليل تزايدت، وتكاثر عدد الليالي التي امتدّ القصف في خلالها.

هل عايشت قصف مدينة ميونخ؟

نعم، كنت بعدُ عند ذلك في القسم الثالث، في قسم تحويل المخابرات الهاتفيّة. كان مركزنا في غيلخينج قرب بحيرة أمّرزيه، مركزًا مهمًّا، لأنّ الطائرات الأميركيّة كانت تحلّق فوق ميونخ قادمةً من الجنوب، أي منطقة البحيرات. بالقرب منّا كان هناك مصنع أوبربفافنهوفن لتصنيع أولى الطائرات النفّاثة. إذًا، شاهدنا أولى المطاردات الألمانيّة النفّاثة ترتفع في السماء. لقد تعرّضت هذه المنطقة لسلسلة هجمات، فعرفنا حقًّا ما هي الحرب.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

في خريف ١٩٤٤ أُطلق سراحنا وأُخذنا إلى فرع العمل. أمضيت على الحدود الهنغاريّة–النمساويّة مدّة شهرين، وفي تلك الفترة استسلمت هنغاريا أمام الروس. لقد قمنا في ذلك الوقت ببناء التحصينات الضخمة والحواجز المضادّة للدبّابات وما شابه. في النهاية فُصلت إلى فرقة المشاة، لكن حالفني الحظّ الكبير بأن تكون نقطتي في تراونشتين، وكان المسؤول عن توزيع المهمّات ضابط لطيف جدًّا، من الواضح أنّه كان معاديًا للنازيّة، حاول بكلّ قواه أن يساعد كلاًّ منّا، لذلك اختار لي نقطة قريبة من منزلي وهو ما حوّل خدمتي في فرقة المشاة إلى خدمة لا خطر منها. لقد أُسرت هنا واقتادوني إلى أولم، إلى معسكر أميركيّ لأسرى الحرب. كان عددنا يتراوح بين ٤٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ سجين. في ١٩ تمّوز ١٩٤٥ أُطلق سراحي.

كيف كانت نهاية الحرب في ذاكرتك؟

كنّا عندئذٍ في مطار أيبلينج. وخلال أسابيع الأسر الستّة التي عشتها آنذاك، كنّا نفترش الأرض في العراء، لم يكن الأمر دائمًا مضحكًا. فالأميركيّون آنذاك لم يستطيعوا أن يؤمّنوا خيمًا لهذا العدد الكبير من الأسرى. لم يكن لدينا رزنامة أو أيّ شيء آخر، وحاولنا بصعوبة ان نحتفظ بتواريخ الأيّام. كما أنّنا كنّا مقطوعين عن كلّ أخبار جديدة. لكنّنا لاحظنا في ٨ أيّار أنّ الأميركيّين توقّفوا عن إطلاق الأسهم المنيرة كعادتهم، وعوضًا من ذلك أشعلوا ألعابًا ناريّةً كبيرة، كأنّه أصابهم مسّ من الجنون. وهنا سرَت الأخبار أنّ الحرب انتهت، وأنّ ألمانيا استسلمت. بالطبع تنفّسنا الصعداء آملين أن يُطلق سراحُنا قريبًا، وأنّ شيئًا لن يحدث لنا بعد الآن. لكن بالمقابل كانت هناك شائعات أخرى بأنّ الأميركيّين سوف يكمّلون الحرب الآن ضدّ الروس، وبأنّه علينا ألاّ نفرح كثيرًا لأنّه سوف يتمّ تسليحنا من جديد لدفعنا في الحرب ضدّ الروس. من جهتي لم أصدّق هذه الشائعات لأنّه صعب عليّ التصوّر بأنّ الحلف المشترك بينهم سوف يسقط بهذه السرعة. لقد كنت سعيدًا بأنّ الحرب انتهت، ولم أكن أتمنّى سوى أن تنتهي مرحلة أسرنا بسرعة أيضًا.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الأستاذ الشابّ

لقد قلت مرّة: «عندما بدأت بدراسة اللاهوت ابتدأت أيضًا بالاهتمام بالمشاكل الفكريّة، وذلك لأنّ هذه المشاكل عينها هي التي تكشف لي مأساة حياتي وسرّ الحقيقة». ماذا عنيت بهذا الكلام؟

بإمكاني القول إنّ هذه العبارة مركّبة بشكل متسرّع بعض الشيء. في الواقع، في اللحظة التي يدرس فيها المرءُ اللاهوت، لا يبحث عن تعلّم مهنة ما، إنّما يبحث عن فهم للإيمان. وهذا يفترض، كما قال أوغسطينوس قبلنا، أنّ الإيمان صحيح. فيكون هكذا مدخلاً يُوصلنا إلى فهم الحياة الخاصّة، والعالم والبشر. وهذه الدراسة تغوص بنا تلقائيًّا في كلّ النقاش الروحيّ لتاريخ الغرب. الإيمان في جذوره مرتبط من جهة بالإرث اليهوديّ، ومن جهة أخرى بالإرث اللاتينيّ واليونانيّ ثمّ بتاريخه المعاصر. لذلك كانت دراسة اللاهوت دائمًا مرتبطة بالسؤال: ما هو الجوهر؟ وماذا يمكننا أن نعرف؟

في ذلك الوقت خيّم على حلقتنا الدراسيّة في المعهد الإكليريكيّ في فرايزينغ جوّ نشيط ويقظ. كان الناس عائدين من الحرب، بعضهم قد شارك فيها لمدّة ستّ سنوات، وكانوا يشعرون عمومًا بجوع عظيم روحيّ وأدبيّ، بالإضافة إلى الأسئلة التي كانت تشغلهم نتيجة لما عايشوه للتوّ في الحرب. لقد قرأنا جرترود فون لو فور، إرنست فيخرت، دوستويفسكي، إليزابت لانغسّر، كلّ ما كان يقع بين أيدينا من أدب ذلك الوقت. من درس في ميونخ تعلّم الكثير عن هايدغر، ياسبرز، من خلال شتاينبوخل، أستاذ اللاهوت الأدبيّ. كانت هناك موجة فكريّة كبيرة دفعت معها كلّ من عايشها.

ما هو التيّار الروحيّ الذي استرعى انتباهك وسَحرَك؟

استرعى انتباهي بنوع خاصّ هايدغر وياسبرز، وكلّ ما ينتمي إلى تيّار الشخصانيّة إجمالاً. لقد كتب شتاينبوخل كتابًا بعنوان «تحوّل الفكر» يصف فيه الانتقال من مرحلة غلب عليها الفكر الكانطيّ إلى مرحلة الشخصانيّة. لقد كان هذا الكتاب بمثابة مفتاح

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

بالنسبة إليّ. كما أنّه استرعى انتباهي كثيرًا، ومنذ البدء، القدّيس أوغسطينوس، وخاصّة لأنّه كوّن قوّة موازِنة لتوما الأكوينيّ.

القدّيس أوغسطينوس يحدّد وظيفته كالتالي: «تأديب مُثيري الفتن، مؤاساة الضعفاء، ودحض الأخصام».

لقد كان مطرانًا حقيقيًّا. كتب أيضًا كُتبًا ضخمة حتّى إنّ المرء يتساءل كيف تمكّن من إنجاز كلّ هذا إلى جانب الهموم والأشغال اليوميّة التي رافقته. لقد كان مطرانًا مشغولاً وبشكل دائم بخلافات الدولة وبحاجات صغار القوم، وحاول جاهدًا أن يوحّد هذا البناء. كلّ ذلك كان في عصر قلق، إذ إنّ هجرة الشعوب كانت في بداياتها: بهذا المعنى لم يكن أبدًا رجلاً يعيش في الغيوم.

كان للمطران يومها، ووفق نظام الأمبراطوريّة، دور قاضي صلح. لقد كان مركزه يتضمّن درجة قصوى من درجات العدل، وكان عليه أن يحكم في خلافات مدنيّة عاديّة. إذًا هو عايش كلّ هذا يومًا بعد يوم وحاول أن يلقّن الناس سلام المسيح من خلال الإنجيل. بهذا المعنى هو أيضًا مثلٌ أعلى لأنّه رغم توقه الكبير إلى التأمّل والعمل الفكريّ أراد أيضًا أن يعطي ذاته يوميًّا للحياة العمليّة بكلّ متاعبها الصغيرة، وللناس من حوله.

أمّا ما أثّر فيّ يومها فلم تكن على الإطلاق وظيفته الراعويّة، التي لم أعرفها بكلّ تفاصيلها، إنّما حيويّة فكره ونضارته. للاّهوت المدرسيّ عظمته، لكنّ كلّ ما فيه عاديّ، ويحتاج المرء إلى وقت طويل حتّى يدخل إلى عمقه، ويتعرّف على تشويقه الداخليّ. على العكس مع أوغسطينوس فإنّك تواجه الإنسان المتسائل، المتألّم، المولع بشغف، فتتماهى معه.

من أين جاء اهتمامك أخيرًا ببونافينتورا، وتاريخه في الفلسفة؟

كانت حقًّا مصادفة. بعد أن كنت قد عالجت في أطروحتي تاريخ الكنيسة القديمة لفت نظري أستاذي البروفسور زونغن إلى أنّ على أطروحة دكتوراه الدولة أن تعالج مواضيع من القرون الوسطى أو العصر الحديث. كما أكّد أنّه عليّ التعرّف إلى مفهوم الوحي عند بونافينتورا. كان أستاذي يعرف بأنّني أميل إلى التيّار الأوغسطينيّ أكثر منه

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

إلى تيّار القدّيس توما الأكوينيّ، لذلك أوحى لي بالعمل على بونافينتورا الذي كان يعرفه جيّدًا ويجلّه.

يرتبط اللاهوت الأساسيّ بالوحي. ماذا يعني هذا؟ وهل من الممكن أن يحدث؟ أسئلة عديدة مشابهة. عندما تعمّقت في هذا الموضوع وعملت عليه، ظهر لي أنّه بالنسبة إلى بونافينتورا ترتبط الرؤيا بشكل لا يمكن فصله بالتجربة الفرنسيسكانيّة، وأنّ هذه التجربة ترتبط بدورها بيواخيم فون فيوري الذي تنبّأ بزمن ثالث هو زمن الروح القدس بوصفه زمن رؤيا جديدة. ويواخيم حدّد هذه الفترة زمنيًّا بواسطة حسابات أجراها. والمفاجئ أنّ هذه الحسابات الزمنيّة تتوافق بشكل مذهل مع تواريخ حياة القدّيس فرنسيس الذي أطلق بالفعل مرحلة جديدة في تاريخ الكنيسة. هكذا تملّك الفرنسيسكان، الذين كانوا تيّارًا مهمًّا في ذلك الوقت، الشعور بأنّ ما هم عليه قد تنبّأ به يواخيم فون فيوري: هنا يكمن عهد الروح القدس الجديد، البسيط، الفقير، والذي لا يحتاج إلى أُطرٍ من هذا العالم.

بهذا توضّح أنّ مفهوم الوحي لم يعد يقتصر على تحديده في البداية البعيدة، إنّما ارتبط الوحي بالتاريخ، وأخذ يكوّن تطوّرًا عمليًّا يخطو في التاريخ، حتّى إنّه دخل مرحلة جديدة. هكذا لم يعد مفهوم الوحي مفهومًا مجرّدًا بالنسبة إلى بونافينتورا، ولكنّه ارتبط بتفسير تاريخه الفرنسيسكانيّ الخاصّ.

ما هو الجديد الذي أدركته بهذا؟

الأمر يتعلّق بسؤالين كبيرين، الأوّل هو الآتي: إذا كان الإيمان المسيحيّ مقيّدًا برؤيا منفردة تمّت منذ زمنٍ بعيد، ألا يكون هذا الإيمان محكومًا عليه بارتداء لباس من الأمس وبتكبيل الإنسان بزمانٍ مضى؟ وهل يستطيع أن يتماشى مع التاريخ في تطوّره، وهل ما زال لديه أصلاً ما يقوله للتاريخ؟ ألن يشيخ مع الوقت ليبتعد عن الواقعيّة؟ لقد أجاب هنا بونافينتورا عندما أظهر الترابط الشديد بين المسيح والروح القدس بحسب إنجيل يوحنّا: إنّ حلول كلمة الوحي التاريخيّ هو نهائيّ، لكنّه لا يُستنفد، ويُظهر دائمًا أعماقًا جديدة. بهذا المعنى يتكلّم الروح القدس، بصفته مترجمًا للسيّد المسيح، مردّدًا كلامه في كلّ عصر، وموضحًا أنّ لهذا الكلام قدرة على قول الجديد على الدوام. إنّ الأمر يختلف عمّا كان عليه عند يواخيم فون فيوري، فالروح القدس لا يُستكمل في مرحلة مُستقبليّة، إنّما الزمن هو زمن الروح القدس على الدوام. زمن المسيح هو زمن الروح القدس.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أمّا السؤال الثاني المتعلّق بالأوّل فهو يدور حول الإسكاتولوجيّا والأوتوبيا. يصعب على الإنسان أن يأمل في ماوراء الطبيعة، أو في عالم جديد بعد نهاية الحاضر. إنّه يصبو إلى الحصول على وعد في الزمن والتاريخ. يواخيم الذي صاغ أملاً كهذا، وجسّمه حسّيًّا، حضّر بأفكاره الطريق أمام هيغل، كما بيّن ذلك الأب دو لوباك، وهيغل بدوره مهّد طريقة التفكير لماركس. بونافينتورا وقف بوجه الأوتوبيا التي تخدع الإنسان، كما واجه مشروع تيّار روحيّ فوضويّ حالم ضمن الحركة الفرنسيسكانيّة، الأمر الذي أخذه عليه الكثيرون وما زالوا. لكنّه استبشر، تحديدًا في الجمعيّات البعيدة عن الأوتوبيا والمدفوعة بولع الإيمان، جوابًا عن السؤال المتعلّق بالأوتوبيا: إنّهم لا يعملون من أجل عالم يأتي غدًا، إنّهم يعملون كي يحلّ على عالم اليوم جزءٌ من نور السماء. إنّهم يحيون الآن في الأوتوبيا، على قدر ما يستطيعون، بتجرّدهم من الممتلكات، من الأنانيّات الخاصّة، وبالاستغناء عن الشهوة وإملاء رغباتها. هكذا يسري ريح جديد في هذا العالم، يحطّم قيوده، فيكون الله وسط العالم، قريبًا منّا.

لقد أمضيت عامًا كاملاً بعد دراستك في خدمة الرعيّة. قيل لي إنّ عملك الأساسيّ كان دفن الموتى.

كلا، هذا ليس صحيحًا. كان عليّ بصفتي مرشدًا أن أوفّر ١٦ ساعة أسبوعيًّا من التعليم الدينيّ موزّعة على صفوف ستّة مختلفة من الثاني إلى الثامن. كان حمل العمل ثقيلاً، خصوصًا لأنّي كنت مبتدئًا. عدد الساعات المطلوبة شكّل اهتمامي الأوّل، لكنّي أحببت هذه الفترة جدًّا وبخاصّة لأنّني وجدت وبسرعة الطريق إلى الصغار. إنّ الانتقال من الدائرة الفكريّة والبحث عن طريقة تخاطب فيها الصغار كانت تجربة مُثيرة بالنسبة إليّ. كانت تجربة جميلة حقًّا. عليك أن تُعيد تركيب معادلات العالم المجرّد كلّها بشكل يعني شيئًا للأطفال.

وكان عليّ أن ألقي كلّ أحد ثلاث عظات، عظة خاصّة بالأطفال وعظتين للكبار. ما يدعو إلى الاستغراب أنّ القدّاس الحافل بالمستمعين كان قدّاس الأطفال لأنّه بالإضافة إلى الأولاد بدأ الأهل فجأة يتوافدون. كنت المرشد الأوحد، لذلك وجب عليّ كلّ مساء أن أقوم بتعليم الشباب. كان لديّ كلّ أسبوع العديد من العمادات والجنّازات، هذا صحيح، واضطرّني إلى أن أتجوّل بالدرّاجة في ميونخ، في كلّ الاتّجاهات.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هل قمت بهذا لوحدك؟

نعم، لكن كان لديّ خوري رعيّة طيّبٌ جدًّا هو الخبر بلومشين. كان فعلاً مثال الراعي الصالح؛ لم يكن ذلك المفكّر، لكنّه نذر نفسه لخدمة الرعيّة وبطيبة فائقة.

كنت أحد أصغر أساتذة الجامعة في ألمانيا. كان الطلاّب يصغون إليك باهتمام. وكما يخبر أحد طلاّبك القدامى، لقد رأوا في مجيئك من أوضح الأمور ومن بات كلُّ شيء معه يُطلق صوتًا جديدًا.

أعتقد أنّ كوني شابًّا أدّى دورًا مهمًّا، كما أنّني لم أحاول أن أهيّئ الدروس برصف كتب مختلفة، لكنّني حاولت، على طريقة القدّيس أوغسطينوس، أن أُدخل الكثير من الموادّ، وأربطها بطريقة واضحة بعالمنا الحاضر وبمحيطنا. أظنّ أنّ هذا ما جعل الطلاّب يُصغون بانتباه.

في محاضرة تكريميّة أعطاها البروفسور فولفغانغ بينرت حول اللاهوتيّ جوزف راتسنجر يقول إنّ لاهوتك حكيم ومتقن، ومن غير الممكن فصله عن شخصيّتك: إنّه عقل محلّل (analytischer Verstand) ويقظ ترافقه قوّة عظيمة على الإجمال (synthetische Kraft) كان بإمكانك اكتشاف نقاط الضعف اللاهوتيّة والغوص فيها. إنّ أسلوبك اللغويّ يلمع بالقوّة الكلاسيكيّة. هل تتعرّف على نفسك في هذا الوصف؟

أعتقد أنّ هنالك بعض المغالاة، كما يحدث عادة في مجال المحاضرات التكريميّة الجامعيّة. بالطبع سعيت دائمًا إلى تحليل صحيح. وللهدف نفسه حاولت دائمًا أن أساعد طلاّبي في مرحلة الدكتوراه على كشف الضعف في كلّ تحليل. كانت تجربة هامّة جدًّا بالنسبة إليّ على الصعيد الإنسانيّ، فلم أكتفِ بنصح الطلاّب المرشّحين للدكتوراه، إنّما كنّا نلتقي كلّنا دوريًّا للعمل كلّ أسبوع لمدّة ساعتين. فيحاول كلّ بدوره أن يطرح أمام الجميع نتائج أعماله فتناقَش. أعتقد أنّ هذه التجربة أفادت الجميع.

ما لبثنا أن وسّعنا هذا الأسلوب وأخذنا نزور أشخاصًا مهمّين. فقصدنا كونغار في ستراسبورغ، وكارل بارت في بازل، ثمّ دعونا كارل راهنر إلى عندنا. كانت حلقة نشيطة جدًّا، فلم نوفّر على بعضنا أيّ انتقاد إذ كنّا ندرك أنّ الدافع ليس الإساءة، إنّما المساعدة بواسطة التحليل. من ناحية أخرى حاولنا ألاّ نقف عند التحليل، بل أن نبلغ الخلاصة الشاملة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

في رأيك أنت ما هي الخصائص التي تميّز لاهوتك، أو الطريقة التي تمارس فيها اللاهوت؟

لقد انطلقت من موضوع الكنيسة، وما زال حاضرًا في كلّ المواضيع. لكن، ما كان هامًّا بالنسبة إليّ، أن أعمّق قناعتي بأن نعي أنّ الكنيسة ليست بحدّ ذاتها الهدف، إنّما هي موجودة ليرى الناس من خلالها الله. أعني بهذا القول بأنّني أبحث موضوع الكنيسة بهدف الإطلالة على الله. وهو ما يعني أنّ الله هو المحور الأساسيّ والنهائيّ لعملي.

لم أحاول أبدًا أن أستنبط نظامًا خاصًّا أو لاهوتًا مميّزًا. مميّزاتي هي، عودًا إلى عباراتك، أنّني وببساطة أريد التفكير مع إيمان الكنيسة وبوساطته، وهو ما يعني التفكير مع كبار مفكّري الكنيسة. هذا بعيد عن أن يكون لاهوتًا معزولا ومستخلصًا من ذاتي، بل إنّه لاهوت يحاول أن يتّسع قدر الإمكان، فيما هو يلازم طريقة تفكير مشتركة مع الإيمان. لذلك احتلّ التفسير الكتابيّ مقامًا رفيعًا في نظري. وقد كوّنت «الكلمة» نقطة الانطلاق الوحيدة: أن نؤمن بكلمة الله ونحاول التعرّف عليها بالعمق وفهمها، ومن ثمّ التفكير مع كبار أساتذة الإيمان. انطلاقا من ذلك، اتّسم لاهوتي بالإنجيل وبآباء الكنيسة، خاصّة بأوغسطينوس. أحاول بالطبع ألاّ أتوقّف عند الكنيسة القديمة، بل أن أتطلّع إلى ذرى الفكر السامية، وفي الوقت نفسه، أن أُدخل في الحوار تيّارات الفكر المعاصر.

تكوّن الحقيقة المفهوم المركزيّ في تفكيرك. «مساهم في الحقيقة» كان شعارك الأسقفيّ. ألا يجب أن نكون مساهمين في الواقع أو مساهمين في الحكمة».

لا تسير الواحدة دون الأخرى. الحقيقة والواقع يكوّنان وحدة. فحقيقة خالية من الواقع هي محض تجريد. وحقيقة لم تصُغها «حكمة إنسانيّة» تكون بدورها بعيدة عن أن تكون حقيقة يتقبّلها الإنسان، إنّما هي حقيقة مشوّهة. لم يكن هذا الموضوع في البداية مركزيًّا بالنسبة إليّ. وعلى طريقي الفكريّ شعرت بشكل قويّ بالمشكلة فتساءلت هل القول إنّه بإمكاننا التعرّف إلى الحقيقة هو اعتداد وذلك بسبب محدوديّتنا. وتساءلت أيضًا إن لم يكن من الأفضل العمل على إبعاد هذه الحقيقة. لكنّني، وعند متابعتي لهذا السؤال، لاحظت وفهمت أنّ الامتناع عن الحقيقة لا يحلّ شيئًا، إنّما هو وبالعكس يقود إلى الدكتاتوريّة المزاجيّة. كلّ ما يبقى في الخلاصة هو ما نختاره نحن، وما يمكن

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

مقايضته في كلّ حين. إنّ المرء يختصر ذاته إن لم يسعَ إلى التعرّف على الحقيقة ؛ حين يكون كلّ ما لدينا هو نتيجة قرار شخص أو مجموعة.

على هذا الطريق توضّح لي كم هو مهمّ أن لا يضيع منّا مفهوم الحقيقة وكم هو مهمّ أن يبقى عمودًا مركزيًّا بغضّ النظر عن التهديدات والخطر التي ينطوي عليها من دون أيّ شكّ، وكم هو مهمّ أن يقف هذا المفهوم بوجهنا متحدّيًا، ليس لإعطائنا الحقّ، إنّما ليفرض علينا الطاعة والتواضع أمامه، فيتمكّن عندئذ أن يقودنا إلى طريق الوحدة. من خلال صراع طويل مع الحالة الفكريّة المعاصرة توضّح لي ببطء أولويّة الحقيقة، وكما ذكرنا لا يعبَّر عن هذه الحقيقة بشكل مجرّد، إذ هي تقتضي ارتباطًا بالحكمة.

هكذا حدّدك شقيقك: «قوّته، عليه أولاً أن يكتسبها، لكن عندما يضطرّ إلى المعركة، حينئذٍ يعمل استنادًا إلى ضميره». فهل أنت رجل ضمير؟

أحاول أن أكون. لا أجرؤ على التأكيد أنّني هكذا. لكن يبدو لي هامًّا جدًّا ألا نُعير للتوافق مع رأي الأكثريّة مركزًا أهمّ من الذي نعطيه للحقيقة. إنّها دائمًا تجربة صعبة ومغرية. طبيعيّ أنّ الانزلاق من البحث عن نداء الضمير إلى التشبّث بالحقيقة انزلاق سهل، فيعتقد المرء أنّ عليه أن يقف معارضًا دائمًا وفي الأمور كلّها. أمّا المرء الذي، بحقٍّ، يحاول جاهدًا أن يصغي إلى صوت الضمير، والذي يجعل للحقّ الذي عرفه أولويّة للتوافق والقبول، هذا المرء هو مثل أعلى بالنسبة إليّ. إنّ شخصيّات كبارًا مثل توماس مور والكاردينال نيومن وشهود آخرين – كما لدينا العظام الذين لوحقوا من قبل النظام النازيّ مثل ديتريخ بونهوفر – هم مُثلٌ عليا بالنسبة إليّ.

غير أنّك سبق مرّة أن حدّدت رجلاً كهذا قائلاً: «عليه أن يُعطي للحقيقة دورًا أهمّ منه للطيبة.» إنّه لموقف خطيرٌ، ألا يتطابق هذا مع صورة «المحقّق الأكبر» (Grossinquisitor) عند دوستويفسكي؟

هنا علينا بالطبع أن نقرأ هذه الجمل ونفهمها في إطار النصّ الذي تضمّنها. «الطيبة» هنا هي بمعنى «التساهل الخاطئ» بمعنى أنّني «لا أريد أن أتسبّب لنفسي بمتاعب». غالبًا ما نجد مواقف مشابهة خاصّة في عالم السياسة، «فلا يريد المرء أن يُفسد على نفسه» ويسارع عندئذ إلى القبول بالخطإ، بالغامض، بالسيّئ، بالكاذب، عوضًا من خلق المتاعب والمشاكل لغيره أو لنفسه. يشتري المرء الراحة، النجاح، القبول والشهرة لدى

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الرأي العامّ المسيطر بتخلّيه عن الحقيقة. لم أُرد يومًا أن أقف بوجه «الطيبة» بشكلٍ عامّ. فالحقيقة لا يمكنها إلاّ بمرافقة الطيبة أن تنجح وتنتصر. ما عنيته كان كاريكاتورًا لفهمٍ خاطئ ومنتشر للطيبة: أن يُهمل المرء الضمير بحجّة الطيبة؛ أن يُفضَّل على الحقيقة مبدأ واهتمام تجنّب المشاكل، ولذّة التباهي بالاعتبار، والتساهل.

تُعزى إليك «القدرة على العناد لبافاريّ قديم»، وأيضًا «تقوًى حارّة وبسيطة». كلّ هذا ينبع من أبعاد عميقة لا يُمكن وصفها إلاّ «بالباروك». فمن معرفتك الأكيدة لأعماق الوجود الإنسانيّ الذي لا قرار له «حافظت على حسّ الجمال الصافي للخليقة المخلَّصة». لكن أليس هذا تناقضًا بحدّ ذاته؟

لنقل إنّ الحياة ليست مصنوعة من متناقضات، إنّما من مفارقات. فالصفاء المبنيُّ على التعامي أمام أهوال التاريخ، هو في النهاية بمنزلة كذبة، أو افتراض خياليّ، أو تقوقع انعزاليّ. وبالمقابل، فإنّ من لم يعد يستطيع أن يرى أن حتّى العالم الشرّير يخترقه نور الخالق، فهذا، بالتأكيد، لن يستطيع أن يستمرّ، فإنّه إمّا يتحوّل إلى ساخر، أو إنّه يعتزل الحياة. لذلك علينا أن نوحّد بين عدم الهروب أمام أهوال أعماق التاريخ السحيقة، وبين لمحة الأمل التي يعطينا إيّاها الإيمان، والتي تؤكّد لنا أنّ الخير موجود، حتّى إذا لم نتمكّن دائمًا من الوصل بينهما. إذا أردنا أن نواجه الشرّ، من المهمّ جدًّا ألاّ نقع في عالم أخلاقيّات حزينٍ، عاجز عن الفرح، إنّما علينا أن نرى حقًّا كلَّ الجمال الموجود، وانطلاقًا من ذلك، أن نواجه ما بإمكانه تخريب هذه السعادة.

هل بإمكاننا أن نمارس اللاهوت وكأنّه لعبة، كما يقول هرمن هسّي في كتابه: «لعبة حبّات الزجاج»؟

هذا قليل، أعني أنّ عنصر اللعب موجود أيضًا. إنّما في النهاية، الأمر بعيد عن أن يكون محصورًا في عالمٍ مخلوق ومصطنع، كما هي الحال في «لعبة حبّات الزجاج»، أو أن يكون نوعًا من أنواع التمرين الحسابيّة للعقل، فهو يتعدّاها ليكون مواجهة مع الواقع، وذلك بكلّ أبعاد هذا الواقع ومتطلّباته. بهذا المعنى، إنّ عنصر اللعب ولأنّه عنصر حقيقيّ في وجودنا، يشكّل أحد العناصر التي يتألّف منها، لذلك لا يكفي ليُعرِّف عن ممارسة اللاهوت الحقيقيّة.

من الكتب المفضّلة إليك، كتاب هسّي «ذئب السهوب» يُعدّ بين كتبك المفضّلة. إنّ

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هذه الرواية هي واحدة من أهمّ الوثائق المتعلّقة بالتشاؤم الثقافيّ وببواكيرالوجوديّة. إنّه ملاحظات مدوّنة لإنسان عصبيّ ومُفرط بالحساسيّة.كما أنّ محاولاته المؤلمة لتحليل شخصيّته هي في الوقت ذاته محاولة لتحديد مرض العصر. هل لهذا التحديد أيّة علاقة بشخصك؟

كلاّ. في الواقع كان هذا الكتاب، من خلال قوّته التشخيصيّة والنبوئيّة اكتشافًا حقيقيًّا بالنسبة إليّ. هنا قام المؤلّف بطريقة ما، باستباق كلّ المشاكل التي عانيناها في الستّينات والسبعينات. الرواية تدور كلّها حصريًّا حول شخصٍ واحد، لكنّ هذه الشخصيّة تُقطّع ذاتها إلى شخصيّات متعدّدة، وفي النهاية يقودها هذا التقطيع إلى الانحلال الكامل. إنّ هذا الامتداد للأنا يؤدّي هنا بشكلٍ تلقائيّ إلى تحطيمها. إذًا، لم يعد هناك من وجود لروحين فقط في هذا القفص الصدريّ، ولكنّ المرء يذوب نهائيًّا. لم أقرأ هذا الكتاب على أنّه شخص أجد فيه تقمّصًا نفسيًّا لي، إنّما بوصفه رمزًا خياليًّا يؤدّي دور المنظار الذي يسلّط الضوء، ويشرح تعقيد الإنسان المنفرد أو المعزول عن العالم الحديث.

فكرة الشخصيّة المتعدّدة الخيارات، والتصوّر أنّ الإنسان الحديث فقد الهويّة الواضحة، أصبح بإمكانه أن يكون اليوم شيئًا وغدًا شيئًا آخر. إنّ هذه الرؤيا تزدهر فعلاً في زمننا هذا. كلّ شيء ممكن. لم يعد الإنسان مسجونًا ضمن رسمٍ معيّن، وبالتالي الحياة هي لعبة لامتناهية تتّسع للاحتمالاتِ الممكنة كلّها.

لكن بالتحديد هذه التعدّدية هي التي تقودها إلى الفراغ. الحياة جدّيّة أكثر من أن تتحوّل إلى مجرّد لعبة، حيث نواجه الألم والموت. بإمكان المرء أن يفقد هويّته، وليس بإمكانه أن يلقي بالمسؤوليّة عن أكتافه، ومع مسؤوليّته يلاحقه ماضيه دائمًا وباستمرار.

أصبحتَ أستاذًا فدرّست في بون ومونستر وتوبينغن ورغنسبورغ. بداياتك كانت بدايات مصلح. أصبحت مستشارًا للكاردينال الألمانيّ جوزف فرينجس في كولونيا. وحدث ما هو غريب. كان المجمع (١٩٦٢ – ١٩٦٥) قد تمّ تحضيرُه ونُظّم حتّى في أدقّ التفاصيل، إلى أن كتبت للكاردينال فرينجس خطابًا أحدث تأثيرًا. وفجأة، تُخلط الأوراق جميعها من جديد، ويصار إلى إعادة دراسة الملفّات كلّها مجدّدًا. فماذا حدث بالضبط؟

كان كارل راهنر يردّد دائمًا أنّ علينا ألاّ نُضخّم أبدًا دور فردٍ وحيد. المجمع كوّن جسمًا

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

ضخمًا. وإذا كان البعض قد أعطاه دوافع حاسمة، لما قُدّر له ذلك لو لم يكن هناك العديد من الراغبين هم أيضًا في الأمر نفسه. ربّما لم يستطع البعض أن يُعبّر عن أفكاره، لكنّ الاستعداد الضروريّ كان موجودًا، كانت هناك حالة من الترقّب بانتظار شيء ما.

يتلخّص الوضع كالتالي: آباء المجمع لم يحضروا فقط لإقرار نصوص مهيّأة، لينحصر عملُهم نوعًا ما، بالضروريّ البحت. لكنّهم أرادوا أن يناضلوا معًا، ووفق مناصبهم، للتوصّل إلى الكلمة التي يجب أن تُقال في هذه الساعة. كان الرأي السائد أنّه علينا أن نجهد، لا لقلب مقاييس الإيمان رأسًا على عقب، إنّما على العكس لنخدمه حقًّا. بهذا المعنى جاء خطاب الكاردينال فرينجس الافتتاحيّ (استنادًا إلى خطاب الكاردينال ليينار – رئيس أساقفة ليل) ليُعبّر فقط عمّا كان يعيه جميع الآباء.

ماذا تضمّن هذا الخطاب؟

الخطاب الأوّل لم أكتبه أنا، وعلى كلٍّ لم يكن خطابًا بالمعنى الصحيح. كانت روما قد ناقشت الاقتراحات المتعلّقة بتأليف الكوريا، اللجان. كان من المنتظر أن يتمّ الانتخاب السريع على أساس اللوائح المحضّرة. هذا ما لم يكن يرغب فيه الكثيرون. هنا تدخّل الكاردينال ليينار والكاردينال فرينجس ليقولا إنّه من غير الممكن أن يجري الاقتراع الآن ببساطة، وأنّ على الجميع أوّلاً أن يتعارفوا ليختاروا من هو المناسب، ولأيّ مركز، وأنّ على الانتخابات أن تؤجّل. كوّن هذا الموقف أوّل خبر صاعق. عند التفكير نرى أنّ الامر لم يكن قاسيًا إلى هذا الحدّ. فمن الطبيعيّ أن يحاول اختيار أفضل المرشّحين. اندفاع الكاردينالين هذا العفويّ عبّر عن رغبة المجمع. أضف إلى ذلك – القصّة التي أخبرتك إيّاها تلخّص لربّما أحداثًا مختلفة – أنّه فعلاً عندما طُرحت نصوص الوحي على بساط البحث – وهنا كانت لي حقًّا مساهمة – أوضح الكاردينال فرينجس، أنّ النصّ كما هو محرّر، لا يكوّن نقطة انطلاق صحيحة للحوار، وأنّه علينا أن نُعيد صياغته من جديد في أثناء انعقاد المجمع. هذه كانت حقًّا ضربة قارعة ثانية، وهو ما دفع الجميع إلى أن يقرّوا، بالإجماع، إعادة صياغة النصوص.

أمّا الخطاب الثالث، الذي أصبح مشهورًا، فقد ركّز على أنّ أساليب «المجمع المقدّس» (Heiliges Offizium) تحتاج إلى إصلاح، من خلال منهج عمل شفّاف. تلك هي الخطب التي أثّرت بشدّة على الرأي العامّ.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هل خطّطتم مسبّقًا لهذه الصدمات؟ بالطبع لم تُفاجئكم ردّات الفعل التي تلت هذه الخطب؟

من الممكن أنّها فاجأت البعض، لكنّها تطابقت أيضًا مع بعض التوقّعات. لقد قام الكاردينال فرينجس ببعض الاتّصالات الجانبيّة، التي اتّضح منها أنّ هناك توجّهًا لهذا النوع من المواقف. بمعنًى آخر، لقد توافق هذا التوجّه مع العقل الداخليّ للمجموعة.

اعتُبرتَ لاهوتيًّا متقدّمًا. وبصفتك أستاذًا كنت في ذلك الوقت نجمًا لامعًا، كما أنّ محاضراتك كانت تغصّ بالجموع. لقد ناقشت بانفتاح حول الجرأة والتسامح مع الآخرين. كما هببت عاصفًا بوجه تحجّر ضيّق يخيّم على روما، ولُمْتَ المسؤولين في الفاتيكان، فحمّلتهم مسؤوليّة قيادة الكنيسة إلى الجمود. بصفتك لاهوتيًّا شابًّا شكوت مرّة من الكنيسة قائلاً: إنّ لها قوانين كثيرة، وإنّ ألجمتها متصلّبة وهو ما أدّى بها إلى أن تتخلّى عن قرن الإلحاد وتتركه وحيدًا في أزمته، بدل أن تُساعده للوصول إلى الخلاص. باستطاعتنا حقًّا القول إنّه من دون تدخّلك لبقيت إصلاحات المجمع الفاتيكانيّ الثاني مستحيلة.

أشعر أنّك تبالغ قليلاً في تقديري. لو لم يوجد هناك أيضًا رفقاء على الطريق يسيرون بالاتّجاه نفسه لما تمكّن لاهوتيٌّ غير معروف على نطاق واسع، أن يُغيّر شيئًا حتّى لو تكلّم من خلال كاردينال معروف ومرموق.

بعد أن دعا البابا يوحنّا إلى المجمع، وجعل شعاره كما عبّر عنه: «قفزة نحو الأمام»، خيّم على آباء المجمع إرادة قويّة لخوض تجربة جديدة والخروج عن النمط المدرسيّ المستهلك والغوص في حرّيّة جديدة. سيطر هذا الشعور من أميركا الجنوبيّة إلى أوستراليا. ليس بإمكاني القول إذا كانت لأفريقيا إرادة مستقلّة. على كلّ حال، وعلى امتداد الأسقفيّات، كانت هناك إرادة مماثلة وواضحة.

لا أستطيع أن أعود بالذاكرة إلى الجمل التي ذكرتها سابقًا، لكنّني كنت مقتنعًا بأن اللاهوت السكولاستيكيّ (المدرسيّ)، وفي الحالة المجمّدة التي كان عليها، لم يعد باستطاعته أن يُشكّل أداة يُحاكي من خلالها الإيمانُ الزمنَ الحديث. كان عليه أن يخرج من هذا الغلاف القاسي ليبحث عن لغة جديدة، عن انفتاح جديد، يواجه به الوضع الحاضر، وهو ما يقضي أن توجد داخل الكنيسة مساحة أوسع للحرّيّة. لحماسة الشباب

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هنا دور طبيعيّ، لكن بشكل عامّ وبالإجمال، كنّا نلمس هذا الوعي على امتداد الكنيسة بأجملها، كما ارتبط الشعور بالانطلاقة الجديدة التي خيّمت بعد الحرب، ومع الأمل أن يكون للمسيحيّة أيضًا فجر جديد.

طالما شدّدت على أنّك حاولت جاهدًا أن تبقى مُخلِصًا للمجمع الفاتيكانيّ الثاني دون «الحنين إلى بريق نجمة غاب إلى غير عودة». لكن بعد سنين قليلة من نهاية المجمع الفاتيكانيّ تكلّمت عن «تحوير في روح المجمع» وأجريت تسوية للحسابات فإذا بها تأتي سلبيّة. لقد انتظر العالم قفزة نحو الأمام، فإذا به يحصد «تطوّرًا في سياق الانحدار». ما الذي دفع بالأمور في الاتّجاه الخاطئ؟

هذا هو السؤال الكبير الذي نطرحه جميعًا على أنفسنا. بإمكاننا أن نؤكّد بواسطة الإحصاءات، أو بمجرّد الخبرة أنّ الوعود التي قطعت لم تنفَّذ. الأشخاص الذين يتكلّمون اليوم عن «شتاء الكنيسة» هم بنوع خاصّ الأشخاص الذين يُوصفون بالأشخاص التقدّميّين. لا يمكن أن ننفي أنّنا لم نشهد فجرًا جديدًا للكنيسة على الرغم من بعض الانتفاضات التي حدثت.

لماذا أخذت الأمور هذا المنحى؟ سأحاول أن أعطي تفسيرين: أوّلاً لقد توقّعنا من أنفسنا الكثير. فبالتأكيد نحن لا نستطيع أن نصنع الكنيسة بأنفسنا. باستطاعتنا أن ننجز ما علينا، لكنّ النجاح أو الإخفاق لا يتوقّفان فقط على نشاطنا. إنّ تيّارات التاريخ الكبيرة سارت بكلّ وضوح في مجراها. وبالواقع أخطأنا إلى حدٍ ما بتقدير حجمها الحقيقيّ. إنّنا من ناحية، توقّعنا الكثير، ما لم ينطبق على الواقع: كنّا نتمنّى أن نرى المسيحيّة تنتشر وتتوسّع، ولم ندرك أنّه من الممكن أن يبدو واقع الكنيسة في هذه الساعة بشكل مختلف تمامًا.

الأمر الثاني أنّ فرقًا كبيرًا يكمن بين ما أراده آباء الكنيسة وما أعطي ولقّن للعامّة، ومن ثمّ، ما بقي وترسّخ في الضمير العامّ للجماهير. أراد آباء المجمع تحديث الإيمان، ولكن أرادوا أيضًا، من خلال هذا التحديث تحديدًا، أن يقدّموا الإيمان بكلّ قوّته. النتيجة كانت أنّه، عوضًا من ذلك، تكوّن الانطباع أكثر وأكثر أنّ التجديد يكون من خلال رمي الثقل الزائد، ومن خلال تسهيل الأمور على أنفسنا. فلا يعود تجديد الإيمان يعني تأصيله إنّما يكون بتمييعه بشكل ما.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لكن الآن يتّضح أكثر وأكثر أنّنا باختيارنا التساهل والتنازل لا نصل إلى الشكل الحقيقيّ للتعميق والتبسيط والتركيز. وهو ما يعني أنّ هناك في الأساس مفهومين للتجديد. مفهوم يقضي بالاستغناء أكثر وأكثر عن مظاهر القوّة الخارجيّة والتخلّي عن العوامل الخارجيّة والاستعاضة باستمداد الحياة من الإيمان. والثاني يقضي، ولنقلها بشكل كاريكاتوريّ، بأن نكتب التاريخ بسهولة، وهنا تنحرف الأمور بالطبع عن مسارها الصحيح.

من الواضح أنّ هذا التفسير الخاطىء مستمرّ حتّى الآن. فمن المستغرب أنّ الجماعات، التي تدّعي التجديد، تستند على هذا المجمع، كما تفعل الجماعات المحافظة. وكما تنبّأت سنة ١٩٧٥: لم ينكشف إرث المجمع بعد. إنّه بانتظار ساعته، وأنا واثق من أنّها سوف تأتي.

نعم، هذا صحيح. هناك تفسيران للمجمع. لكن مع الوقت يتّضح أيضًا أنّ نصوص المجمع بمجملها وتفصيلها تدخل ضمن استمراريّة خطّ الإيمان. لذلك، نجد أنّ الكثيرين يقولون: إنّ النصوص كوّنت نقطة انطلاق أولى، وإنّه، علينا أن نتحرّر منها لنجعل منها اتّجاهات محدّدة. لكنّنا، وبلا شكّ، عندما نعتمد هذا التحديد، لا نعود نتحدّث عن المجمع. بالتأكيد، لا يحقّ لنا تحويل النصوص إلى حروف ميتة، إنّما رسالتها الحقيقيّة، التي نتعرّف إليها من خلال عرض محايد وصحيح، هي التي تشكّل الإرث الكبير للمجمع. وانطلاقًا من هنا، علينا أن نبدأ بالقبول حتّى نصل إلى التفسير والفهم. وبهذا نُدخل الكثير من الحوافز، خصوصًا فيما يتعلّق بعلاقتنا الجديدة بالعالم، وفيما يتعلّق بالإعلان عن حرّيّة الأديان وغير ذلك.

من المؤكّد أنّ هناك أعماقًا وشجاعة للإيمان علينا الاستفادة منها. أرفع الصوت هنا لأشدّد على أنّ إرث المجمع الحقيقيّ يكمن في نصوصه. عندما نعرض نصوصه بعمق وصدق، ننجح عندئذٍ بحماية أنفسنا من التطرّف في شتّى اتّجاهاته؛ وبذلك، نفتح أمامه بالفعل طريقًا زاهرًا.

هل هناك من علاقة بين تقييمك للمجمع، وبداية الثورة الطلاّبيّة في أوروبّا؟ والظاهر أنّ هناك تصدّعًا حدث خلال وجودك في توبينغن. فجأة بدأت معاداة الأستاذ اللاهوتيّ التقدّميّ اللامع. الطلاّب ينتزعون منه الميكروفون، فيما بدا أنّ الأحداث وقعت من نفسك موقع الصدمة. قلت فيما بعد: لقد تعلّمت في هذه السنين متى يجب أن

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

نوقف النقاش، لأنّه تحوّل إلى كذبة، ومتى يجب أن نبدأ بالمقاومة للمحافظة على الحرّيّة.

إنّ الميكروفون لم ينتزع منّي أبدًا. كما أنّه لم يكن لديّ أبدًا مصاعب مع الطلاّب، إنّما مع الطبقة الوسطى. لقد لاقت المحاضرات صدًى إيجابيًّا دائمًا في توبينغن، والتواصل مع الطلاّب كان جيّدًاجدًّا. لكنّه من الصحيح أنّني رأيت وعايشت بوضوح كيف انقسمت مفاهيم التجديد. كان هناك سوء استعمال للكنيسة وللإيمان. فقد تمّ مُصادرتهما وتحويلهما إلى أداة قوّة استعملت لأهداف أخرى، وبآراء وخلفيّات مختلفة تمامًا. وهنا حُطِّم الإجماع على صخرة إرادة خدمة الإيمان، وحلّ مكان استخدامه أداة من خلال إيديولوجيّات، بعضها شيطانيّ، متوحّش وقاسٍ. من هنا توضّح لي أنّه إذا أردنا أن نحافظ على إرادة المجمع، فعلينا أن نقف بوجه سوء الاستعمال هذا. كما قلت، لم يكن لديّ أيّة مشاكل مع الطلاّب. لكنّني شاهدت، كيف تمّت ممارسة ضغوط شيطانيّة، بأشكال قاسية جدًّا.

ولكي أقدّم تصوّرًا واقعيًّا عمّا كان يحدث في ذلك الوقت، أودّ أن أورد هنا بعض الذكريات المتعلّقة بتلك السنوات، وقد نشرها، منذ مدّة قصيرة، زميلي الإنجيليّ بايرهوس، والذي عملت معه بشكل مُكثّف: «هل يعبّر صليب المسيح عن شيء غير التمجيد السادو–مازوشيستي لتأليه الألم؟»، والقول إنّ «العهد الجديد هو مرجع في اللاإنسانيّة»، إنّه «مرجع كبير لخداع الجموع». لا يصدر هذان القولان عن عنوانين عريضين لحملة دعائيّة بولشيفيّة ملحدة، إنّما عن مناشير وزّعت في صيف ١٩٦٩، وهي صادرة عن قسم «اللاهوت الإنجيليّ» لجامعة توبينغن، وقد انتشرت بين الزملاء الجامعيّين. كان عنوانها: «يسوع السيّد – الرفيق كيزيمان». فمن خلال الروحيّة الماركسيّة لنقد الدين اتّهمت الكنيسة بأنّها شريكة في جريمة الاستغلال الرأسماليّ للفقراء، ووصف اللاهوت السائد بأنّ له دورًا في تدعيم توطيد النظم. وقد شارك فيها أستاذ لاهوت العهد الجديد في توبينغن... تُعذّبني الذكرى، عندما أعود إلى ما حدث معي، ومع زميلي أولريخ فيكرت، عندما حاولنا عبثًا تقديم طلب أمام جمعيّة عموميّة للطلاّب، تقضي بأن يقوم قسم اللاهوت الإنجيليّ بإعلان تراجعه عن الشتائم المذكورة، في الورقة المذكورة سابقًا. كان الجواب الرفض، بحجّة أنّ هذه الورقة تتطرّق إلى التأثيرات السياسيّة والاجتماعيّة المقلقة، التي يجب مناقشتها بدافع الوصول إلى الحقيقة. كما بقي النداء

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

المؤثّر، الذي أطلقه البروفسور فيكرت، بوجوب حذف عبارة: «ليكن يسوع ملعونًا»، بقي من دون جواب (ب.بايرهاوس، الخدمة اللاهوتيّة الكنسيّة في ألبرت–بنغل–هاوس، في: دياكريزيس ١٧، آذار ١٩٦٩، ص. ٩ ت). أمّا في قسم اللاهوت الكاثوليكيّ، فإنّ الأمور لم تأخذ هذا المنحى الدراماتيكيّ، لكنّ التيّارات الجذريّة، التي كانت تشتعل بقوّة في داخلها، كانت مشابهة. عندئذٍ أدركت ما كان يحصل؛ فمن أراد أن يبقى تقدّميًّا هنا، كان عليه أن يبيع أخلاقه.

إنّ كتابك الشهير «مدخل إلى الإيمان المسيحيّ»[٢] *لم يبدأ بالصدفة، مع قصّة «هانس والحظّ».*

نعم، هذا صحيح. يومها، وبينما كنت أراقب تحرّكات السنين الأخيرة، تذكّرت هذه القصّة. في تلك السنوات أضحت المسيحيّة عبئًا ثقيلاً، تمامًا كدور قطعة الذهب في هذه القصّة. فيومًا بعد يوم، كان يتراءى لي بشكل أوضح، كيف أنّنا، وعلى طريق التفسيرات المتعرّجة، كنّا نقايض دائمًا بما هو أقلّ قيمة. هذه المعادلة تُظهر بوضوح الحالة آنذاك. ولا ننسَ أنّ هذه القصّة قد كتبت سنة ١٩٦٧، أي قبل تفشّي هذه الحالة.

إنّ البعض يشتبهون أنّ هانس هذا قد يُدعى....

لا، أبداً، الأمر لا يرتبط أبدًا بهانس كونغ. إنّ كلّ إساءة إليه هنا هي بعيدة عنّي كلّ البعد.

كان من المحتمل أن تكون أنت أيضًا بين عديد الألمان الكبار الثائرين على الكنيسة. ما الذي أعاقك؟ يظنّ هانس كونغ، أنّ بولس السادس أمسك ببعض القوى الناقدة، وحضّرهم لتبوّؤ المناصب القياديّة.

لا أعرف شيئًا عمّا تذكر. وفي كلّ الأحوال، لم يتحدّث إليّ بولس السادس مطلقًا في هذا الموضوع. لقد قابلته، المرّة الأولى في تمّوز ١٩٧٧، بعد أن كنت قد رُسِمتُ مطرانًا. لقد كانت مفاجأة قاربت الصدمة بالنسبة إليّ أن أُعيَّن مطرانًا على ميونخ، بالطبع لم تكن هذه مكافأة لي على مواقف انتهازيّة. لا، حتّى لو أنّ ملامح من تفكيري

(٢) Einführung in das Christentu, (München, 1968) ترجمة الدكتور نبيل الخوري. مقدّمة البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم، في: (الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم، ١٥)، منشورات المكتبة البولسيّة جونيه ١٩٩٤.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

قد تطوّرت وتغيّرت مع العمر ومع المواقف المختلفة – كما مع المراكز المختلفة – لكنّني أؤكّد أنّ دافعي الأساسيّ يبقى نفسه الذي حرّكني، خلال المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وهو تحرير نواة الإيمان من هذه القشريّات، وإعطائها القوّة والديناميّة. إنّ هذا الدافع هو الثابت في حياتي، وهو ما أغلق الباب على عزلي، في معارضة مُعادية للكنيسة. من الطبيعيّ أنّ المنصب يُعطي نبرة لا توجد أصلاً فيه، عندما تكون مجرّد أستاذ. لكنّ المهمّ بالنسبة إليّ هو أن لا أحيد أبدًا عن هذه الثوابت، التي طبعت حياتي، منذ الصغر، وأن أبقى، وأنا في هذه المناصب القياديّة، مُخلصًا للاتّجاه الأساسيّ في حياتي.

لقد وضعت دائمًا شخصيّتك وراء المهمّة، وليس العكس، وذلك بشكل واضح جدًّا. على ما يبدو، إنّ هذا يتطابق مع مفهومك للواجب، والطاعة والخدمة، وكلّها مفاهيم ساءت سمعتها مع الانقلابات الحضاريّة التي نعيشها.

لكنّ العالم سوف يعود إليها وبكلّ تأكيد؛ لأنّه من غير المعقول أن يكون هناك حرّيّة جماعيّة، إن لم يكن هناك من استعداد لوضع النفس في خدمة حقيقة شاملة ومعترف بها، والانضواء تحت لواء رايتها. إنّ حرّيّة الفرد هي دائمًا حرّيّة مجزّأة. علينا أن نتساعد جميعًا لحملها، وتتطلّب أن تقدَّم لها الخدمة. بالطبع بإمكان هذه المزايا أن تُستغلّ، إذا ما أُلحقت بأنظمة مُضلّلة. ليس باستطاعة هذه المزايا أن تكون جيّدة بشكل مُطلق، إنّما فقط، لارتباطها بهدف معيّن، سوف تخدمه. هذا الهدف هو في حالتي، الله، هو المسيح، وهكذا أمتلك القناعة الأكيدة، بأنّها في المكان المناسب.

ابتداء من نقطة زمنيّة مُحدّدة، جابهت لاهوتيّين وتزايدت ردّات فعلك القاسية على الانتقادات اللاهوتيّة الداخليّة. إحدى جملك الرئيسيّة تقول: «إنّها كنيسته، وليست حقل اختبار عند اللاهوتيّين».

لا أريد أن أقف بوجه اللاهوتيّين، لأنّني عندئذٍ أكون في صراعٍ مع نفسي. إنّ علم اللاهوت مهمٌّ جدًّا ورفيع المستوى، واللاهوتيّ يقوم بما هو مهمّ. كما عليه أن يكون ناقدًا ويمارس النقد. ما جابهته، هو لاهوت فقد معاييره الخاصّة، ومن ثَمّ، لم يعد يقوم بعمله جيّدًا. إنّها النقطة الأهمّ بالنسبة إليّ. لكنّ هذا التعبير: «إنّها كنيسته وليست كنيستنا» هو بالفعل مفرق طرق مهمّ بالنسبة إليّ، حيث يجب الاعتراف، أنّه لا يعود لنا أن نختلف كيف تكون الكنيسة، إنّما أن نؤمن أنّه يريدها وأنّه علينا محاولة فَهْم، ماذا يريد أن يفعل بها، وأن نضع أنفسنا في خدمته.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الأسقف والكاردينال

سنة ١٩٧٧، بصفتك «المعلّم الأكبر للاّهوت»، عيّنك البابا بولس السادس مطرانًا على ميونخ وفرايزينغ. بعدها بقليل رُقّيت إلى رتبة كاردينال، وعُهد إليك «بالعمل في حقل الربّ». ما الذي حرّكك عندما أصبحت مطرانًا على ميونخ؟

كنت في البدء في حيرة كبيرة، ولم أكن أدري ما إذا كان عليّ القبول بهذا المنصب، وما إذا كنت قادرًا عليه. كانت تجربتي الرعويّة ضعيفة جدًّا. لقد أحسست، منذ البدء بأنّني مدعوّ للتعليم، وكنت أعتقد بأنّني في هذا العمر – أي الخمسين – قد كوّنت نظرتي اللاهوتيّة، وباستطاعتي أن أنجز عملاً، أي نتاجًا أدبيًّا أساهم فيه في علم اللاهوت. كما أنّني كنت أدرك أنّ صحّتي سريعة العطب، وأنّه يترتّب على هذا المنصب تعب جسديّ لا يُستهان به.

لجأت إلى طلب الاستشارة؛ وهنا قيل لي، إنّه، في الأوقات الحرجة، كالتي نعيشها اليوم، علينا قبول مهمّات قد لا تكون من ضمن الخطّ الذي رسمناه لأنفسنا، منذ البدء. إنّ مشكلة الكنيسة اليوم متداخلة أشدّ التداخل مع مشكلة اللاهوت. هذا الوضع يقتضي بأن يضع لاهوتيّون أنفسهم بالتصرّف، ويصبحوا مطارنة. لقد قبلت هذا المنصب، وفي نيّتي أن أحقّق ما أعلنته في شعاري للمطرانيّة «معاونون للحقيقة» معاونون في صيغة الجمع. لأنّني قصدت أن أعمل مع معاونيَّ في الرعيّة، بما لديّ من هالة، إذا استطعنا أن نسمّيها هكذا، وبما أُعطيت من تجربة وقدرة لاهوتيّة، على تسيير الكنيسة حينئذٍ في الاتّجاه الصحيح.

لقد لفت الانتباه، بصفتك مطرانًا، تناولك معالم العصر الأخلاقيّة، وكان موضوعك: انحلال التقاليد والأصالة. لقد فُضحت بتوجيهاتك قوًى محدّدة كانت تدور كالزوبعة في كلّ اتّجاه. وهذا لم يجرؤ أحد على قوله، في أيّامنا، بعبارات أكثر أصالة ودراماتيكيّة. لقد حذّرت من انغلاق القلب، بين شحوم اللذّات والامتلاك، وتكلّمت عن ضحكة مفيستوفيلس الصفراويّة التي تطلّ من وراء ظواهر عصريّة عديدة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

ما الذي كان يدفع بك يومذاك؟ هل كان لديك رؤيا تبيّن المستقبل؟ ولماذا نذرت نفسك، وبهذه الحدّة، لنقد المجتمع؟

يدور الحديث كثيرًا عن مهمّة الكنيسة النبويّة. وقد يُساء استعمال هذه الكلمة أحيانًا. لكن ما هو بالتأكيد صحيح، أنّه على الكنيسة ألاّ ترتبط أبدًا وببساطة بروح العصر. عليها أن تخاطب هموم الزمن وأخطاره؛ عليها أن تنبّه ضمائر الأقوياء، كما المثقّفين، وتتوجّه إلى الجاهلين، أو الذين اختاروا طوعًا أن يتجاهلوا مآسي الزمن، ليمرّوا براحة في هذه الحياة. وبصفتي مطرانًا، شعرت بأنّ عليّ القيام بهذا الواجب. زد على ذلك، أنّ نقاط العجز كانت واضحة جدًّا: تعب في الإيمان، تراجع واضح في عدد الدعوات، انخفاض في المستوى الأخلاقيّ أيضًا بين الناس الملتزمين في الكنيسة، اتّجاه متزايد نحو العنف وغيرها الكثير. إنّ كلمات الكتاب ترنّ في أذنيّ، وكذلك تعاليم آباء الكنيسة، الذين حكموا بقسوة كبيرة على الرعاة، وشبّهوهم بالكلاب التي لا تنبح، وتتحاشى الإعلان عن المشاكل، وتترك السوء ينتشر. ليس التزام الهدوء الوصيّة الأولى للمواطن. والمطران الذي يختار عدم المشاكسة عند الحاجة لينعم بالهدوء ويحاول طيّ الخلافات كلّها، هو بالنسبة إليّ رؤية منفّر.

عندما كنت مطرانًا في ميونخ، لم تكن الخلافات قليلة؛ وعلى الرغم من ذلك، احترموك لأنّك «تقليديّ» وخصوصًا، لأنّك قدّمت «المعرفة القويّة الأساس لتعاليم الكنيسة». وكما كتبتْ يومها صحيفة «السوددويتشه تسيتونغ» أنّك من أقدر المحافظين في الكنيسة على النقاش. لكن، ما لبث أن تغيّر صيتك، بعد أن عُيّنت رئيس مجمع الإيمان سنة ١٩٨١. «لن تكون الأخبار كلّها التي سوف تصل من روما مريحة»، هكذا توقّعت في وداعك.

ما زلت، حتّى اليوم، شاكرًا الله، لأنّني لم أهرب من مواجهة الخلافات، خلال إقامتي في ميونخ، لأنّ أسوأ طرق الإدارة في نظري، وكما قلت سابقًا، هو أن تدع الأمور تمشي في أعنّتها. لقد كان واضحًا لي، منذ البدء، أنّ عددًا لا يُستهان به من المهمّات المزعجة ينتظرني في وظيفتي، في روما. لكن، أعتقد بأنّه يحقّ لي التأكيد أنّني سعيت دائمًا إلى الحوار، وهذا ما كان مُثمِرًا جدًّا. عندنا الآن طرائق عديدة للحوار، وهي تعمل بشكل مُستمرّ، مع أهمّ مجامع الأساقفة، ومع رؤساء الرهبانيّات الكبيرة. وقد استطاعت أن تحلّ عددًا لا يستهان به من المشاكل التي، بقيت وقتًا طويلاً

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أحجار عثرة على الطريق. ومن خلال ذلك، نمت علاقات كثيرة ومميّزة بمطارنة من العالم كلّه، وعلى ما أعتقد، أنّ كلّ الأفرقاء كانوا شاكرين لها.

هل شعرت بأنّك مناسب، أو بأنّك قد أُعددت مسبّقًا لهذه المهمّة؟

إنّ هذا الكلام مضخّم بعض الشيء. لم أكن أتّوقع أمرًا كهذا أبدًا، قبل سنة أو سنتين. كما أنّ عالم الإدارة المركزيّة البابويّة كان غريبًا تمامًا بالنسبة إليّ، ولم يكن لي أيّة علاقة بها. لقد تعرّفت على هذا العالم، خلال المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وإن يكن عن بعد، وبالتأكيد، لم أكن أتحضّر لأيّ منصب.

هل كنت تعرف مسبّقًا أنّ البابا البولونيّ، الذي كنت على معرفة قديمة به، سوف يستدعيك؟

لا. لقد التقيته سنة ١٩٧٧ في السينودس. أمّا المعرفة الحقيقيّة، فقد ولدت سنة ١٩٧٨. وحتّى ذلك الوقت، كانت المعرفة سطحيّة. لقد تفاهمنا بشكل جيّد جدًّا وتلقائيّ، لكن لم يخطر ببالي أبدًا أن يفكّر فيّ لأيّ منصب.

هل كان هذا قرار البابا يوحنّا بولس الثاني وحده؟

أتصوّر هذا، لكنّني لم أسأله أبدًا. من الممكن أن يكون قد استشار أحدًا. لكنّني أميل إلى الاعتقاد بأنّه قرار شخصيّ.

هل أفادتك هويّتك الألمانيّة في هذا؟

من المعروف أنّ هناك تصوّرات عامّة، تحدّد مميّزات الألمان. لهذا، أعتقد بأنّه من المعقول أن تُنسب القرارات، ذات الوقع السلبيّ إلى صفة العناد الألمانيّ. فالتعصّب الأعمى للمبادئ، والعوز إلى المرونة، كلّها أيضًا صفات من صلب الكائن الألمانيّ. وبالتأكيد، عندما أُوجِدَ التعبير «الكاردينال المدرّع» كان هناك تلميح مباشر إلى جنسيّتي الألمانيّة. لكن، من جهة أخرى، وعلى الأقلّ وجهًا لوجه، لم أُواجَه مرّة، بشكل عدائيّ، بسبب جنسيّتي، ولم يحصل التركيز عليها. لقد شاع في الأوساط كلّها أنّني لا أتّبع سياسة شخصيّة، إنّما أنا جزء من كُلّيّة، وأنّ ما أفعله ليس تعبيرًا عن طبعي بكلّ مميّزاته الألمانيّة، ولكنّه قرار ناتج عن مجموعة متتالية من المراكز ومكاتب الخدمة، الموجودة في عالم الخدمة المركزيّة، التابع لروما.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

ما هو الرابط بينك وبين البابا البولونيّ؟ وهل هي قرابة في الطباع؟

أوّل ما ربطني به، كانت استقامته الإنسانيّة، وصراحته البعيدة عن التعقيد، وخصوصًا الحرارة الإنسانيّة التي كانت تشعّ منه. الإنسان يشعر بدعابته وتديّنه البعيدين عن كلّ تعقيد، وعن كلّ الشكليّات. تشعر بأنّك أمام رجل الله. هو إنسان بعيد عن كلّ تكلّف، إنسان مؤمن بالله بالفعل، وفوق ذلك، هو إنسان مبتكر، له تاريخ طويل من التجارب والتفكير. إنّك تشعر بها عندما تقف أمامه: لقد تعذّب كثيرًا، كما أنّه ناضل، ليتمكّن من مزاولة هذه المهنة. لقد عايش كلّ دراما الاحتلال الألمانيّ لبولونيا، والاحتلال الروسيّ، فيما بعد، وجابه النظام الشيوعيّ؛ وطوّر طريقة تفكير خاصّة به؛ كما أنّه ألمّ بالفلسفة الألمانيّة؛ وتعمّق أيضًا في تاريخ أوروبّا كلّها. كان على معرفة بنقاط أساسيّة من تاريخ اللاهوت، تخرج عن المعرفة المألوفة. إنّ هذا الغنى الروحيّ، والفرحة في النقاش والحديث، كلّها كانت أشياء جعلته لطيفًا بنظري، وبشكل عفويّ.

لقد تمّ تصنيفكما، أنتما الاثنين، على أنّكما مثقّفان جدًّا، وحسّاسان، ومتمكّنان من المجادلة في الأمور الدينيّة. وكما علّق مراقب قائلاً: «أنتما، الاثنان، من دُعاة الإصلاح، ومن شخصيّات المجمع الفاتيكانيّ الثاني؛ لكنّ ميلكما إلى التشاؤم يدفعكما إلى تصوّر العالم، وكأنّه على شفير الهاوية». هل تفاهمتما مسبّقًا على وجهة قيادتكما الكنيسة، وهل اتّفقتما على الأهداف والنيّات؟

لا، لم نفعل. لقد قال لي البابا إنّه ينوي أن يأتي بي إلى روما، فبيّنت له أسبابًا، على أمل إقناعه بالعكس، فكان جوابه، بأنّه علينا التفكير بالأمر من جديد. تكلّمنا بالأمر، مرّة ثانية، بعد الاعتداء الذي تعرّض له، فأوضح لي أنّه ما زال على رأيه. اعترضت قائلاً: إنّني أشعر بأنّني ملتزم أكثر باللاهوت، وبأنّني أريد المحافظة على حقّ إصدار بعض المؤلّفات الخاصّة، وبأنّني لست أكيدًا من أنّ هذا الأمر يتماشى مع المسؤوليّة الجديدة. أجابني بأنّ لا شيء يمنع من توحيد المهمّتين. ولكنّنا لم نتحدّث قطّ عمّا يُشابه برنامج عمل.

إنّ مجمع الإيمان ليس من أحبّ المؤسّسات الفاتيكانيّة. فلا يُمكن لأحد أن ينسى أنّه يتفرّع عن ديوان التفتيش المقدّس السابق. علامَ أردت أن تُشدّد في منصبك الجديد؟

أردت أوّلاً أن أركّز بقوّة على العمل الجماعيّ، وأن أرفع من شأن الهيئات المنفردة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

كما أردت أن أدفع نحو الأمام الحوار مع اللاهوت واللاهوتيّين، أن أعتني أيضًا بالحوار مع المطارنة، لأنّهم هم في النهاية شركاؤنا المباشرون. لا أتجرّأ على تحديد مدى النجاح. لكنّنا قمنا بالكثير لتقوية العلاقات بالمطارنة. لقد زرنا القارّات كلّها، وتكلّمنا مع مجامع الإيمان المحلّيّة كلّها، ومع المطارنة، وها نحن نبدأ من جديد بدورة الزيارات. كما أكثرنا من اللقاءات عند زيارات الأعتاب، وحاولنا توسيع فريق المستشارين، وخصوصًا عملنا على توسيع صلاحيّات لجان اللاهوت، ولجنة الكتاب قدر الإمكان. هذه هي الخطوط العريضة، التي أردت التركيز عليها، والتي حاولت أن أعمل عليها لاحقًا.

ألم يغرّك أيضًا، أن تكون ذا نفوذ؟

بالأحرى، هذا ما أخافني نوعًا ما، لأنّ الأمر سريعًا ما يتحوّل، وعند أقلّ تفضيل للرأي الخاصّ، إلى تأثير مباشر على الوظيفة. لكن أن أضع كلّ إمكاناتي بتصرّف الكنيسة، وبالأخصّ في هذه الظروف الصعبة، وأن أفكّر معها وأساعدها، هذا فعلاً ما أعطاني دفعًا مهمًّا.

ألا يتمتّع هذا المركز أيضًا بشعور بالقوّة؟

نعم، إنّما ضمن أبعاد متواضعة جدًّا. لأنّ القوّة، التي نتمتّع بها، هي بالفعل محدودة جدًّا. في الواقع، نحن غالبًا ما نكتفي بالطلب من المطارنة، وهم بدورهم عليهم أن يطلبوا من اللاهوتيّين ومن رؤساء الرهبانيّات، أو يمكننا محاولة فتح حوار. من المؤكّد أنّ هناك ما يُسمّى بالتدابير التأديبيّة، التي نحاول قدر الإمكان، تحاشي استعمالها. نحن لا نملك قوّة تنفيذيّة. في الأحوال كلّها، هذا ما يفترض دائمًا النيّة الحسنة من جميع الأطراف المعنيّة، والتوافق على أنّ الأهمّ هو خدمة الكنيسة.

لقد عنيتُ بسؤالي السابق: الشعور بالقوّة التي يتمتّع بها الفرد في هذا المنصب.

عليّ القول، بشكل موضوعيّ، إنّ من الممكن أن يكون هناك أيضًا شيء ما يُشابه القوّة، لكنّني شخصيًّا لا أشعر بأنّني قويّ بشكل مميّز. في النهاية، الأسلحة التي هي بتصرّفنا ليست سوى الحجج والنداء إلى الإيمان. إنّ عملنا يأخذ معنًى فقط، من خلال اعتراف الآخرين به، ودعم الكنيسة له. لم يُساورني قطّ الشعور بأنّني ذو سلطان قويّ.

تساءلت في العظة التي ألقيتها، قبل ذهابك إلى روما ناطقًا باسم المشكّك، الذي أدرك أنّ زرعه ذهبَ عبثًا، فقال: «هل هي فعلاً ضروريّة هذه المهمّة؟» ثمّ قال، لاحقًا

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

«ألا نحتاج إلى كنيسة أخرى، وإلى إدارة مختلفة تمامًا؟ وما لبث أن شعر أكثر بالوحدة التي ازداد ثقلها، وكان يتساءل عن معنى التخلّي عن الزواج، ذلك التخلّي الذي لم يكن هو الذي أراده الفرد أوّلاً والذي ارتضاه، فقط بسبب حبّه للدعوة الكهنوتيّة. خيّم الظلام من حوله، هو لم يكن يسعى إلاّ ليكون إنسانًا مثل كلّ الآخرين، لأن يكون ذاته.» يُغري المرء أن يخلق ارتباطًا بين هذا المتشكّك والكاردينال الذي يروي قصّته.

للأسف، لا أستطيع أن أتذكّر هذه العظة. ومن الطبيعيّ أن يطرح المؤمن على ذاته هذه الأسئلة. لقد أوضحت في كتابي «مدخل إلى الإيمان المسيحيّ» أنّ الإيمان لا يقطع الطريق على الأسئلة، وأنّه قد يتجمّد، حين لا يطرح على نفسه هذه الأسئلة. بهذا المعنى، تكون هذه الأسئلة بعيدة كلّ البعد عن الخيال، لأنّها أسئلة حقيقيّة، توجب عليّ أيضًا أن أطرحها على نفسي. لكنّها بمعنًى ما، تولد في كنف الثقة العميقة بالإيمان. وهو ما لا يعني أنّ هذه الثقة العميقة تُلغي وببساطة الأسئلة كلّها، لكنّها تلتقطها بما يشبه الرعاية.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

رئيس «المجمع لنشر الإيمان»

إنّ القانون الكنسيّ يُحدّد مهمّتك في «المجمع لنشر الإيمان» ب«دفع التعاليم الصحيحة إلى الأمام...، والسهر، وتصحيح الخطأ، وإعادة الضالّين إلى الطريق القويم». قد لا يكون هذا الدور سهلاً: ملاحقة الآخرين، وتأنيب الناس، من وقت إلى آخر، والعمل على تثبيت شيء من الصرامة. لكنّ التصوّر الشائع هو أنّ مجمع نشر الإيمان بعيد كلّ البعد عن التسامح، وعن المشاعر الإنسانّة.

يُلاحظ من يُفرض عليه التعامل معنا أنّنا لسنا بعيدين أبدًا عن الناس، وأنّنا، على العكس، نحاول دائمًا أن نجد حلاًّ منطقيًّا. يجب علينا، في الكنيسة،كما في كلّ مجتمع آخر، أن نجد التوازن بين الحقوق الشخصيّة، وما هو صالح للمجتمع ككلّ. هنا تكمن النقطة الأساسيّة، وهي أنّ الرأسمال، الذي هو قوّة الكنيسة وقوّتها الجامعة، يتمثّل في الإيمان. فمن جهة، علينا أن نُدافع عن الذين لا يملكون القدرة الذهنيّة للدفاع عن أنفسهم، بوجه التشويه الثقافيّ، الذي تتعرّض له أسس حياتهم، كما أنّ على عملنا أن يقف عند حدود احترام حقوق المعنيّين. إنّ التدابير القانونيّة، التي نملكها، والتي نسعى دائمًا إلى تطويرها، مبنيّة على المحاولة الدائمة للمعادلة بين هذين الأمرين.

في هذه المناسبة، نحاول دائمًا أن نجد الحلول من خلال طريق النقاش، وعدم اللجوء إلى التدابير الجزائيّة، فنحن نطلب دائمًا من الكاتب أن يُوضّح ذاته، بشكلٍ أفضل ممّا فعل حتّى الآن. وهو ما يعني أنّنا نُجري اتّصالات بالمطارنة أو برؤساء الرهبانيّات، الذين يدخلون بدورهم في حوار مباشر مع المعنيّين بالأمر، وهكذا نبقى بعيدين عن تصنيف الأمر على أنّه جنحة، وهكذا تُترك لخطوات جديدة في التفكير، بإمكانها أن تتطوّر لاحقًا.

لديك فريق مؤلّف من حوالى أربعين مساعدًا. إنّه ليس بالعدد الكبير إذا ما قارنّاه بالمسيحيّين الذين يعدّون حوالى المليار. من أين تأتي بمعلوماتك؟ من أين تعرف بما يدور في خبايا العالم؟

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

إنّ مجامع المطارنة هي مصدرنا الرئيسيّ للمعلومات، وكذلك اللقاءات التي نجريها مع المطارنة. زد على ذلك المطبوعات اللاهوتيّة، التي نبحث عنها في المجلاّت والكتب، التي نُعلِم بدورنا عنها مجامع المطارنة. لكلّ من المساعدين منطقته الخاصّة، حيث يُحاول أن يجمع المعلومات من اللاهوتيّين، أو من مجموعات كبيرة من الناس التي تزورنا، أو تعمل معنا، وأحيانًا كثيرة، من مجامع المطارنة، أو المطارنة المنفردين الذين يأتون مباشرة لزيارتنا.

هل عليك أن تعيد النظر شخصيًّا بكلّ شيء، وهل كان كتاب «التعليم المسيحيّ» وليد قلمك؟

بالطبع لا، لم أكن لأقدر على ذلك أبدًا. عليّ أن أحاول توجيه العمل وتنسيقه، من خلال معاملة، يطغى عليها روح الزمالة، وبشكل نصل معه إلى نتيجة. عندما هيّأنا كتاب «التعليم المسيحيّ»، كان لدينا جهاز متعدّد الأشكال. وكانت لجنة العمل المخصّصة لهذا المشروع تتألّف من ١٥ مطرانًا، من قارّات متعدّدة. وقد اختارت هذه اللجنة بدورها فرقة مؤلّفة من ٨ أساقفة كانوا بدورهم المحرِّرين النهائيّين للنصوص. وهنا كُلِّف كاتب بتنسيق كلّ هذا العمل. بهذا المعنى، يمكن القول، إنّنا كنّا معًا كلّنا كتّابًا. وفي هذه المناسبة، كان لدينا، طوال فترة العمل، تدفّق قويّ أو "input"، كما يُقال في التعبير الرائج اليوم. لقد كتبت شخصيًّا لكلّ المطارنة ومجامع الأساقفة، وتلقّينا حوالى ألف جواب على رسائلنا.

هل كان هناك من رأي شاركت به الجماهير بنفسها في الكنيسة؟

نحن نعرف أنّ الأسقف لا يدلي برأي خاصّ به، وإنّما ينقل إيمان كنيسته وأبرشيّته، وطريقة عيش الإيمان فيها. فالأسقف هو ممثّل أيضًا، يختصر بشخصه مجموعة كاملة. من هنا نتأكّد، من أنّه من خلال عدد الأساقفة الذي يفوق الألف تصل آراء المؤمنين إلينا.

هل في كتاب «التعليم المسيحيّ»، برأيك، أقوال أو صياغة تعتبرها قليلة الفطنة؟

نعم، لا تتمتّع المقاطع كلّها بالنجاح نفسه، هذا طبيعيّ.

هل تستطيع أن تذكر لنا مقطعًا؟

لا، ليس باستطاعتي الآن أن أذكر شيئًا. عليّ أن أعود إلى النصوص. لكنّني أعتقد

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أنّ كتاب «التعليم المسيحيّ» بمجموعه عمل ناجح، عميق وشامل، كما أنّه عمل سهل للقراءة. وهذا ما ذُكر لنا مرارًا. لقد قال لنا أناس عديدون – أعني أناسًا بسطاء وليسوا لاهوتيّين – إنّ باستطاعتهم قراءته وفهمه. أمّا في ألمانيا، ولأسباب عديدة، فقد صادف هذا الكتاب قبولاً محدودًا. لكن في أميركا مثلاً، التي هي أيضًا بلاد ناقدة، بيع أكثر من مليوني نسخة. في آسيا، ما زال الإقبال في أوّله، لكن في أميركا اللاتينيّة، وفي أسبانيا، وفي فرنسا، وفي بريطانيا، كان الإقبال جيّدًا جدًّا. يكفي ما نجده من مجموعة كبيرة وقيّمة من الاستشهادات العائدة إلى آباء الكنيسة. من الطبيعيّ أنّه كتاب من وضع البشر، ويمكن دائمًا تحسينه، لكنّه كتاب جيّد.

هل ترى في هذا الكتاب عملاً ناجحًا و مميّزًا؟

أعتقد أنّ المقدّمة، التي تدور حول الإيمان، جيّدة جدًّا. كما أنّ مقاطع كبيرة من البحوث، حول الكنيسة والأسرار، ناجحة جدًّا، وكذلك القسم الذي يعنى بلاهوت الليتورجيّا – هنا ساهم في العمل ليتورجيّون من الدرجة الأولى – إنّها أجزاء جميلة وحيّة. كما أنّ المقطع، الذي يدور حول الصلاة، له أسلوبه الخاصّ والجميل. أعتقد بأنّه عمل ناجح.

كم دام العمل على هذا الكتاب، حتّى أتى على الصورة التي هو عليها الآن؟

خمس سنوات بالضبط. عبّر السينودس عن رغبته سنة ١٩٨٥، ثمّ شكّل البابا سنة ١٩٨٦ اللجنة المعنيّة بالأمر. وبدأنا بالعمل في خريف ١٩٨٦. بعد ستّ سنوات، أي سنة ١٩٩٢ قدّمنا كتاب التعليم المسيحيّ للعلن.

لنعد إلى عملك، بوصفك رئيسًا لمجمع الإيمان: ما هي الضمانة التي تملكها، والتي تؤكّد لك أنّ كلّ ما يقرّره المجمع هو الصحيح؟

إنّ الضمانة الأولى هي أنّنا، وببساطة، لا نخترع نحن أنفسنا، ولكنّنا نضع أنفسنا في وسط التيّارات الفكريّة الإيمانيّة الكبيرة. والضمانة الثانية هي أنّنا، وعند وضع الخطوات العمليّة، نتشاور بشكل واسع، ولا نتبنّى أفكارًا فرديّة، نلاحظ تلاقيًا في الأفكار بين المستشارين، عندئذ فقط نأخذ القرارات. من المهمّ ألاّ نذهب أبعد ممّا هو موجود سلفًا في الإيمان – وإن كان من الضروريّ جدًّا العمل على تحديثه – وأن نلحظ أنّه في مكان ما في فسحة عقلانيّة في الوسط، هناك اتّفاق حول رأي واحد.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هل تتبع طريقة تأمّليّة لتحضير عمل ما؟ يعني أن تعمل على التعمّق في الكثير من النقاط والتفكير فيها منفردًا، أن تعمل عليها فكريًّا. لقد قلت مرارًا إنّه يجب عليك التأمّل في نقطة أو في أخرى؟ ماذا يعني هذا؟

هذا واضح. إنّ الخطوة الأولى تكون دائمًا في جمع المعلومات حول أمرٍ ما، أي أن نتعرّف على فحوى السؤال، ثمّ يكون التشاور مع الذات، حيث نعمل على فهم المنطق الذي يسود مجمل الجوانب، ونحلّله، ونتعلّم أن نستوعبه ونرى علاقته بالموضوع برمّته، ومن ثمّ نحمله معنا في صلاتنا. إنّني أعتقد بأنّ العمليّة تفترض جمع المعلومات والاستيعاب، وطبعًا الحوار، ثمّ العودة إلى الذات والعمل على الاستيعاب الداخليّ، أعتقد بأنّها الخطوات المهمّة.

ما هي أهمّيّة الوحي في هذا السياق، بالنسبة إليكم، وعلى الأخصّ كيف يكون ذلك؟

ليس للمرء أيّة سلطة على الوحي، فهو يتصرّف وفق حرّيّته. لكن، علينا أن نقبله بحذر، فمن المهمّ جدًّا أن نتأكّد من صحّته، من خلال تطابقه مع المنطق العامّ للمجموع. وفي هذه المناسبة، إنّ من شروط الوحي، أن لا يكون المرء في قلق، ولكن، علينا أيضًا أن نتعامل مع الأفكار بهدوء، ونفسح لها المجال لتتخمّر طويلاً في داخلنا.

في بداية عهدك، في وظيفتك، كان عليك الانشغال بلاهوت التحرير، وتأنيب لاهوتيّين شكّككوا بعصمة البابا، أو انتقدوا التعاليم الأساسيّة للكنيسة. إنّ الطريقة التي عالجت فيها هذه المواضيع تركت أثرًا سلبيًّا على صورتك، على الأقلّ في ألمانيا. اليوم، وأنت تنظر عن بعد، ألا تجد أنّك ربّما تصرّفت بطريقة قاسية؟ حتّى لو افترضنا أنّك أعطيت الأجوبة الصحيحة.

أفضّل أن أميّز هنا بين ردّات الفعل على الصعيد الشخصيّ، وما قمنا به من عمل رسميّ. لا أُنكر أبدًا أنّني قد أكون تصرّفت بقساوة أحيانًا، وخلال نقاش كلاميّ خاصّ. أمّا فيما قمنا به في مجمع الإيمان، فأعتقد أنّنا التزمنا الحدود الصحيحة. توجّب علينا أن نقول كلمة فيما يتعلّق بلاهوت التحرير، وذلك بهدف مساعدة الأساقفة. في نهاية المطاف، كان التهديد قائمًا بتسييس الإيمان، وقد دُفع به، وبشكل غير مسؤول باتّجاهات حزبيّة سياسيّة، كادت أن تقضي على فحواه الدينيّ. إنّ التحوّل الكبير باتّجاه البدع

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الدينيّة هو نتيجة أكيدة لتسييس الدين. من المعترف به بشكل واسع اليوم، أنّ إرشاداتنا كانت ضروريّة، وأنّها كانت في الاتّجاه الصحيح. وكمثل مهمّ على الدوافع الإيجابيّة، والتي أتت نتيجة تعليماتنا، نذكر الطريق الذي سلكه كوستاز كوتيرز، الذي يُعتبر مكتشف لاهوت التحرير: دخلنا في نقاش معه – قدته شخصيًّا إلى حدٍّ ما. ومن خلال هذا النقاش، كان التفهّم المتبادل يزداد باستمرار. لقد ساعدنا هذا على أن نفهمه، وساعده هو أيضًا ليرى أنّ عمله محصور في بعدٍ واحد، وأنّ عليه العمل ليطوّره بالفعل، ويحوّله إلى شكل من لاهوت التحرّر، القادر على الحياة في المستقبل، مستوفيًا الشروط الموضوعيّة.

من الطبيعيّ أنّ بعض نقاط الخلاف بقيت، ولم نتمكّن من إزالتها. على كلّ حال، في هذا الوقت، كان السؤال حول لاهوت التحرّر، وعلى المسرح العالميّ كلّه، قد تحوّل بشكلٍ مختلف تمامًا. لكن، عندما نعود بالنظر إلى هذه السنوات الخمس عشرة، علينا القول إنّ العمليّات الجراحيّة التي قمنا بها، كانت موضوعيّة، وقد أثبتت أنّها ساعدت. قد لا نلاحظ هذا من النظرة الأولى، إنّما على مدًى طويل. أمّا اليوم، فحتّى الأسقفيّات التي كانت في حيرة بادئ الأمر، تعتبره جزءًا مُسلَّمًا به من ملكيّتها.

لكنّ الأمر تعدّى هنا الحوار، كانت هناك سنوات الصمت المفروضة، العقاب بالصمت.

إنّ كلمة «العقاب بالصمت» وجدت في ألمانيا. كلّ ما قلناه، أنّ عليه وطوال سنة كاملة، التوقّف عن التحدّث بهذا الموضوع، والسفر في العالم. مع التفكير في هذه المسألة، باستطاعتنا دائمًا النقاش، إذا كانت هذه الخطوة صحيحة أو لا. ولكن، إذا نظرنا بموضوعيّة، فمن الصحيح دائمًا أن تدعو شخصًا ما إلى التفكير العميق والطويل، حول سؤال صعب. من الممكن أن تكون نصيحة جيّدة لنا جميعًا، إذا ما طُلِبَ منّا الصمت، والتوقّف عن الكتابة السريعة والمرتبكة حول موضوعٍ ما. لا أريد متابعة النقاش الآن، وهنا حول صحّة التدابير التي أُخذت. سُمح لبوف أن يُتابع التعليم، لكنّه اختار شخصيًّا أن لا يفعل ذلك، خلال ذلك العام. كان المطلوب أن يبتعد عن هذا الموضوع المحدّد، في محاضراته، وكتاباته، وأن يتركه لمدّة سنة. تمامًا كما حدث مع كونغ، عندما دعاه البابا بولس السادس إلى التوقّف عن نشر الأبحاث، حول عصمة البابا، وإلى إعادة النظر من جديد في هذا الموضوع.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الظاهر أنّ هانس كونغ لم يُلبِّ الدعوة، وهكذا فعل بوف. السؤال المشروع هو، هل أتت هذه التدابير بأيّة منفعة لصورة الكنيسة؟

إنّها، وعلى الشكل الذي نُشرت فيه في العالم، لم تأتِ على التأكيد بأيّة منفعة. إنّما، ومنذ ذلك الوقت، قد يكون الذين أعادوا التفكير عديدين، نظرًا إلى التطوّرات التاريخيّة، وإلى الطريق التي سلكها بوف، تلك الطريق التي لا أدّعي لنفسي الحقّ بالحكم عليها.

وحول هانس كونغ الذي ينتظر إعادة اعتبار؟

قد نكون هنا بحاجة إلى القليل من الديميتولوجيا. مُنع هانس كونغ سنة ١٩٧٩ من التعليم باسم الكنيسة؛ ربّما يكون الوقع الأوّليّ لهذا الحرم مرًّا، لكنّه وجد بواسطة هذا الحرم وبعده طريقه الخاصّ جدًّا به. لقد أصبح بعده حرًّا من المحاضرات المفروضة عليه، في إطار تأهيل اللاهوتيّين والامتحانات التي تتبعها، كان باستطاعته عندها أن يُخصّص وقته للموضوعات التي أحبّها. لقد أكّد لي، في إحدى لقاءاتنا سنة ١٩٨٢، أنّه لا يودّ أبدًا العودة إلى وضعه السابق، وأنّ موقعه الحاليّ يناسب شخصه أكثر. لقد ابتعد تدريجيًّا عن الأسئلة الضيّقة المرتبطة باختصاص اللاهوت، لينتقل إلى الموضوعات الكبيرة التي تثيره، وليعمل عليها. لا معنى الآن لتكليفه من جديد التعليم باسم الكنيسة، لأنّه أصبح متقاعدًا. لكن، بالطبع ليس هذا هو الموضوع الأساسيّ، بالنسبة إليه. ما يهمّه هو أن يتمّ الاعتراف بلاهوته، بوصفه أحد أشكال اللاهوت المقبولة من اللاهوت الكاثوليكيّ. مع أنّه لم يتراجع عن أيّ نقد وجّهه للمركز البابويّ، فإنّ مواقفه على العكس أصبحت أكثر راديكاليّة، كما أنّه ابتعد أكثر عن تعاليم الكنيسة، فيما يتعلّق بعلم المسيح (كريستولوجيا) وسرّ الثالوث الأقدس.

إنّني أحترم طريقه الذي يسلكه وفق ضميره، لكن من غير المنطقيّ أن يطالب بمباركة الكنيسة. إنّما عليه الاكتفاء بالاعتراف بوضوح أنّه، في الموضوعات الأساسيّة، قد توصّل إلى نتائج خاصّة به.

لقد ألححت دائمًا على النظر إلى الواقع، كما هو، وإلى التعبير بوضوح عن موقف متعارض مع روح العصر الحديث. كما أنّ صحّة تحليلاتك، حول أسباب الأزمات في الكنيسة والعالم، أُثبتت مرارًا. لكنّ هذا لم يعد بالإيجابيّة على صورة الكاردينال في

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

وسائل الإعلام، أو عند العامّة. هل هذه نتيجة لأسلوبك المصمّم الذي تعتمده دائمًا للدفاع عن موقفك، ولتشدّد في طريقة تعبيرك؟

من الطبيعيّ أن أكون أقلّ الناس علمًا هنا، كما أجهل تمامًا، عدد القرّاء المتنبّهين، الذين يتابعونني، وعدد أصحاب الذاكرة الجيّدة بينهم. غالبًا ما تقع حوادث، ما هي إلاّ تثبيتًا للتشخيص الذي كنّا قد أعطيناه، لكنّ الكثيرين لم يعودوا يتذكّرون. أميل إلى الاعتقاد، أنّ الأمر يكمن في ربط شخصي بالوظيفة التي أقوم بها، بوصفي رئيسًا لمجمع الإيمان، ومن ثمّ، بالنفور الموجود من هذه الوظيفة كلّها ومن تعاليمها. هكذا يقوم البعض بتفسير لكلّ ما يمكنني قوله وبتصنيفه على أنّه جزء من آليّة تحاول خنق الإنسانيّة، وتنكر عليه تصنيفه على أنّه محاولة حقيقيّة، صادقة، فكريّة، لفهم العالم والإنسان.

هل يكفي أن يكون المرء دائمًا على حقّ؟ أعني، غالبًا ما تحتاج القرارات الصحيحة إلى الأوقات المناسبة والأشكال المؤاتية لتقديمها. إنّ اللحن يصنع الموسيقى، كما يقال.

نعم، وأنا هنا منفتح على كلّ نقد. كما أنّنا نحاول إنجاز الأمر بشكل أفضل، وذلك بتعميق النقاش مع الأساقفة، ومع رؤساء الرهبانيّات، لنجد الحلول الصحيحة. لكن، هذا لا يلغي الاحتمال أنّه علينا أحيانًا اللجوء إلى تدابير صارمة وغير شعبيّة.

أنت رئيس لمجمع الإيمان، ولست كاهنًا عاديًّا. هل من الممكن القبول، بأن يقوم كاهن مسؤول عن الشباب بتقديم شرح أو حجج مختلفة لما قد يقدّمه رئيس مجمع الإيمان؟

بالطبع. في كلّ الأحوال، عليه تقديم شروحات وحجج مختلفة، وإلاّ لما تمكّن من التواصل مع الشباب. هناك نظام خاصّ بالأجيال، وعلينا اللحاق به. إنّ الإيمان هو طريق، وعلى هذا الطريق، علينا التعرّف على مراحل مختلفة. ما يجب أن يقيّدنا، هو الحرص على أن لا نقدّم آراء خاصّة بنا، أو أن نُجرّ لما قد تعتقده الأغلبيّة أنّه الصحيح، ولكن أن نرتبط نحن المؤمنين والكهنة بإيمان الكنيسة، وأن نحاول أن نترجمه بشكل صحيح في الأطر المعطاة.

هذا يعني أنّ الكهنة الذين يعملون خارجًا في الإرشاد الروحيّ، قد يغفر لهم إذا ما

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

تلفّظوا بتعابير قد لا تعجبكم في محاولة تفسيرهم لإرشادات الكنيسة اللاأخلاقيّة حول الجنس؟

نعم بالطبع. عندما تكون الأبعاد الأساسيّة الصحيحة موجودة، هذا هو المهمّ. ليس باستطاعة أيّ إنسان أن يجد الطريقة المثاليّة فورًا.

هل من المسموح لكاردينال أن يتكلّم عن الجنس؟

بالطبع، نعم. عليه أن يتكلّم دائمًا عن كلّ ما هو إنسانيّ. والجنس ليس مطبوعًا بوصمة الخطيئة، ولكنّه وبشكل مبدئيّ، وقبل كلّ شيء، قدرة على الخلق. في مهنتي الحاليّة، عليّ الكلام عليه وبشكل مستفيض، مع أنّني أحاول أن لا نختصر المسيحيّة أو الأخلاق بالوصيّة السادسة، إنّما أسئلة المسيحيّة، والتي تتوارد إلينا هنا من الأنحاء كلّها، ترغمنا على التعامل بشكل مستمرّ، مع هذا الجانب من الوجود الإنسانيّ.

لقد وصفت مرّة الجنس بأنّه نوع من المنجم المحرِّك، والقوّة المسيطرة في كلّ مكان، وكأنّنا نلحظ هنا موقفًا سلبيًّا من الجنس.

كلاّ، ليس الأمر على هذا النحو، ولو صحّ، لكان هذا يتناقض مع إيماننا الذي يقول إنّ الإنسان، رجلاً أو امرأة، هو مخلوق من الله بكامله. إنّ الجنس هو بعيد عن أن يكون قد وجد أوّلاً بعد الخطيئة، لكنّه في الواقع جزء من تخطيط الله للخليقة. فالذي خلق الإنسان على صورة الرجل والمرأة، جعلهما يتوالدان من خلال الجنس، وهو ما يعني أنّ هذا هو جزء من التخطيط الأوّليّ للخليقة، وبذلك، هو جزء من مواهب الإنسان. عندما قلت ما ذكرته أنت للتوّ، أردت أن أعني، أنّ القوى الكبيرة، إذا انفلتت من وسطها الإنسانيّ، بإمكانها أن تتطوّر لتصبح أكبر قوّة مهدِّمة. إنّ الجنس يصقل كلّ جسدانيّة الإنسان، رجلاً أو امرأة، وخصوصًا لأنّه قوّة كبيرة، ولأنّ الإنسان بدونها لا ينضج، ولا يصبح ذاته. لذلك، هي تطبع الشخص في الأعماق، وهي، إذا ما انفلتت من الوحدة المتكاملة للإنسان، فهي بالطبع تمزّقه وتقضي عليه.

لكن، علينا أن نعترف، بأنّ صورة الجنس بوصفه قوّة عظمى مسيطرة على يوميّاتنا، تتوضّح أكثر فأكثر.

الظاهر أنّ هذا الانفلات ممّا يشكّل كلّيّة الشخص، ومن الحضور المشترك للرجل

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

والمرأة، أصبح ممكنًا على نحو لم يعرف من قبل، خصوصًا من خلال التقنيّة ووسائل الإعلام. باستطاعة المرء الآن أن يعرض الجنس وكأنّه سلعة مجرّدة.

لكنّ هذا موجود منذ ٢٠٠٠ سنة...

نعم، بالتأكيد، لكن، أن أتمكّن من شراء الجنس في متجر، بشكل مباشر، أو أن أدرك الأشخاص، من خلال تدفّق الصور المعنيّة، وكأنّهم أجسام جنسيّة، وليسوا أشخاصًا بحدّ ذاتهم، إنّ هذه الإمكانيّة تطوّرت بشكل تصاعديّ من خلال التسويق. احتمال تسويق الجنس، وكأنّه سلعة، وتسويقه بكمّيّات هائلة، يوجِد فرصًا لسوء الاستعمال، وللتغرّب عن الذات، بشكل يتجاوز كلّ ما هو معروف حتّى الآن.

كان هناك، في القرون الوسطى، بيوت دعارة مفتوحة للجميع، حتّى إنّ الكنيسة المحلّيّة كانت تساهم في إدارة بعضها.

هناك مقطع عند القدّيس أوغسطينوس، يتساءل فيه عن الحلّ؟ ومن ثمّ يجيب، بأنّه وفق الطبيعة التي خلق عليها الإنسان، من مصلحة الدولة المنظّمة أن تُجري الأمور بشكل منظّم. بهذا الصدد، يمكننا هنا العودة إلى تأمّلات أحد آباء الكنيسة الكبار، الذي كان على درجة كافية من الواقعيّة، ليرى أنّ الإنسان حاول دائمًا في هذا المجال، وأنّه كان دائمًا مهدَّدًا، حتّى إنّ معتقدات بأكملها تعرّضت للانزلاق. لكنّني أعتقد، أنّه في الوقت الراهن، هناك مخاطر محدّدة، لم تكن موجودة في الأزمنة الماضية.

هل من يعيش وفق تعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة، فيما يتعلّق بالجنس، محصّن ضدّ التجارب؟

لا يمكننا أن نختصر الأمور على هذا الشكل، لأنّ الإنسان لا تنتهي صناعته في جوانبه كلّها ببساطة، ولكنّه، كما استنتجنا دائمًا، هو على الطريق، ولذلك هو دائمًا معرّض للتجربة. عليه أن يسعى دائمًا ومن جديد، ليحقّق ذاته. ببساطة، هو لا يصل أبدًا. هو دائمًا حرّ، والحرّيّة لم تصل أبدًا إلى نقطتها النهائيّة. أظنّ أنّ من يعيش وسط جماعة مؤمنة وحيّة، حيث يتساند الأعضاء معًا، وحيث يجدون فيها التشجيع عبر المساندة المتبادلة، يكون قادرًا على الحياة الزوجيّة وبشكل جيّد.

هل لديك في منصبك خوف من بعض الأسئلة، لأنّها، وبشكل ما، لا يمكن الإجابة عليها؟

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

قد تكون كلمة خوف ليست بالكلمة الصحيحة. لكنّنا، في الواقع، نواجه دائمًا مشاكل من المستحيل إيجاد الأجوبة الصحيحة عليها، وفي وقت قصير، وخصوصًا الأسئلة التي تدور في مجال الأخلاق، الأخلاق الطبّيّة بنوع أخصّ، كما في مجال الأخلاق الاجتماعيّة. مثلاً، واجهنا سؤالاً طُرح علينا من بعض المستشفيات الأميركيّة، السؤال فحواه ما يلي: هل من الملزم تأمين الغذاء والشراب للمرضى في حالة الغيبوبة، التي لا أمل في شفائها! إنّ هذا السؤال فائق الأهمّيّة بالنسبة إلى المسؤولين، وهذا انطلاقًا من اهتمامٍ حقيقيّ، وإنه من الضروريّ اتّباع سياسة موحّدة بين المستشفيات. اضطررنا في النهاية، وبعد دراسات طويلة إلى أن ننصحهم بأن يجدوا الحلّ على الصعيد المحلّيّ أوّلاً، لأنّنا لم نصل بعد إلى يقين كامل حول هذا الموضوع.

بالتحديد، في مجال الطبّ، تتولّد باستمرار احتمالات جديدة، تفتح الأبواب على حالات قصوى غير معروفة سابقًا، حيث لا يمكن توضيح تطبيق المبادئ بشكل ظاهر وبسيط. لا يمكننا أن نقدّم التطمينات بسحر ساحر. كلّ ما نستطيع النصح به، هو أن يبادروا إلى المحاولة فيما بينهم، وهكذا من خلال الخبرة، نترقّى بالمعرفة اليقينيّة من مستوًى إلى آخر.

ولكنّك تعتقد بأنّه يجب أن يكون، أو سوف يكون هناك أجوبة؟

ليس من الضروريّ أن يكون هناك دائمًا أجوبة صالحة، على صعيد العالم. كما أنّنا نحاول أيضًا، أن نلتزم حدودنا، وأن نحجم عن الإجابة، عندما تكون مستحيلة. ولكن، وكما قلنا في الأمثلة المذكورة سابقًا، ليست الحال أنّنا نريد الإجابة في كلّ مكان، ففي الواقع، الأسئلة تطرح نفسها وبقوّة، وهناك حاجة جماعيّة لعلامات إرشاد. على أنّنا لا نجد الأجوبة من خلال نظام ضاغط، يحتّم الإجابة على كلّ سؤال، بل، على العكس، من خلال الكثيرين من الناس المعرّضين لحالات قصوى، والذين يدركون أنّهم يحملون المسؤوليّة بالاشتراك مع الآخرين.

لم أتمكّن، حتّى الآن، من فهم هذا الطريق، أو وسائل العمل التي نعمل بها، لنواجه أسئلة معقّدة بهذا الشكل، وعلى ازدياد مستمرّ.

من ناحية أخرى، هناك مبادئ أساسيّة. وفي هذه الحالة، المبدأ هو: الإنسان هو إنسان منذ البداية وحتّى النهاية. ونحن ليس لنا الحقّ بالتصرف بالحياة الإنسانيّة، ولكن،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

علينا احترامها بوصفها هبة، والحفاظ على كرامتها حتّى النهاية. إذًا، هناك مبادئ محدّدة موجودة، ليست كثيرة، إنّها بسيطة، ولكنّها أساسيّة. من خلال الاحتمالات الطبّيّة والتقنيّة، تتوّلد حالات قصوى، يتساءل عندئذٍ الإنسان كيف يمكننا تطبيق هذه المبادئ عليها بشكل صحيح. أوّل ما نحتاجه هنا هي المعلومات. على الأطبّاء أن يقولوا لنا ما هي حدود الممكن هنا، وما هي المشاكل التي قد تطرأ.

لنأخذ هنا مثل الشراب والطعام. نحن أمام وضع، حيث لم يعد بالإمكان معالجة المريض بالوسائل الطبّيّة. البعض يقول: إنّ حقن المريض، أو إطعامه يسبّب له المزيد من الألم. والبعض الآخر يقول: إنّ تركه يموت عطشًا غير إنسانيّ، إذ يجفّ جسمه، وهذا هو العذاب الكبير. هنا موقفان متعارضان تمامًا. علينا إذًا، محاولة الحصول على المعلومات الأساسيّة. بالطبع إنّ هذا يحتاج إلى معرفة يقدّمها عدد واسع من الأطبّاء. عندما تبدأ المعلومات بالتقاطع والتلاقي نوعًا ما فيما بينها، عندئذٍ يمكننا فقط أن نتساءل عمّا يتّفق هنا مع المبدأ الأساسيّ، وكيف يمكن تطبيقه بشكلٍ صحيح. لكن، بعد أن تتكوّن تجارب مشتركة تدريجيًّا، حيث المعلومات صحيحة من جهة، ومن جهة أخرى، يكون قد تمّ احترام المبدأ الأساسيّ، عندئذٍ يمكن للتجربة أن تتحوّل إلى إعلان مؤكّد، ويمكنني القول إنّ المبدأ تمّ تطبيقه في هذه الحالات المعيّنة بشكل صحيح.

هل من الممكن أن تكون النصوص القديمة، وفي محور الحديث عن مشاكلنا الحديثة، ذات منفعة؟ أعني الآن: نصوصًا من آباء الكنيسة، نصوصًا من القدّيسين.

بالإمكان استعمالها بالمعنى الجوهريّ، أي أن تنير لنا المبادئ. مثلاً ماذا يعني احترام الإنسان، احترام إرادته، ماذا يعني الألم، لكن، بالطبع لا يمكننا استعمالها للجواب على السؤال بالتحديد. إنّ هذه النصوص مهمّة، لأنّ أجيالنا الحاضرة فقدت المعنى الإيجابيّ للألم. وهنا أعتقد بأنّه، في الحقيقة، هناك الكثير الذي ينبغي أن نتعلّمه من جديد.

إنّنا نتكلّم الآن عن النصوص القديمة. هل صادفت في أقبية مجمع الإيمان أسرارًا، وهل هناك شيء لا يمكن أبدًا الإفصاح عنه؟

إنّ «أقبية مجمع الإيمان» هي أرشيفنا، لكي نُعرّفها بالتعريف الصحيح لها، وليس لدينا أيّة أقبية أخرى. وهنا أعترف بأنّني نادرًا ما أستعمل الأرشيف، لسبب بسيط، هو

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

ضيق الوقت. لذلك، لم يكن بإمكاني أن أقع على أيّة أسرار مميّزة. الواقع، هو أنّ نابوليون أخذ منّا أرشيفنا. قسم من المحفوظات تمّ إعادته، أي جزء منه فقط، وهو ما يعني أنّه بعيد عن أن يكون كاملاً. وبشكلٍ عامّ، هو بعيد عن أن يكون له الأهمّيّة التي يتصوّرها الناس. منذ مدّة غير بعيدة، عمل أستاذ إيطاليّ – يتّصف بالليبراليّة إلى حدٍّ بعيد – على عددٍ من المحاكمات المختلفة، وقد أقرّ بأنّ ظنّه قد خاب. فعوضًا من أن يكتشف صراعًا بين الضمير والقوّة، كما كان يتوقّع، لم يجد إلاّ حالات إجراميّة عاديّة جدًّا. وسبب ذلك، أنّ مجمع التحقيق الرومانيّ، كان محكمة ذات عقوبات رحيمة نوعًا ما. وهو ما دفع بالناس، الذين كان عليهم أن يمثلوا أمام محكمة مدنيّة، إلى اختراع عاملٍ دينيّ ما، كالسحر أو التنبّؤ، ليحوّلوا إلى محكمة لجنة التحقيق بالإيمان، التي كانوا إجمالاً يتوقّعون منها أحكامًا متسامحة نوعًا ما. لكنّ كلّ ما أعرفه حول هذا الموضوع، لم أدرسه شخصيًّا في المصادر، إنّما تواتر لي بالسمع.

إنّ القضايا البارزة، الموجودة في هذا الأرشيف، تعرفها الإنسانيّة كلّها تقريبًا، أمّا ما تبقّى، فهو أمور لا تهمّ سوى المتخصّصين. إنّ هناك، في هذا المجال، أسرارًا لا يمكن الإفصاح عنها، لأنّها عوملت وكأنّها سرّ اعتراف، وبطبيعة الحال، تبقى عندئذ مكتومة. إنّ هذه الملفّات مخبّأة في خزائن خاصّة، ولا يمكن إظهارها للعلن.

إذا كانت تقع في حمى سرّ الاعتراف، فلماذا توجد أصلاً بشكل مكتوب؟

لم تكن اعترافًا بالمعنى الضيّق للكلمة. هي بالأحرى أمور تعدّ من نطاق السرائر الشخصيّة. من أجل ذلك، تحاط بالنوع نفسه من السرّيّة. إنّني أعني، أنّ الأمر يختلف، عندما يدافع شخصٌ ما عن انحراف لاهوتيّ، عندئذ بإمكاننا الحديث، بشكل علنيّ، على خلاف الأمور المتعلّقة بالمشاكل الشخصيّة العميقة والأخلاقيّة.

أتوقّع أن لاتكون اعترافات أشخاص عاديّين، إنّما هي لأقوياء التاريخ.

إنّني أعرف القليل حول هذا الموضوع. ما زال لدينا حتّى اليوم شعبة خاصّة بالتأديب، تتناول جنحًا معيّنة ارتكبها رجال دين، تنحصر معالجتها في نطاق ضيّق، ويمنع نشرها، حفاظًا على الأفراد. أمور مماثلة تدور هنا.

ألا ترقد في هذا الأرشيف تنبّؤات سرّيّة مشهورة؟

ما أعرفه هو تنبّؤات فاطمة، ولا أدري إذا كان لدينا غيرها.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

من يحقّ له الاطّلاع عليها؟

يحقّ للبابا ولرئيس مجمع الإيمان الاطّلاع على تنبّؤات فاطمة، أمّا الآخرون فيستطيعون ذلك، بعد إذن خاصّ من البابا شخصيًّا.

هل عدد الأشخاص، الذين اطّلعوا على هذه الأسرار، معروف ومحدود؟

من المؤكّد أنّه عدد محدود، فهو لا يتجاوز ثلاثة أو أربعة أشخاص.

لقد تناولت مرّة تنبّؤات فاطمة، قائلاً: إنّها تتطابق مع ما يذكّر به يسوع مرارًا، حين لا يتردّد بالقول: «إن لم تهتدوا تهلكوا كلّكم». هل كان للتنبّؤات وقعٌ عنيف عليك؟

لا.

لماذا؟

لأنّها لا تتجاوز في أيّ مكان ما تتضمّنه الرسالة المسيحيّة.

لكن، على ما أعتقد، فيها حديث عن نهاية العالم؟

لا يمكنني إضافة أيّ شيء هنا. على كلّ حال، لم يصادفني أيّ فزع مروّع.

ومعطيات محدّدة للزمن؟

كذلك الأمر. لكنّني لا أرغب هنا في أن أدخل في أيّة تفاصيل أخرى.

يقال أحيانًا: إنّه من الصعب تصوّر البابا يوحنّا بولس الثاني، من دون الكاردينال راتسنجر، كذلك هي الحال بالنسبة إلى الكاردينال راتسنجر. أنت تعدّ اللاهوتيّ النابغة، إلى جانب الفيلسوف، لكن لا أحد يعرف ما هو هدف البابا، وما هي تصوّرات راتسنجر. لقد طبعت هذه البابويّة إلى حدٍّ كبير، ومن دون هذه الصلة الخاصّة بين راتسنجر وفويتيلاّ، لتطوّرت الكنيسة باتّجاهات مختلفة، في نهاية الألفيّة الثانية.

من الطبيعيّ أن لا أتمكّن من الجواب على سؤالٍ كهذا. لكنّني أحذر من إعطاء دوري حجمًا أكبر من حجمه الحقيقيّ. بالتأكيد دوري مهمّ جدًّا، كما أنّ للبابا ثقة بي، وقد ناقشنا دائمًا الأسئلة العقائديّة المهمّة معًا، وما زلنا نفعل. بهذا المعنى كان لي كلمة في تعاليم البابا، ساهمت إلى حدٍّ ما بها، وهو ما كان له بالتأكيد تأثيره على ملامح البابويّة. لكنّ للبابا، وبكل تأكيد، خطّه الخاصّ جدًّا به.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

كان قد ابتدأ قبل أن آتي بهذه اللوحة الثلاثيّة الدرفات – رسائله الدوريّة الثلاث حول مخلّص البشر، وحول الروح القدس، وحول الرحمة الإلهيّة. أضف إلى ذلك قطاع الأخلاق الاجتماعيّة، أعني الرسائل الدوريّة الثلاث، التي خصّصها لتعاليم الكنيسة الاجتماعيّة. إنّها أمور نابعة من أعماق تجربته الحياتيّة الخاصّة، من أعماق فلسفته الخاصّة. كما أنّ الدافع المُلحّ لتوحيد الناس، الذي حرّكه، هو شيء متجذّر في أعماق روحه، ومتأصّل في أعماق شخصيّته. وقد يكون التعبير «متجذّر» تعبيرًا لا يفي الديناميكيّة التي عملت وتحرّكت في شخصه حقّها. من جهة أخرى، طبيعيّ أنّه تبادل معي الآراء حول الأسئلة الكبيرة المطروحة، لكنّ النقاش لم يكن محصورًا بي فقط. هنا تبلور توافق عميق فيما بيننا، سوف يحكم المسيحيّة والناس عمومًا، يومًا ما، إذا كان لهم من منفعة.

هل كان هناك من تباين يومًا ما بين البابا وحارسه للإيمان؟ هل حدث أن عارضت البابا يومًا ما، أو تمنّعت عن العمل معه؟

لم يكن هناك أبدًا تباين بالمعنى الحقيقيّ. لكنّه من الطبيعيّ أن يصحّح أحدنا الآخر. عند تبادل المعلومات، كان يقول أحدنا للآخر: إنّه ليس أكيدًا من صحّة معلومة ما، أو أن يقارب أحدنا مسألة ما بمنطق مغاير عن الآخر. لكن، لم يكن هناك أبدًا تباعد بالمعنى الحقيقيّ، كما أنّني لم أتمنّع يومًا عن العمل معه.

كيف يجري العمل بينكما في الواقع؟ هل تلتقيان كثيرًا؟

هناك أوّلاً اللقاءات المفروضة دوريًّا. على رئيس مجمع الإيمان أن يحضر مساء كلّ جمعة إلى جلسة عند البابا، ينقل إليه فيها نتائج اجتماع مجمع الكرادلة (ينوب عنه مرّة في الشهر السكريتير، يحدث أن تلغى الجلسة أحيانًا). هذه التدابير روتينيّة، نُطلع من خلالها البابا على نتائج أعمالنا، وتكون الملفّات التي نعمل عليها بين يديه. إنّنا نناقش ما توصّلنا إليه ويتّخذ البابا عندها القرارات، كما أنّه، في الحالات الطارئة، قد نلجأ إلى اجتماعات تحدَّد عند الحاجة.

كان البابا بولس السادس يحتفظ بنهار الثلاثاء نهار عطلة، وهو ما اعتمده أيضًا البابا الحاليّ. إنّه غالبًا ما يلتقي في هذا النهار، قبل ساعة أو ساعة ونصف من الغداء، بمجموعة يناقش معها، غالبًا ما يستضيفها إلى مائدة الغداء، ويمتد النقاش من الثانية

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

عشرة إلى الثالثة. إنّ هذه اللقاءات غالبًا ما تكون منتظمة وهي تشكّل النوع الثاني من الاجتماعات المفروضة. وهنا تكون الحلقة أوسع نوعًا ما، في حين أنّ اجتماع نهار الجمعة محصور بين البابا ورئيس مجمع الإيمان.

البابا يدعو حوله، ووفقًا للحاجة، فريق نقاش متنوّعًا، قد يكون أحيانًا مجموعة من الكرادلة التابعين لبلد واحد – حيث يقوم أوّلاً الأشخاص منفردين بتوضيح مواقفهم وما يتبعها من نقاش. ما يعني أنّ البابا يريد دائمًا أوّلاً الاطّلاع على المعلومات، لكي يفهم حجج الفرقاء إذا ما تضاربت، ولكي يقترب شيئًا فشيئًا من القرارات الصحيحة. إذًا المستويان الأساسيّان للّقاء هما من جهة، لقاء الجمعة، ومن جهة أخرى المحادثات التي تجري ظهر الثلاثاء.

هل باستطاعتك أن تذكر لنا مثلاً ما؟

هذا يشمل المواضيع كلّها، التي تحوّلت فيما بعد إلى قرارات. ابتداءً من مشكلة لاهوت التحرّر، من السؤال حول دور اللاهوتيّين في الكنيسة، من الأسئلة المطروحة حول البيوتيك وإلى آخره، ببساطة، كلّ المواضيع التي يعنى بدراستها مجمع الإيمان.

عندما تدور الأمور حول مشاريع كبرى، يتمّ عندها تبادل المستندات بشكل منتظم. مثلاً، عندما يتمّ تحضير منشور بابويّ، نناقش أوّلاً كيفيّة صياغته. عند الانتهاء من الصياغة الأولى، نقوم بمناقشة المسوّدة معًا. إنّ المواضيع الكبرى لا نحملها إليه أبدًا بشكلٍ مفاجيء، ولكنّنا نناقشها بشكل معمّق، وعلى مراحل عديدة. هكذا، بإمكانه أن يراقب المراحل، ويتدخّل في أيّة لحظة.

هل يعود لاحقًا إلى السؤال، للاستفسار عن مراحل تقدّم مشروع ما؟

نعم، إذا لم نطلعه نحن.

بوصفك رئيس دولة، يمثّل البابا «الأمير المطلق» الأخير في أوروبّا، ورئيس كنيسة، وخليفة للرسل، هو أعلى جهة مختصّة بالإيمان. تعرف أنّ الفاتيكان يوصف بأنّه طاعن في السنّ. وهو كناية عن حلقة من المشايخ المترّفعين المنشغلين بأنفسهم، والبعيدين كلّ البعد عن هموم الجماعة، وحاجاتهم في الخارج. وكمثل على ذلك، هو البطء الفاتيكانيّ، والذي هو سبب محاولة الفاتيكان العابثة للّحاق بالزمن. كيف ترى الفاتيكان وأنت المراقب من الداخل؟

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لنميّز الآن دولة الفاتيكان، حيث البابا هو بالفعل رئيس الدولة. إنّ هذا صحيح من الناحية النظريّة، فهو يملك كلّ الصلاحيّات لوحده، لكنّه عمليًّا، وفي الواقع، يكاد لا يمارس هذه الصلاحيّات أبدًا. وعلى الرغم من أنّها دولة صغيرة جدًّا، يبقى هناك مهمّات إداريّة يديرها ما يسمّى (Governatorato)، وهو ما يعني حكومة خاصّة بالفاتيكان. كما أنّ الأمور لم تعد تجري على الشكل القديم الذي يتصوّره البعض، فقد أصبح لدينا الآن ممثّلون عن المساعدين.

أمّا القسم الثاني من سؤالك: فصحيح أنّه أعلى سلطة مختصّة بالمحافظة على الإيمان، لكنّه لا يقرّر أيضًا بشكل مطلق، إنّما بشكل رئيسيّ، بعد أخذه برأي لجنة المطارنة. صحيح أنّ الفاتيكان يعمل بطريقة بطيئة، لكن يعود ذلك إلى أنّ هناك العديد من اللجان العليا، التي يتوجّب المرور بها، ولأنّ ذلك يتطابق وواجب العناية والدقّة. من جهة أخرى، إنّ البطء مرتبط بقلّة عدد الموظّفين، حيث يحدث العديد من الأمور المتوازية في المكان وفي الوقت نفسه، فيتعذّر دفع الأمور في مسار أسرع. لكنّني، من جهتي، لا أعتبر هذا نقيصة، إنّما، وخصوصًا في أمور كهذه، ولأنّها إدارة مسؤولة عن شؤون الكنيسة جمعاء، تكون السرعة في غير مكانها والصبر أداة جيّدة. فالعديد من المشاكل يجد حلولاً له من خلال الزمن، وعبر الإحجام عن التدخّل السريع والدائم.

صحيح أنّ حلقة الكرادلة هي مجموعة من الرجال المسنّين، أو بالأحرى الذين تخطّوا ربيع العمر. حسنة هذا الأمر أنّه لا يُصار إلى التهوّر، عند اتّخاذ القرارات العامّة، وأنّهم يحملون معهم الكثير من التجربة الحياتيّة، التي غالبًا ما تجعلهم متسامحين. لكنّه من الصحيح أنّه علينا الانتباه، كي يبقى عنصر الشباب ممثّلاً. نحن نتبع القاعدة التي تقضي بأن لا يتجاوز عمر المساعدين الخامسة والثلاثين، حين ينضمّون للعمل معنا، وأن لا يسمح ببقائهم إلى ما لا نهاية، بشكل يُدخل معه متوسّط عمر الموظّفين وجهات نظر جديدة ومختلفة.

يُقال إنّ على المرء في الفاتيكان أن يعرف أوّلاً كيف تسير لعبة القوى، ومن ثمّ أن يتقن هذه اللعبة.

من الممكن أن يكون هذا الرأي صحيحًا، بمعنى أن يُصار هنا أيضا إلى رسم سياسات معيّنة، بهدف تبوّؤ مراكز، وأنّ على المرء أن يجيد معرفة الجهة، التي عليه أن يقف عندها، في الوقت المناسب، كي لا يقع فجأة خارج اللعبة. إنّها أشياء تحدث، لأنّنا،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

وببساطة، جماعة من البشر. إنّني وصلت إلى هنا بصفتي كاردينالاً، لذلك، لم أحتج إلى أيّة لعبة قوًى، أو إلى السؤال عن مركز ما. لذلك هذه الأمور لا تهمّني أبدًا.

هل هناك ما يزعجك في الفاتيكان.

أعتقد بأنّه علينا التخفيف من الإدارة، على الرغم من أنّني لا أمتلك أيّ تصوّر محدّد حول هذا الموضوع. إنّ الدوائر المنفردة ليست مطعّمة بكثير من العناصر، وإذا ما قارنّاها بالكنيسة العالميّة بأجمعها، قد تكون أيضًا إدارة صغيرة. على أنّ السؤال جائز، إذا كان التخفيف من البيروقراطيّة شيئًا ممكنًا. لكنّني، بالإجمال، راضٍ عن نمط حياتنا في الجمعيّة. ما يزعجني شخصيًّا هو كثرة العمل. فعلى ما أعتقد، من غير الواقعيّ أن يتمكّن أحد من تنفيذ المطلوب بشكل جيّد. والسؤال، الذي أطرحه على نفسي، هو: كيف أقوم بواجباتي في الجمعيّات الأخرى، وأحافظ، مع ذلك، على كوني إنسانًا، وعلى علاقاتي الشخصيّة.

ما هي الجمعيّات التي أنت عضو فيها؟

هي خمس جمعيّات، ومجلسان للاستشارة، ولجنة (أميركا اللاتينيّة). لكنّ جمعيّة المطارنة والإعلام وحدها تتطلّب منّي عملاً دائمًا، كما أنّ مجلس الوحدة، ومجلس الكنائس الشرقيّة، ومجلس التربية والشعائر، تتطلّب أيضًا عملاً أقلّ، ولكنّه ملحوظ. أمّا الجمعيّات الأخرى، فهي لا تتعبني. هذا يكفي ليشكّل عبئًا كافيًا.

لقد شبّه المطران مارسينكوس الفاتيكان مرّة بالقرية المليئة «بنساء الفرن الثرثارات»، وعنى بهذا القول: يكفي أن يجتمع ثلاثة أو أربعة رهبان حتّى ينتقدوا الآخرين.

هذا لا يحدث أبدًا في حضرتي. لكن من الطبيعيّ، أن تكثر الثرثرة، حيث يعيش عدد كبير من الناس بتشابك وتداخل معًا. من الطبيعيّ أنّ هذا سيّئ، ولكنّني أرى هنا حدودنا الإنسانيّة، التي من غير الممكن تجاهلها. هنا نودّع، بشكل نهائيّ، الصورة المثاليّة للكاهن. وعلى ما أعتقد الخجل مفيد لنا، عندما نلاحظ أنّنا لا نختلف كثيرًا عن الناس العاديّين، وأنّ القوانين التي تسود، حيث يجتمع العديد من البشر، تظهر أيضًا، عندما يلتقي العديد من رجال الكنيسة. على كلٍ منّا محاولة العمل بمفرده ضدّها، كما علينا دائمًا، وبشكلٍ مستمرّ، تربية ذاتنا، إنّه واجب علينا؛ لكنّني أؤمن بأنّه من المفيد جدًّا أن نخلع عنّا كلّ غرور، وأن نرى بوضوح أنّنا مجرد ناس كالآخرين.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الخلاصة

إنّك لم تقدّم أبدًا وصفات سهلة التطبيق. كما أنّك، ومنذ عدّة عقود، تقف معارضًا للاتّجاهات العامّة السائدة. ألا تتساءل أحيانًا، إذا كان هذا التصرّف صحيحًا، وإذا كانت العلامات والإشارات التي تقدّمها هي الصحيحة، وإذا ما كانت عباراتك تلائم العصر؟

من المؤكّد أنّ على المرء أن يطرح على نفسه هذه الأسئلة كلّها. لكنّني أشكر الله على أنّ هناك آخرين يمكنهم التعبير بشكلٍ مختلف، وبإمكانهم القيام بما لا أستطيع القيام به. يتعلّم المرء أن يدرك حدود إمكاناته، ويصبح أكثر تواضعًا. يدرك أنّها مجرّد مساهمة تقف إلى جانب الكثير من المساهمات الأخرى، وأنّ عليه أن يقف بجانب كلّ الذين يفكّرون، والذين يحملون المسؤوليّات، وخصوصًا إلى جانب أصحاب الكاريزما، الذين يلهبون الحياة. بهذا المعنى، من الطبيعيّ أن أجد أنّ ما أقوم به له معنًى فقط، من خلال ترابطه بنواحٍ عديدة ومختلفة أخرى، وبأنّ للنقد الذاتيّ دورًا مركزيًّا.

إذا طُلِبَ منك أن تصطحب معك على جزيرة كتابين فقط، أجبت مرّة بأنّك سوف تختار الإنجيل واعترافات القدّيس أوغسطينوس. ما هي الاعترافات التي يُمكن أن نتوقّعها من الكاردينال راتسنجر؟

ليس لديّ اعترافات مهمّة، كالتي قدّمها القدّيس أوغسطينوس، والتي بوساطتها سلّط الضوء على كلّ الوجود المسيحيّ، بمجرّد أنّه عرض السؤال وناقشه، هذا السؤال الذي تدور حوله حياته والطريق التي سلكها. بإمكاني أن أُخلِّف ورائي مقتطفات متواضعة. لا أدري إذا كان لها من أهمّيّة ما للإنسانيّة، أو إذا كانت إفادتها تبقى محصورة. في اللحظة الحاضرة، إنّني أترك الحكم عليها للزمن.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هل هناك أيّ حدث وددت، لو استطعت، أن تحذفه من ماضيك؟

لا، ليس هناك ما أتمنّى حذفه. وددت، لو كان هذا ممكنًا، أن أقوم بكثير من الأمور على نحوٍ مختلف، لأنّنا مع التطوّر في العمر نرى بعض الأحداث من وجهة نظرٍ جديدة.

غالبًا ما يرافق المرء الانطباع، أنّه يريد المحافظة على شيء ما، مثل الوالد الذي يتعب جاهدًا لمنع تبديد الإرث، إن لم يكن للأولاد، الذين، وعلى ما يبدو، لا يقدّرون، أو يجيدون استعمال ما لديهم، فعلى الأقلّ ليبقى هذا الإرث جاهزًا للأحفاد، محرّرًا من كلّ دين. عندما تعود، بالنظر إلى عملك، حارسًا لمجمع الإيمان، يظهر أنّك وقفت أيضًا حاجزًا مانعًا، بوجه عددٍ من التطوّرات السيّئة، وهو ما بقي غير ملحوظ من الرأي العامّ.

هذا التشبيه: أن أحافظ على شيءٍ ما أيضًا للأحفاد، أجده معبّرًا جدًّا. ما يهمّني فعلاً هو، أن لا يضيع منّا هذا الكنز، الذي هو الإيمان، بكلّ أنواره المضيئة، وكلّ ما نبت حوله في تاريخنا من جمالٍ وخيرٍ. من الجميل جدًّا أن تبقى رؤيته والدروب إليه سهلة. أمّا إذا عدنا إلى رصد حسابات النتائج، فبإمكاني القول، إنّني مقتنع، بأنّنا، بقراراتنا حول لاهوت التحرّر، أو في مجال البيوئتيك، أو مع التعليم المسيحيّ، كان لنا نوع من المساهمة في تطوّرات، في خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة. في كلّ الأحوال، ساهمت الاتّصالات بمجامع الأساقفة في قيام تفاهم متبادل، كما ساعدت هذه الاتّصالات الأساقفة أيضًا على التعاون فيما بينهم، وعلى التعاون مع روما. من هنا كان ممكنًا تفادي وجهات النظر الأحاديّة، للتركيز دائمًا على الأمور الأساسيّة، وصولاً إلى تحديد نقاط مراكز الثقل.

في إحدى الوثائق الموقّعة منك، ذكّرت بتأنيبات بولس الرسول، حيث يقول: «اكرز بالكلمة واعكُف على ذلك في وقته، وفي غير وقته، وحاجج ووبّخ وعظْ بكلّ أناة وتعليم، فإنّه سيأتي زمان لا يحتملون فيه التعليم الصحيح، بل وفق شهواتهم يكدّسون معلّمين فوق معلّمين بسبب استغلاق آذانهم، فيصرفون مسامعهم عن الحقّ، ويعدلون إلى الخرافات. أمّا أنت، فتتيقّظ في كلّ شيء، واحتمل المشقّات، واعمل عمل المبشّر وأوفِ خدمتك»[٣].

(٣) الرسالة الثانية إلى تيموتاوس.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لا أريد أن أُحمّل نفسي حجمًا لا طاقة لي عليه، لكنّني أعتبر، أنّه، في هذا الاستشهاد، يتّضح بقوّة ما أراه معيارًا لي في هذا الزمن.

هل ما زال لديك سؤال، هو بمنزلة ملك الأسئلة؟ وإذا قُدِّر لك أن توجّه سؤالاً حرًّا إلى روح الكون، فماذا يكون؟

السؤال الذي أتمنّى أن أطرحه هو السؤال نفسه، الذي يطرحه كلّ فرد: لماذا العالم هو على هذا النحو؟ وما يعني كلّ هذا الألم فيه، ولمَ الشرّ فيه قويّ إلى هذا الحدّ، إذا كان الله في النهاية، هو القادر على كلّ شيء.

رجلٌ بقامتك، بتاريخك، بنظرتك الشموليّة، بطريقتك في التفكير والعمل والإيمان، من الممكن أن لا يُنصّب مثله مرّة أخرى رئيسًا لمجمع الايمان. معك لا ينتهي فقط قرن، إنّما أيضًا جيل ترتبط جذوره بالقرن التاسع عشر. لقد قلت مرّة: «إنّ الجديد آتٍ على الطريق». كيف تنظر إلى موقعك في التاريخ؟ وباعتقادك كم ساهمت بتشريع الأبواب على الجديد؟ وهل هذه مهمّة من سوف يخلفك؟

ربّما أنظر إلى كلّ هذا بنسبيّة أكبر وأقول: إنّه علينا الانتظار لمعرفة قياس من سيأتي لاحقًا، علينا الانتظار، وسوف نعرف في الوقت المحدّد. سوف تكون أزمان مختلفة تمامًا، وهو ما يقضي على هذه الوجوه بأن تأخذ أشكالاً أُخَر. أمّا فيما يتعلّق بأهمّيّة دوري في التاريخ، فمن غير الممكن أن نقدّره بعد. بالتأكيد، إنّ من عاش في هذا القرن، عايش زمن تقلّبات كبيرة، ولامس بالفعل، بطريقةٍ ما، القرن الماضي. بمعنى أنّه، وفي الواقع، ما زال عندنا تواصل نابض بالحياة بأمور زالت وامّحت. ولأنّنا على عتبة عالمٍ مختلف، تمام الاختلاف، كانت ضرورة مهمّة الحفاظ على الاستمراريّة، ضمن خطٍّ يسير قُدُمًا. هذا ما حاولته. لكنّ الأمر متروك للتطوّرات التاريخيّة اللاحقة، التي سوف تُظهر ما إذا كانت مواقفي هذه أدّت دورًا رائدًا. إنّ أحدنا يُدرك بالطبع التقلّبات العاصفة للزمن الذي يُعايشه، لكنّ الآفاق البعيدة المستقبليّة تبقى محجوبة.

بشكل عامّ، يسود الظنّ بأنّ راتسنجر ينقسم إلى شخصين: شخص تقدّميّ، قبل الذهاب إلى روما، وآخر في روما، حيث هو حارس الإيمان، الصارم والمحافظ. لقد تحوّل هذا اللاهوتيّ المراهق، ذو النزعات التقدّميّة، إلى محافظ خانع، ينتابه من حين إلى آخر بعض نوبات تشير إلى نهاية العالم. أنت نفسك قلت مرّة: جوزف راتسنجر بقي مُخلصًا لذاته، أمّا الآخرون فهم من سار في اتّجاهات أخَر.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

سبق أن ذكرت هنا أنّ المركزيّ، وأعني بذلك القرار المبدئيّ والأساسيّ لحياتي، مستمرّ. إنّني أؤمن بالله المتجسّد في المسيح، الذي هو أساس الكنيسة، وإنّني أحاول بناء حياتي، وفق هذا الإيمان. إنّ هذا القرار تنطلق قواه وتتفتّح في سياق الحياة، لذلك أنا سعيد؛ لأنّه لم يتجمّد في إحدى المراحل. إنّ السنوات تغيّر الإنسان، لذا، يجب أن لا يحاول، وهو ابن السبعين، أن يتصرّف وكأنّ عمره سبعة عشر، أو بالعكس. إنّني أريد البقاء وفيًّا لما أدركت أنّه هو الجوهر، وأن أبقى منفتحًا، حتّى أتعرّف على المتحوّلات الضروريّة. أضف إلى ذلك، أنّ موقع الإنسان يغيّر بالطبع من موقفه، فهو يقف فجأة ضمن شبكة إحداثيّات مختلفة. فالموضوعات، التي هي محور الحوار في كنيسة اليوم، مختلفة تمامًا عن التي كانت المحور قبل ثلاثين عامًا.

لا أنكر أنّ في حياتي تطوّرات وتحوّلات، لكنّني أؤكّد أنّ هذه التحوّلات والتغيّرات بقيت ضمن هويّة واضحة ومركزيّة، وأنّني، وخصوصًا في حالات التحوّل، ما همّني دائمًا، هو أن أبقى وفيًّا. هنا أوافق على ما عبّر عنه الكاردينال نيومن، عندما قال: أن تعيش، يعني أن تتحوّل، والذي عاش كثيرًا، هو في الوقت نفسه من كان قادرًا على التحوّل كثيرًا.

إنّ كلّ مهمّة تتطلّب، كالعادة، ثمنًا، فكيف إذا كانت مهمّة كخدمة الحقيقة مثلاً؟

أن تخدم الحقيقة شعارٌ كبير، وهو الأهمّ. لكنّ الثمن تدفعه طبعًا بالنقود الصغيرة. إنّ هذا يتمّ بأشكالٍ عديدة، بسيطة جدًّا، وبالأمور الصغيرة، في مكانٍ ما وراء الستار. إرادة الحقيقة هي الأساس، ولكنّني عمليًّا يجب أن أعمل على البريد، أن أقرأ الملفّات، وأدير النقاشات، إلخ.

بالنسبة إليّ، كان الثمن هو التالي: أن لا أتمكّن من القيام بما تصوّرت، أي أن أشارك وأفكّر في النقاشات الفكريّة الكبيرة لعصرنا، أن يكون لي مجموعة مؤلّفاتي. عوضًا من ذلك، كان عليّ أن أغرق في الخلافات العمليّة وفي تفاصيلها الصغيرة والمتعدّدة. كان عليّ أن أترك جانبًا قسمًا كبيرًا ممّا همّني، لأضع نفسي في الخدمة، وأقبلها على أنّها واجبي. كان عليّ أن أتحرّر من فكرة أنّه عليّ كتابة هذا البحث، أو قراءة ذلك، عوضًا من ذلك، كان عليّ أن أقر بأنّ واجبي هو في مكانٍ آخر.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هل أنت مقتنع بحياتك؟ هل أنت سعيد؟

نعم. أنا مقتنع، لأنّه لا معنى لأن تعيش ضدّ قناعتك ونفسك. وأعتقد أنّه بإمكاني أن أنجز ما له قيمة ومعنًى، بطريقة لم أكن أتوقّعها. وأنا شاكرٌ حقًّا لحياتي، كما رتّبها وعُني بإدارتها الله.

الإيمان، الرجاء، المحبّة، فضائل الكاردينال – ماذا تعني كلّها في حياة جوزيف راتسنجر؟

لقد تكلّمنا كثيرًا حتّى الآن عن الإيمان، وهو يشكّل الجذع الأساسيّ، الذي من خلاله تتفتّح براعم الحياة، إنّه القرار الجوهريّ الذي من خلاله نعترف بوجود الله ونقبله، كما هو المفتاح الذي يفسّر لنا ما تبقّى.

هذا الإيمان يعني الرجاء، لأنّ العالم، وفق حالته الراهنة، سيّئ، ويجب ألاّ يبقى هكذا. عندما نتطلّع إلى العالم، بنظرة تجريبيّة (نظرة مبنيّة على الملاحظة والاختبار)، بإمكاننا الاعتقاد بأنّ الشرّ هو القوّة المسيطرة. الرجاء المسيحيّ يعني، أنّك، ومع علمك بالشرّ، بإمكانك مواجهة المستقبل بثقة. إنّ نواة الإيمان وركيزته، لا يعنيان فقط أن نقبل من الله محبتّه لنا، ويفرض علينا أن نقول نعم لله، إنّما أيضًا أن نقول نعم لخليقته، وبنوعٍ خاصّ للإنسان، وأن نحاول أن نرى في كلّ فرد صورة الله، ونزداد محبّة للآخرين.

هذا ليس سهلاً. لكن، وانطلاقًا من النعم المبدئيّة، من القناعة بأنّ الله خلق الإنسان، وهو يقف وراءه، من غير الممكن أن يكون هذا الإنسان مجرّد مخلوق سلبيّ. هكذا تجد المحبّة نقط ارتكازها، وتستمدّ من الإيمان الرجاء. إنّ الرجاء يفترض، بهذا المعنى، عنصر الثقة، إزاء تاريخنا المهدّد؛ لكنّ هذا لا علاقة له بالأتوبيا: ليس عالم المستقبل الأفضل هو موضع الرجاء، إنّما الحياة الأبديّة. لا أحد يحتمل انتظار العالم الأفضل، لأنّه عندئذٍ لن يكون عالمنا، وعلى كلٍ منّا أن يتعامل مع حاضره. إنّ عالم الأجيال المستقبليّة سوف يطبع بطبعه، بشكلٍ أساسيّ، حرّيّة أجياله، ولا يمكننا التأثير عليه بشكل مسبّق، إلاّ ضمن حدود ضيّقة جدًّا. لكنّ الحياة الأبديّة هي مستقبلي، وهي بذلك قوّة تطبع التاريخ.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الفصل الثاني

مشاكل الكنيسة الكاثوليكيّة

روما في حَرَج

ما زالت مئات الآلاف من الجماهير تتدفّق، عندما يقيم البابا الصلوات، خلال رحلاته، لكنّ هذه التجمّعات الجماهيريّة تبقى غير قادرة على إعطائنا معلومات محدّدة عن وضع الكنيسة الحاليّ. سبق أن ذكرت سنة ١٩٨٤، وأنت في سياق وصفك لوضع الكنيسة الحاليّ، أنّها «حالة تدهور». يبدو لي، وكأنّني أستطيع تشبيه الكنيسة الكاثوليكيّة بما يسمّى الثقوب السوداء في الفضاء. بمعنًى آخر، إنّني أشبّهها بنجم يتداعى (ينهار)، اختفى وسطه منذ زمن عن الرؤية، وتضاءل حجمه إلى حجم قزم. وجوده ملحوظ، لكن فقط من خلال حركة الدوران المذهلة على المسارات، في محيط ما كان حجمه السابق. قطع صغيرة من الحجم الضخم القديم، العاجزة عن الهروب من جاذبيّة الجسم الأمّ، تطير متناثرة في الفضاء، أجزاءً صغيرة بدون هدف، تتضارب فيما بينها، أو تحطّم ذاتها.

إنّني أجد التشبيه بالثقوب السوداء، بالنجم المتداعي، تشبيهًا مثيرًا للاهتمام. قد تبدو الأمور هكذا للوهلة الأولى. من المؤكّد أنّه، في معرض التحوّل الذي سبق وصفه، وفي المرحلة التاريخيّة الحاضرة، لن تكون هناك أيّة حركات شعبيّة ضخمة باتّجاه الإيمان، وأنّ اللحظة التاريخيّة لن تنقلب، ليعود هذا النجم إلى تماسكه المعهود، وإلى دوره وإشعاعه القديم. من دون شكّ، إنّ أملاً ينتظر تغيّرًا في اتّجاهات التاريخ، ليعود الإيمان ويصير ظاهرة شعبيّة تحكم التاريخ، هو أمل خائب وخاطئ.

لكنّني ما زلت أؤمن بأنّه هناك انتفاضات صامتة، وبأنّ الكنيسة تتجمّع بشكلٍ ما

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

من جديد، لتتخلّص من الوثنيّة، وتعيد، بمعنًى ما، التجربة التي خاضها يسوع وتلامذته. عندما قال: «إيمانٌ كهذا، لم أجده في إسرائيل كلّها»، فهو يثق بأنّ عالم الوثنيّة سوف يتفجّر بالإيمان بشكلٍ حيويّ، لم يعد يعرفه مسيحيّو اليوم المتعبون غالبًا من إيمانهم، والذين يحملونه كحملٍ ثقيل، ويحاولون، على الرغم من ذلك، أن يجرّوه معهم، لكن من دون فرح. بهذا المعنى، تصبح صورة النجم هي أيضًا محدودة، لأنّ المسيحيّة، وكما قلت سابقًا، تعود دائمًا إلى وضعيّة حبّة الخردل، ولهذا السبب بالذات، هي قادرة دائمًا على التجدّد. هل من الممكن أن تعود فتكون ملامح التاريخ، كما في القرون الوسطى التي تنضوي بأكملها تحت لواء المسيحيّة؟ من المستحيل على أحد التنبّؤ بالجواب. لكنّني متأكّد من أنّها سوف تستمرّ، وبأشكالٍ مختلفة وجديدة، قوّة دافعة للحياة في التاريخ، وستبقى تشكّل جزر أمان تصمد فيها الإنسانيّة.

إنّ التجارب السلبيّة، واليقين أنّه من دون الإيمان تسير الأمور بالاتّجاه الخاطئ، وأنّنا ندخل عندئذٍ في فراغٍ مخيف، كلّ هذه ليست أسبابًا كافية لأن يتفجّر الإيمان من جديد. بإمكان كلّ ما سبق أن يتحوّل إلى مجرّد خنوع، أو تشاؤمٍ مطلق، أو إلى سخريّة لاذعة – حتّى إنّه قد يقود إلى تحطيم الإنسان بشكلٍ تامّ.

على الرغم من أنّنا عايشنا ولادة حالة مفارقة، فقد نشأ مناخٌ ملائمٌ للديانات، في زمن تحوّل العالم، وبسرعة يصعب على الكثير من الناس مجاراتها. هكذا زاد الإقبال، بشكلٍ لم يسبق له مثيل، على صيغ جديدة من الروحانيّات المختلطة والمبالغة. لكنّ الفريق الأكثر قوّة، والذي كان حتّى الآن الكنيسة الشعبيّة المسيحيّة، لم يتمكّن من أن يفيد من هذه الحالة العامّة.

أوّلاً، هذا صحيح. إنّ عهدًا جديدًا للديانات قد ابتدأ بشكلٍ ما، وإنّ الناس، وبأشكال متعدّدة تبحث عن الدين، وتعتقد بأنّها لن تتمكّن من الوصول إلى ما تبحث عنه، عن طريق الديانة المسيحيّة، إنّما هي تتطلّع إلى أشكالٍ جديدة، حيث غالبًا ما يجسّد الدين دور التجلّي، يخلق الإنسان بواسطته قوًى مضادّة، يهدف من خلالها إلى محاربة الهموم اليوميّة، أو أن ينتقل بواسطتها إلى عالم السحر والعجائب، الذي لا يلبث أن يتحوّل إلى أشكالٍ مريضة. قد تكون الكنائس الكبيرة تختنق نوعًا ما تحت وطأة مؤسّساتها الكثيرة، كما تئنّ من قوّتها، ومن ضغط تاريخها الخاصّ، وهو ما يمنع الإيمان الحيّ من أن يظهر بوضوح وبساطة. أن تكون مسيحيًّا، يعني فقط أن تنتمي

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

بشكلٍ أو بآخر إلى هذه الآلة الضخمة، وأنت تدرك أنّ هناك عددًا غير محدود من القوانين الأخلاقيّة والعقائد المعقّدة. تبدو المسيحيّة، على هذا النحو، وكأنّها حشوٌ من المؤسّسات والعادات، التي نمتنع عن رميها جانبًا فقط، لأنّنا، بطريقة أو بأخرى، ما زلنا ندرك قدرتها على المساعدة في مكانٍ ما. لكنّ الشعلة المضيئة والجوهريّة، تختنق بشكل أو بآخر، تحت كمٍّ من الرماد، يمنعها من الإضاءة.

في الأمر أكثر من رمادٍ يخنق. وفق عناوين التيّارات الفكريّة المسيطرة، في هذه اللحظة، تُحتقر الكنيسة الكاثوليكيّة–الرومانيّة، وتُصنّف على أنّها إيقونة من زمنٍ ضاع. وبالنسبة إلى العالم، في نهاية الألفيّة الثانية بعد يسوع المسيح، يبدو وكأنّه ما من استفزاز أكبر من وجود الكنيسة وإداراتها. إنّ الله موجود، وإنّ له ابنًا أرسله ليخلّص الإنسانيّة. إنّ هذا الواقع يبدو للكثيرين، وكأنّه ادّعاءات وتبشير مجنون. بإمكاننا القول: إنّ الكنيسة الكاثوليكيّة هي المؤسّسة الأكثر استفزازًا – وهنا تكمن الغرابة. ولعلّ أكثر ما تستفزّه، هو العالم الغربيّ، الذي يدين بمؤسّساته للحضارة المسيحيّة وللكنيسة الكاثوليكيّة.

لكنّ ما عددته يتكلّم لمصلحة الكنيسة الكاثوليكيّة، فإذا ما كانت لا تزال قادرة على الاستفزاز، يعني أنّها ما زالت شوكة احتجاج، أو كما يقول القدّيس بولس: حجر عثرة. هذا ما يُظهر أنّه ليس من السهل تناسيها بسهولة، وأنّها ما زالت تعني شيئًا. منذ البدء، أوضحت أنّه علينا التمييز بين الحواجز الأوّليّة والحواجز الثانويّة. الثانويّ يتألّف من أخطائنا، ونقائصنا، ومن تضخّم عملنا المؤسّساتيّ، أمّا الأوّليّ، فهو يكمن في معارضتنا ومواجهتنا للانزلاق نحو كلّ ما هو سخيف، متعجرف، أو مغالط. إنّنا لا ندع الإنسان يرتاح في عالمٍ من الإيديولوجيّات فصّله على قياسه. لذلك، أختم قائلاً: ما دامت الكنيسة الكاثوليكيّة حجر عثرة، فإنّها تواجه عالمًا من الإيديولوجيّات الجديد، لتشهر بوجهه فضائل إنسانيّة أساسيّة لا مكان لها في عالم الإيديولوجيّات الجديد هذا، وهذا هو العمل الإيجابيّ.

والغريب في الأمر، أنّ الكنيسة فقدت مصداقيّتها الى حدٍّ ما؛ والمثل الطريف على ذلك، هو: صنّف الكثيرون، من باب المزاح، كلام البابا، عندما حاول منذ سنوات الإشارة إلى وجود الملائكة ودورهم. لكن، فجأة عاد الملائكة لينعموا بالزواج. بالطبع، كانوا في هذه المرّة الملائكة الحقيقيّين، الطيّبين. من الواضح أنّهم، هم أيضًا، كانوا قد انفصلوا عن الكنيسة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

ومن الطريف مراقبة كم تتغيّر الأهواء الفكريّة أيضًا. في البدء، كان هناك نوعٌ من تفاهمٍ عقلانيّ، أراد أن يترك وراءه مسيحيّة منظّفة، وأن يلغي كلّ ما هو غير ضروريّ في المسيحيّة. القدّيسون والملائكة، لم يعد لهم ضرورة. ثمّ ظهرت فجأة نزعة جديدة نحو المبهم، ونحو عالمٍ مُتسامٍ، يملأه الاستشراف. وبالفعل، كانت هناك موجة جديدة من الملائكة، اجتاحتنا، آتية من خارج الكنيسة، ومثقّلة بكثيرٍ من علامات الاستفهام. من الطبيعيّ أنّ هذه ظاهرة تدعو إلى التفكير، فعندما تأتي تعابير الإيمان من الكنيسة، تُقابل بالنفور، أو بعدم الإدراك، لكنّها، عندما تأتي من الخارج، تكون الحاجة إليها ماسّة. إنّ هذا يُظهر بوضوح أنّ الحياة الداخليّة للكنيسة مصابة بالكلل، وهي التي تقف عائقًا بوجه بريق مكوّنات الإيمان الجميلة والإنسانيّة. لذلك، أعتقد بأنّه بإمكان ما يأتينا من الخارج أن يساعدنا لنستعيد وعينا.

أعود مرّة أخرى إلى محاولة الإحاطة بمدى هذه العمليّة: إنّ المعرفة المُلِمّة بأمور الإيمان، هي أيضًا قد فُقِدت، وكأنّها تبخّرت بسحر ساحر. مثلاً، في ألمانيا، يعتقد أكثر من ثلاثين بالمئة في هذه الأثناء، أنّ الميلاد هو أحد قصص الأخوين غريمّ. رجال الدين يجهلون من هم، المؤمنون يجهلون ما عليهم أن يؤمنوا به، بينما اللاهوتيّون أنفسهم يمضون بتقويض دعائم الموروث، الواحد تلو الآخر. كنز الليتورجيّا يُتنازع قطعًا مبعثرة.

لقد انتقدت الآن العديد من النقاط، التي ربّما علينا أن نُسلّط الضوء على كلّ واحدة منها بمفردها. ثمّ يتعيّن عليّ أن أدافع عن اللاهوتيّين؛ لكنّنا لن ندخل هنا في التفاصيل.

أنت مُحقٌّ، عندما تقول إنّ هناك جرفًا لأبسط المعلومات الدينيّة: من الطبيعيّ أن نتساءل هنا: ما هو الدور الذي يؤدّيه التعليم المسيحيّ؟ وماذا يفعل نظامنا المدرسيّ، حيث للتعليم الدينيّ مجال واسع؟ أظنّ بأنّنا ارتكبنا أخطاءً، عندما قلّلنا من كثافة المعلومات الملقّنة؛ مع العلم أنّ رجال التربية، الذين اعترضوا مسوّغين أنّ التعليم الدينيّ ليس لتمرير معلومات فقط، ومؤكّدين أنّ عليه أن يكون أشمل، وأنّ عليه أن يكون مختلفًا تمامًا، وأنّ الهدف منه هو أن يكتسب الطالب من خلاله أسلوب حياة؛ إنّ رجال التربية هم جميعًا محقّون؛ لكنّ ذلك قاد إلى محاولة كسب استلطاف الطلاّب لهذا الأسلوب من الحياة، وإلى إهمال تمرير المحتوى اللازم من المعلومات. هنا، باعتقادي، علينا أن نكون مستعدّين لانقلاب، كأن نعترف مثلاً بأنّنا، وفي هذا العالم

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الملحد، لن نتمكّن، من خلال التعليم الدينيّ في المدراس، من أن نبشّر عددًا كبيرًا. لكن، يجب علينا أن نُعَرّف الطلاّب إلى حقيقة المسيحيّة، علينا أن نعطيهم المعلومات الكافية، بالطبع، بطريقة مُحبّبة، بهدف تحفيزهم على التساؤل: هل هذا يناسبني أيضًا؟

غالباً ما يبدو اليوم، أنّ جماعات الناس التي ما زالت تشترك في التطوافات، والتي تقف موقفًا إيجابيًّا من الكنيسة، يُنظر إليها من قبل الغالبيّة على أنّها مجموعة من غريبي الأطوار. وحتّى إنّ هذه المجموعة ذاتها يزداد انطباعها، حين تعيش قناعاتها المسيحيّة بأنّها تعيش في عالمٍ مختلفٍ تمامًا، لا علاقة له بالعالم الواقعيّ. أليست عمليّة التدهور هذه دراماتيكيّة أكثر بكثير ممّا نريد أن نصدّق؟

أكيد، هناك الآن خسارة هائلة لمعاني المسيحيّة، كما أنّ هناك تحوّلاً في صورة الكنيسة المعاصرة. إنّ كيان الجماعة المسيحيّة، الذي استمرّ حتّى الآن، يتفتّت بشكلٍ واضحٍ للجميع، وهو ما يعني أنّ علاقة الكنيسة بالمجتمع سوف تستمرّ بالتحوّل. وأغلب الظنّ أنّها سوف تقود إلى شكلٍ من المجتمعات التي لا دور فيها للمسيحيّة. ليس من السهل أن يلقى ما يحدث داخل الإيمان صدًى إيجابيًّا في الضمير العامّ للمجتمع.

إنّ الاهتمام المركزيّ للحياة اليوم، هو بالفعل لكلّ ما هو جديد، على الصعيد التقنيّ والاقتصاديّ. هناك، وبالأخصّ في عالم الترفيه الخاصّ بوسائل الإعلام – يصار إلى صياغة لغة خاصّة، وإلى صقل نماذج من السلوك. بإمكاننا القول إنّ التوجّه هو للوجود الإنسانيّ، للحركات الجماهيريّة الكبيرة. إنّ الديانات لم تختفِ، إنّما تمّ حصرها على النطاق الشخصيّ، وأصبح يُغَضّ النظر عن الإيمان، ويُقبَل به على أنّه شكل شخصيّ من أشكال الدين، أو يُحتفَظ له بمساحة حرّيّة محدّدة، بصفته بالنهاية عنصرًا من عناصر الحضارة.

من جهة أخرى، تعرض المسيحيّة نماذج حياة بأساليب جديدة، تجسّم ملاجئ للإنسانيّة، في عالم الوجود التقنيّ المقفر. هذا ما يحدث الآن. قد نعترض على حركات الموعوظين الجدد (Neokatechumene)، أو على حركات الفوكولاري، لكنّ هذا لا يعني أنّنا لا نشهد هنا انبعاثات تجدّد. إنّ الناس، الذين غالبًا ما يأتون إلى هذه الحركات من البعيد، يشعرون بأنّها تمثّل الفرصة التي تمكّنهم من الحياة في هذا الزمن. هذا ما يدفعني للتأكيد أنّ عمل الكنيسة مع العامّة، والذي تجسّد حتّى الآن بشكلٍ من الذوبان

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

بين المجتمع والكنيسة، سوف يتغيّر، وهو لا يمنع أن يبقى دور الكنيسة بوصفه فرصة للإنسانيّة ظاهرًا للعيان.

لم يعد من أهمّيّة لمفاهيم، كانت يومًا من ضمن طيف الكنيسة الناطقة، فيما مضى، بلغة العالم. كما أنّه ظاهر أنّ الكنيسة تفقد تباعًا قوّة التجدّد. لقد كان بديهيًّا، لفترة سابقة ووجيزة، أن يضع المثقّفون والفنّانون قواهم بتصرّف الكنيسة. سارت الحال على هذا النحو مئات السنين: رفائيل، ميكال أنجلو، يوهان سبستيان باخ، أشخاص موهوبون، كلّهم وضعوا قوًى مبدعة وعظيمة في تصرّف الكنيسة. أمّا اليوم، فهم يتطوّعون، إذا ما فعلوا، في خدمة غرين بيس، أو أمنستي أنترناشونال.

لهذا علاقة بمسار التاريخ، الذي سبق وتكلّمنا عليه. إنّ الحضارة المعاصرة، التي تقدّمها لنا وسائل الإعلام، هي حضارة خالية من السموّ والاستعلاء، حيث المسيحيّة بالتحديد لا تملك القوّة المؤثّرة. هنا تختار القوى الأخلاقيّة لنفسها طرقًا مختلفة أخرى، كما ذكرت في سؤالك. لكنّني متأكّد من أنّ الكنيسة لن تبقى مفتقرة إلى القوى الخلاّقة المجدّدة. إذا عدت بالتفكير إلى نهاية العصور القديمة: فمن الممكن أن لا يكون أحد قد لاحظ مرور القدّيس بنديكتوس. لقد كان أحد الخوارج، على الرغم من أنّه ولد في طبقة النبلاء الرومانيّين، لكنّه قام بما اعتُبر غريبًا وشاذًّا. ثبت لاحقًا أنّ ما قام به كان بمثابة «سفينة الخلاص للعالم الغربيّ». أعتقد بأنّنا نجد اليوم خوارج على المسيحيّة بالطريقة عينها، اختاروا لأنفسهم أن ينأوا عن هذا الإجماع الغريب، الذي يحدّد ماهيّة الوجود المعاصرة، ليبحثوا عن أشكال جديدة للحياة؛ التي، وإن لم تحظَ بمساندة علنيّة، فإنّها هي تقوم، بما يدلّ فعلاً على وجهة مستقبليّة.

هل تستطيع أن تشرح لنا أكثر ما هو هذا «الإجماع الغريب الذي يُحدّد ماهيّة الوجود المعاصرة؟»

إنّه يتألّف ممّا سبق وألمحت إليه: الله ليس له دور في أخلاقيّات الناس. والله، إذا وجد، فهو بكلّ الأحوال لا علاقة له بنا – هذه هي الحكمة العامّة. هو لا يهتمّ بنا، ونحن لا ننشغل به. وبالتالي، السؤال حول الحياة الأبديّة لا معنى له. والمسؤوليّة أمام الله والمحكمة الأخيرة بُدّلت بالمسؤوليّة أمام الإنسانيّة، وهو ما يؤدّي إلى قيام معايير أخلاقيّة، يُصار إلى تطبيقها بوسائل قد تتحوّل إلى فاشيّة أحيانًا، مثل التصدّي لزيادة عدد السكّان، والذي اقترن بالكفاح العامّ، للمحافظة على التوازن البيولوجيّ. نستنتج

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

ممّا سبق، أنّ كلّ شيء يصبح مقبولاً، شرط أن لا يتعارض مع الأهداف المذكورة. إنّ قوّة الدفع، التي تولّدها هذه المثل العليا، غالبًا ما تكون ضعيفة، وذلك لأنّه ليس من يحاكم على المسؤوليّة سوى الرأي العامّ، الذي قد تتحوّل محاكمته أحيانًا إلى بشاعة وفظاعة. إنّ القوّة الدافعة لهذه المثل العليا تخدم أهدافًا مستقبليّة؛ أمّا نتيجتها في المدى القريب، فغالبًا ما تكون الأنانيّة...

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

حالة الكنيسة

إنّ الكنيسة العالميّة مجبرة على تدبّر أمورها، على الرغم من الكثير من الفروقات الزمنيّة. فالفروقات الحضاريّة والتاريخيّة بين الشعوب، تولّد تحدّيًا كبيرًا. إنّ الكنيسة لا تنحصر في الغرب المتحرّر الناقد، المتعب من أنواع السلطة. فهي تضمّ أيضًا كنيسة الشهداء الشرقيّة، وكنائس أميركا اللاتينيّة، الغارقة في النقاشات السياسيّة والاجتماعيّة، يُضاف إلى ذلك، الخلافات العقائديّة والفكريّة. يبدو اليوم أنّه من الأسهل أن نحدّد نقاط الاختلاف بين الكنائس، على أن نحدّد نقاط التلاقي. فهل ما زال هناك مفهوم موحّد؟

نعم. إنّني أرى هذا، عندما أستعيد صورة الأساقفة، الذين يمرّون أمامنا، والمنتمون إلى أقاصي العالم. من الطبيعيّ أن تكون موضوعات النقاش، أو الأطباع، أو أوضاع الكنيسة التي يمثّلون، مختلفة تمامًا. لكن، هناك الوجود الكاثوليكيّ الموحّد، والذي يتجلّى في الليتورجيّا، كما يتّضح في أشكال مختلفة من الإيمان، في القرارات الأخلاقيّة الجوهريّة، وفي القناعات المركزيّة. حتّى ولو أنّ الكنيسة زادت في تنوّعها، فهي ما زالت في جوهرها كنيسة واحدة، تعبّر عن ذلك باعترافها وارتباطها العمليّ بروما، وهو ما يعبّر عن ارتباط بهويّة إيمانٍ موحّدة. هكذا تتعايش هنا، ومن دون أيّ شكّ، عوالم مختلفة، لكنّ هذه العوالم تربطها وحدة، هي أكبر بكثير من الفروقات، بشكلٍ يمكّننا من أن نحتفل، وفي أيّة لحظة، بالقدّاس مع بعضنا، أن نتكلّم مع بعضنا وأن نتفاهم حول العناصر والمفاهيم الأساسيّة. إنّني أعتقد بأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة تساهم مع الإنسانيّة جمعاء بما هو أساسيّ، عندما تنجح بجمع عوالم مختلفة، حول مفهوم موحّد، وتخلق بذلك جسورًا تربط بوساطتها العوالم المختلفة.

ألم يتقلّص هذا المفهوم الأساسيّ الموحّد إلى حدّه الأدنى؟

لا، إنّني لا أوافق على هذا الرأي. قد يكون فقد شكله الصافي، الموحّد الذي كان يتمتّع به قبل ٥٠ سنة، أو حتّى قبل ذلك. ازداد التنوّع ضمن هذا الشكل وفق الحضارات؛ لكنّه يتمتّع بوحدة قويّة ومتينة، أي إنّ الجميع يقرأون الكتاب وفق الروح

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الكاثوليكيّة الموروثة، مدركين أنّهم ملزمون تجاه ذات الإيمان، وذات العقيدة. إنّني ألمس حسّيًّا في لقاءاتي مع المطارنة، وحتّى مع المجموعات الشبابيّة، من مختلف أنحاء العالم، أنّ هناك وحدة ملموسة، لكنّها تظهر باختلاف، وفاق الظروف المتعدّدة. إنّ الهويّة الكاثوليكيّة هي تجربة واقعيّة تتخطّى الحدود كلّها.

بالإضافة إلى الفروقات الزمنيّة والتناقضات الحضاريّة، لا نستطيع أن نتجاهل وجود تيّارات توحيديّة تدعو إلى وحدة اللباس، على امتداد العالم كلّه. كما أنّ التقنيّات، وعالم الإعلام الموحّد، يخلقان مناخًا واحدًا في العالم كلّه. إذًا، الصراع في العالم اليوم قائم بين هذا الاتّجاه، الذي يؤدّي إلى تيّارات توحيديّة، وبين انتفاضات متعلّقة بالهويّة، تواجهها من الناحية الأخرى، حيث نشهد بازدياد مقاومة الحضارات الخاصّة بقوّة لهذه التيّارات التوحيديّة، وبحثها عن معالمها الأصليّة. إنّ ما سبق، يُظهر بوضوح أنّ هذا التوحيد، والمدى الذي تتمتّع به الحضارة التقنيّة، اللذين يتغلغلان في كلّ مكان، يبقيان، على الرغم من ذلك، عاجزين عن بعث وحدة عميقة في الإنسانيّة، تكون قادرة على تحريك الطبقات العميقة للإنسان. هنا يكمن دور الكنيسة الأكثر تعقيدًا والأكثر أهمّيّة.

ماذا تعني بهذا؟

إنّ القناعات، وطرق التصرّف، التي تربط الكنيسة بعضها ببعض، هي أعمق من الصيغ ومن نماذج التصرّف، التي تغرقنا بها وسائل الإعلام. استعمال الكومبيوتر، أو السيّارة، أو الناقل الآليّ، أو تشييد ناطحات السحاب، تتمّ في العالم كلّه، وفق القوانين التقنيّة نفسها، والطريقة عينها، مع فروقات لا تُذكر. هذا لا يمنع أن ترتبط هذه الأشياء بطرائق حياتيّة مختلفة تمام الاختلاف. إنّ العمل الخارجيّ هو في كلّ مكان نفسه، لكنّ هذا لا يعني أنّ الناس، الذين يقومون به، يستطيعون التفاهم فيما بينهم، أو احترام بعضهم بعضًا، والعيش بسلام فيما بينهم. هنا تقوم القيم الدينيّة والأخلاقيّة، بمعنًى آخر، طريقة تهذيب الضمير، بدورٍ فاصل، وهذا ما تركّز الكنيسة عليه. من السهل الإدراك، أنّ هذا التشكيل الصعب لداخل الإنسان، والذي يبقى من شبه المستحيل فهمه من الخارج، يؤدّي دورًا عظيمًا في تماسك الإنسانيّة، والحفاظ على كرامتها. من هنا، يمكننا الفهم أنّ هذا التثقيف المشترك للضمير، بإيمان يشترك به الجميع، يقود حتمًا إلى تعبير حسّيّ، فما لا يرشح نحو الخارج، يبقى غير فاعل.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لذلك، يتوجّب مثلاً، إن كان في الليتورجيّا، أو في الحياة العامّة للكنيسة، أن يُصار إلى إظهار الوحدة، رغم الحدود الحضاريّة الفاصلة.

هل هناك، ضمن الكنيسة، تعدّد في المفاهيم الأساسيّة، أو أجنحة مختلفة، أو حتّى جبهات تماسّ؟

نجد هنا بالطبع تيّارات تمتدّ على طول مساحة الكرة الأرضيّة. بإمكاننا أن نذكر، مثلاً مبدئيًّا، الفكرة الأساسيّة للاهوت التحرّر. وقد وجدت هذه الفكرة صدًى لها على امتداد القارّات، وهناك إمكانيّة لتغيير وجهتها بشكلٍ إيجابيّ. نواة هذه الفكرة، هي أنّه على المسيحيّة التأثير أيضًا في وجود الإنسان، ما دام على الأرض. يجب أن تعطيه حرّيّة الضمير، وعليها أن تعمل على جعل الحقوق الاجتماعيّة للإنسان سارية المفعول. إنّما في اللحظة التي يتحيّز فيها هذا التفكير إلى اتّجاه واحد، عندئذٍ، يحاول أن يستعمل المسيحيّة أداةً عامّة، يحصر دورها في تغيير سياسيّ للعالم. هنا نجد نقطة ارتكاز الفكرة القائلة: إنّ كلّ الديانات هي، في النهاية، أدوات، هدفها إدخال الحرّيّة والسلام، والحفاظ على الخليقة. لذلك، وجب تسويغ الديانات، من خلال اندماجها السياسيّ، ونجاحها في هذا المجال. إنّ التطرّق إلى الموضوع يختلف وفاقًا للأوضاع السياسيّة، ولكنّه ينتشر على امتداد القارّات. لقد وجدت هذه الفكرة اليوم مكانًا لها في آسيا، وفي أفريقيا، حتّى إنّها توغّلت في العالم الإسلاميّ. هنا أيضًا، نجد محاولات لتفسير القرآن، وكأنّه محاولة لاهوتيّة للتحرّر. بالتأكيد، تبقى هذه المحاولات هنا هامشيّة. لكنّ دورها في الحركات الإرهابيّة هو دورٌ مؤثّر – دورها بمواجهة إسرائيل مثلاً.

في خلال ذلك – كانت فكرة التحرّر قد ذابت في الإيديولوجيّات الداعية إلى تحرير المرأة – قد يكون بإمكاننا أن نطلق على الحرّيّة لقب القاسم المشترك للروحانيّة العصريّة، وللقرن الحاليّ. تُعدّ المرأة المخلوق المغلوب على أمره، لذلك أصبحت نقطة تركيز لكلّ حركة للتحرير. إنّنا نشهد هنا نشأة للاهوت التحرّر الأنتروبولوجيّ، تجاوزت لاهوت التحرّر السياسيّ. لكنّ الأمر لم يعد يقتصر على محاولة التحرّر من عبوديّة الأدوار، إنّما تجاوزها، ليضع نصب عينيه هدف التحرّر من الشروط البيولوجيّة للإنسان. أصبح هناك تمييز، بين الظاهرة البيولوجيّة الجنسيّة، وبين تكوينها، عبر التاريخ الذي أطلق عليها اسم "gender". لكنّ الثورة، التي أعلنت بوجه كلّ الشكل الجنسيّ الذي أسهم

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

في صقله التاريخ، تنتهي بنا إلى ثورة بوجه المعطيات البيولوجيّة، حتّى إنّها تتخطّاها: لا يحقّ للطبيعة أن تتلفّظ بقولٍ ما؛ يحقّ للإنسان أن يُكوّن نفسه وفاق أهوائه. على الإنسان أن يتحرّر من المعطيات البيولوجيّة كلّها، أن يتحرّر من المعطيات التي كوّنته: إنّه يكوّن ذاته، وفقًا لمزاجه، عندئذٍ فقط، يصل إلى الحرّيّة، ويتحرّر. وراء كلّ هذا تختبيء ثورة يشعلها الإنسان بوجه المعوّقات كلّها التي يحملها، كونه مخلوقًا بيولوجيًّا. إنّها في النهاية ثورة ضدّ الخليقة. هنا يحاول الإنسان أن يعيد تصنيع نفسه ـ إنّها نسخة حديثة عن محاولة الإنسان القديمة لتأليه ذاته – أن يكون اللّه.

أمّا الظاهرة الثالثة، التي نلاحظها في العالم كلّه – خصوصًا في هذا العالم حيث تزداد المساواة – فهي ظاهرة البحث عن الهويّة الثقافيّة الخاصّة، ما يُسمّى بـ (Inkulturation). نشهد في أميركا اللاتينيّة إعادة استحضار قويّة لحضارات قد ماتت، وذلك، بعد أن انتهت الموجة الماركسيّة. إنّ "theologia india" تريد إحياء الحضارة والدين اللذين سادا في مرحلة ما قبل الكولومبيّين، لتتحرّر بذلك من التغرّب الأوروبّيّ، الذي فُرض عليهم. هنا نجد امتدادات تلفت النظر، تربط هذه الحركات بالحركات الداعية إلى تحرّر المرأة: الطقوس المتعلّقة بالأرض–الأمّ وبالتركيز على الجوانب الأنثويّة للّه. هذا ما يدعم الاتّجاهات الأميركيّة الأوروبّيّة لحركات التحرّر، التي لا تكتفي بتحديد العناوين الأنتروبولوجيّة، إنّما هي تطمح لإعادة صياغة مفهوم اللّه، بحجّة أنّنا أعدنا تصوير السيطرة الأبويّة في اللّه. لذلك وجب التخلّص من السيطرة المفروضة على المرأة، بسبب مفهوم اللّه. وهكذا، فإنّ عناصر التجدّد الكونيّة (كالأرض – الأمّ، إلخ...) في الديانات القديمة، تلامس ميول العصر الحديث، التي تهدف إلى ذوبان الديانات كلّها، وإلى اتّحاد الإنسان والعالم. لنعُد إلى السؤال: إلى أيّ مدًى، بإمكاننا استعمال الحضارات، غطاءً للديانات المختلفة؟ وهل هي أقنعة فقط؟ أو إنّها وحدات حيّة مكتملة؟ ماذا نعني تحديدًا بكلمة حضارة؟ إنّها أسئلة كبيرة، ومسائل يصعب حلّها.

ثمّ أودّ أن أذكر موضوعين، يشغلان الكرة الأرضيّة وهما: الأوّل، هو موضوع البيئة. والفكرة هي نتيجة للوعي بأنّنا لا نستطيع أن نتعامل مع الأرض بالطريقة التي نفعل. هنا خيّم ما يُشابه الحياء من تصرّفات الإنسان، وغلب التساؤل عن ماهيّة الإنسان، وعمّا إذا لم يكن من واجبه أن ينكفيء بين الكائنات الحيّة الأخرى، ويتساوى بها. بالإمكان المحافظة على البيئة، بطريقة مسيحيّة، منطلقين من الإيمان بالخليقة، الذي يضع حدًّا

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

للتعسّف الذي يمارسه الإنسان، كما يحدّد للحرّيّة مقاييس. كما بالإمكان أن يُصار إلى استنتاجها، انطلاقًا من مفاهيم تعاكس المسيحيّة، مثل التي تعود إلى (new age) انطلاقًا من أُلوهيّة الكون. أمّا الموضوع الثاني، الذي أودّ الإشارة إليه، فهو التيّارات النسبيّة، التي ازدادت قوّتها. إنّها تنمو من جذور عديدة. فهنا يبدو للإنسان الحديث أنّ الأمر غير ديمقراطيّ، وبعيد عن مفهوم التسامح، كما أنّه من المستحيل التوحيد بين الشكّ الذي يملكه العلماء، والادّعاء بأنّنا نمتلك الحقيقة، والإصرار على أنّ كلّ ما تبقّى هو، إمّا مغالط، أو أنّه جزءٌ منها. فانطلاقًا من مفهوم ديموقراطيٍّ للحياة، ومن فكرة تقبّل الآخر، التي ترافق موقفًا كهذا، يطرح السؤال التالي نفسه بقوّة: هل يحقّ لنا أن نستمرّ في الإصرار على الثقة البديهيّة بمسيحيّتنا؟

ارتبطت هذه المفاهيم في الهند بالديانات المحلّيّة، التي تميّزت دائمًا بأنّها تبحث عن الله باستمرار في عالم يستحيل تسميته. بالتالي، كلّ ما ينتمي إلى ديانات، إنّما هو انكسارات أو انعكاسات، أو تصوير من الذي لا يظهر أبدًا. لذلك، من المستحيل أن توجد الديانة الحقيقيّة. في ذلك يبقى المسيح بالتأكيد شخصيّة متفوّقة وعظيمة، لكن، علينا أن نرجعه إلى الوعي الذي يظهر فيه، لكنّه ظهر أيضًا عند غيره. هنا نعيش اندماج تقاليد حضارة عظيمة، مع الاتّجاه العالميّ للديموقراطيّة والتسامح.

ما معنى هذه التيّارات العالميّة، وما تأثيرها على الكنيسة الكاثوليكيّة؟ إنّنا نشهد اليوم أنّ تعريف المسيحيّة عن نفسها، على أنّها الديانة الحقيقيّة، يثير في الضمير العامّ الكثير من الضوضاء، فهي تقول إنّ المسيح هو أكبر من أن يكون مجرّد شخصيّة عظيمة، وإنّ الدين هو أبعد من أن يكون مجرّد تطابق.

يبدو لي أنّ السؤال «إلى أيّ مدًى يحقّ لنا أن نتكلّم عن الحقيقة؟»، و«بأيّ شكل، يجب على المسيحيّة أن تنتظم ضمن صفوف التنظيم العامّ للديانات؟»، قد اتّخذ دراماتيكيّة جديدة. إنّ نقطة الثقل لهذا الحوار تتركّز اليوم في الهند، لكنّها سوف تنتقل بالتأكيد، وعبر (indiatheologia) إلى لاهوت أميركا الجنوبيّة. بالطبع هي حاضرة بقوّة في أميركا وأوروبّا، وذلك لأنّها نتيجة تلقائيّة لوعينا بنسبيّة الأشياء (Relativitätsbewusstsein).

ما هو وضع التيّارات، التي يصفها البعض بأنّها تيّارات رجعيّة داخل الكنيسة، أعني بذلك تيّارات الأصوليّة الكاثوليكيّة؟

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

نظرًا لكلّ ما يحدث، ونظرًا لكلّ الاضطربات الكبيرة، التي تظهر وتسلب الإنسان فجأة موطنه الروحيّ، ودعائمه الأساسيّة، نشهد ردّات فعل، هدفها الدفاع عن النفس، والتمنّع بوجه الحداثة التي تُحدّد على أنّها معادية للدين، أو بكلّ الأحوال أنّها معادية للإيمان. أريد أن أضيف هنا أنّ التعبير «أصوليّة»، وبالشكل الذي نستعمله اليوم، يرفع الغطاء عن الكثير من الوقائع، وأنّه علينا أن نحدّد أكثر هنا. ظهر مفهوم الأصوليّة في الأوساط البروتستانتيّة الأميركيّة أوّلاً، وذلك في القرن التاسع عشر. إنّ شرح الإنجيل بطريقة نقديّة تاريخيّة، والذي كان نتيجة عصر التنوير، سلبه شفافيّته وجلاءه (Eindeutigkeit)، اللذين تمتّع بهما حتّى الآن، وشكّلا شرط مبدإ الكتاب المقدّس البروتستانتيّ. إنّ مبدأ «الكتاب المقدّس وحده لم يعد يقدّم، فجأة، الأسس الواضحة. وبسبب غياب مؤسّسة للتعليم، كان لهذا خطر مميت على الجماعات المؤمنة. أضف إلى ذلك، ظهور نظريّة النشوء والارتقاء، التي لم تكتفِ بإعادة طرح قصّة بداية الخليقة والإيمان، بما جاء بها، موضع تساؤل وبحث، إنّما تعدّتها، لتجعل من الله فائضًا لا حاجة له. هكذا اختفت دعائم الأساس، ونُصب بوجه كلّ ما سبق مبدأ التفسير الحرفيّ الصارم، لكلّ ما جاء في الكتاب، من أنّ المعنى الحرفيّ معصومٌ عن الخطأ. صُوِّبت هذه النظريّة الجديدة بوجه التيّارات التي تعتمد التفسير النقديّ التاريخيّ للكتاب، كما بوجه المؤسّسات المسؤولة عن تعليم الكاثوليكيّة، التي لا تسمح بمثل هذه اللفظيّة. هذه هي «الأصوليّة» بمعناها الأساسيّ. إنّ «الشيع» الأصوليّة، من الطوائف البروتستانتيّة، تسجّل اليوم نجاحات كبيرة في مجال التبشير في أميركا الجنوبيّة والفليبّين. إنّهم يعطون للإنسان الشعور بالأمان وببساطة الإيمان. لكن، عندنا، تحوّلت كلمة «أصوليّة» إلى شعارات تكتب بخطٍّ عريض، ونحاول أن نجمُلَ بواسطتها الصور المعادية كلّها.

حتّى نبقى ضمن هذا التحديد، ما هي التيّارات الأصوليّة الجيّدة، وما هي التي تطرح حولها علامات استفهام، وتعتبرها سقيمة؟

لنقل هكذا: إنّ العنصر المشترك، بين كلّ التيّارات المتنوّعة جدًّا، التي نصنّفها عندنا بأنّها أصوليّة، إنّما هو البحث عن البساطة في الإيمان وعن الأمان. إنّها بحدّ ذاتها ليست بالعناصر السيّئة، لأنّ الإيمان – وكما يقول لنا العهد الجديد مرارًا – يُخصّص للبسطاء والصغار، غير القادرين على التعايش مع التفاصيل الأكّاديميّة الرقيقة والدقيقة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

عندما نمجّد القدرة على الحياة وسط الارتباك، ونشكّك في الإيمان كحقيقة مختلقة، فهذا بالطبع ليس نماذج الحياة التي دعانا إليها الإنجيل. إنّ البحث عن الأمان والبساطة بالإيمان يصبح خطرًا، عندما يقود إلى التعصّب والمحدوديّة. عندما نسيء الظنّ بالعقل، بشكلٍ عامّ، نزوّر الإيمان ونحوّله إلى نوع من إيديولوجيّات الأحزاب، لا صلة لها بالتوجّه الواثق إلى الله الحيّ، بصفته الأساس لحياتنا ولعقلنا. هنا، نجد أشكالاً مريضة من التديّن، كالبحث عن الظهورات، أو البشارات التي تأتي من العالم الآخر وما شابه. لكن عوضًا من أن يستمرّ اللاهوتيّون بالضرب دائمًا على وتر الأصوليّة، عليهم أن يفكّروا إلى أيّ مدًى هم أيضًا مسؤولون عن بحث الإنسان، بشكلٍ متزايد، عن ملجأ في الأشكال الدينيّة المريضة. حين لا نقدّم إلاّ الأسئلة ولا نرسم للإيمان خطًّا إيجابيًّا، فلا مجال للّجوء إلى الهروب.

أين تقع الكنيسة الأسلم؟ وهل بإمكاننا أن نحدّد ما يشابه الأرض للنواة الكاثوليكيّة الجديدة؟

لا أتجرّأ على القول بهذا الشكل. كلاّ. يوجد عندنا من جهة جزر، حيث تدافع التقاليد وبقوّة عن نفسها، كما أنّ هناك أماكن، حيث الأزمة لم تبلغ ذروتها بعد، أو حيث نشهد انبعاثات جديدة تلقى صدًى كبيرًا. لكنّ الإيمان مهدّد في كلّ مكان، وهذا ليس بالمستغرب، لأنّ ذلك جزء من طبيعته.

بصفتك رئيسًا لمجمع الإيمان وعضوًا في لجنة الإعلام، لديك نظرة شموليّة. بالطبع، لن نتمكّن من أن نفي الموضوع حقّه، عندما نحاول، وبوساطة ما قلّ ودلّ، أن نُضيء وضع الكنيسة في العالم، لكن، هناك، على الأقلّ انطباع مُحدّد عن الموضوعات المختلفة.

هل باستطاعتنا التطرّق إلى الوضع في بلاد معيّنة، لنبدأ بأوروبّا، لنقل بإيطاليا؟ إنّ الكنيسة هنا، ومنذ زمنٍ طويل، متنوّعة، من الكنيسة المتنوّرة في الشمال، إلى الكنيسة الشعبيّة والتقليديّة في الجنوب. لكنّنا نشهد الآن تناقضًا حادًّا بين كنيسة تقدّميّة وكنيسة محافظة، كما نشهد تأثيرًا متزايدًا للحركات العلمانيّة.

من الطبيعيّ أن لا تُستثنى إيطاليا من الصراعات، لكن، وفاق ما تمكّنت من ملاحظته، فهي تبقى أخفّ حدّة من تلك التي نعيشها في ألمانيا. من الطبيعيّ أن يكون

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

اللاهوت قد قام بتحرّكات ناقدة، عزّز بها هذه التجاذبات. إنّ الانقسام الحادّ للمسيحيّين الديموقراطيّين، الذي انتهى بانفصامٍ نهائيّ، لا يدلّ فقط على وجود مدارس سياسيّة مختلفة، داخل الكاثوليكيّة الإيطاليّة فحسب؛ إنّما تظهر من خلالها انقسامات لاهوتيّة عميقة. لكنّ ارتباط الكاثوليكيّة الإيطاليّة بالبابويّة، وبمركز التعليم البابويّ، متجذّر بطريقة أعمق ممّا نشهده عندنا، وهذا ما يبقي على وحدة الكاثوليك الإيطاليّين، رغم الخلافات الحادّة بينهم.

لكنّ الصحيح، هو أنّ الكاثوليكيّة في جنوب إيطاليا ذات طابعٍ مختلف تمامًا عمّا هي عليه في الشمال. إنّ للتطوافات والفلكلور والتقاليد، أي للعاطفة طابعًا أكبر. أمّا في الشمال، فإنّه أقوى، بمعنى أنّه عقلانيّ أكثر، إنّه مطبوع بصفة أوروبّا الوسطى. والصحيح أيضًا، أنّه هناك، كما سبق وذكرت، تباعد كبير بين اللاهوتيّين، حتّى إنّنا نشهد ضمن الجامعات البابويّة لاهوتيّين متطرّفين في نقدهم. فالأمور لم تعرف هنا الانشقاقات الكبيرة التي حدثت في الشمال، ولكنّ هناك سعيًا دائمًا لمحاولة البقاء معًا، بطريقة أو بأخرى. كما أنّ هذا السعي متأصّل في الضمير الإيطاليّ، وأنّ البابا هو دائمًا نقطة توجّه مهمّة في الكنيسة.

من الطبيعيّ أنّ عدد زوّار الكنائس تراجع في إيطاليا، كما في كلّ بلدان أوروبّا، كذلك عدد الدعوات. لكنّ الضمير الكاثوليكيّ الأساسيّ، ما زال موجودًا عند الإيطاليّين كلّهم. حتّى إنّنا نجده عند أتباع الأحزاب اليساريّة، وحتّى عند الشيوعيّين. ولو بشكل ضبابيّ، باستطاعتنا أن نلاحظ، أنّهم يعرّفون، بشكلٍ أو بآخر، عن أنفسهم بأنّهم كاثوليك، حتّى إذا لم يكن لهذا سوى تأثير ضعيف على تفكيرهم وعلى أعمالهم. إنّه جزءٌ من الهويّة الإيطاليّة وحضارتها، بشكل أقوى ممّا هو عليه في ألمانيا.

يتّهم النقّاد الكنيسة الإيطاليّة بأنّها مصابة بشيءٍ من التعب، وبأنّها تحاول تخطّي الأزمات، بإقامة النشاطات والمشاريع الثقافيّة.

من الطبيعيّ أنّنا لا يمكننا أن نستثني إيطاليا من التعب، كما سبق وعبّرت، ومحاولة الهرب في نشاطات أخرى، هي صحيحة أيضًا. لكنّنا، في الواقع، نجد الكثير من الرعايا الحيّة، والكثير من النشاطات العلمانيّة في إيطاليا. قد تكون الأمور العاديّة، المنظّمة، بعيدة عن التركيبة الألمانيّة، لكن، ووفق رأيي ما، إنّ المبادرات الفرديّة التلقائيّة هي أكثر اندفاعًا وعددًا؛ كما بإمكاننا أن نرى، على سبيل المثال، نموّ عدد الناشئة

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الرهبانيّة في أسقفيّة روما، أكثر من مثيلتها قبل ٥٠ سنة.

كم كان قويًّا التضعضع الذي أحدثه تداعي النظم السياسيّة ضمن الكنيسة الإيطاليّة؟

من الصعب دائمًا أن تحدّد في إيطاليا، إلى أيّ مدًى تهتزّ الأمور بشكل مطلق. قد تشهد انهيار نظم سياسيّة كاملة، أمّا في الواقع، فلا يتغيّر شيء. لكنّ الصحيح هو أنّ مجمع أساقفة إيطاليا اضطّر إلى أن يغيّر سياسته. في السنوات الأخيرة من «الديموقراطيّة المسيحيّة»، قد تمّ التركيز على وحدة المسيحيّين السياسيّة، ونصب هذا الأمر هدفًا نهائيًّا، وكان المقصود أن يُظهر المسيحيّون وحدة في المجال السياسيّ، حتّى لو أتوا من اتّجاهات مختلفة. وذلك لم يتغيّر شيئًا، وسقطت «الديموقراطيّة المسيحيّة»، ذلك مجمع الأساقفة إلى الاستغناء عن هذا الهدف. إنّ هذا المجمع يتّصف الآن بالحياديّة السياسيّة، وهو يرى أنّ هدفه الحاليّ، هو أن يتصرّف المسيحيّون، وعلى اختلاف اتّجاهاتهم، بمعنًى آخر، المستعرض والمعترض، في المسائل الأخلاقيّة الأساسيّة، انطلاقًا من مسؤوليّاتهم وبشكلٍ متماسك.

وأنت تساندهم؟

نعم، وفي حال النجاح، أرى أنّ هذا جيدٌ جدًّا، من الجميل أن تظهر وحدة أساسيّة تتخطّى حدود الأحزاب.

وحتّى مع الشيوعيّين؟

من الممكن أن ينجح هذا مع خليفة الحزب الشيوعيّ، الذي هو PDS. أمّا حزب «ريفونداتسيوني كومّونيستا» (Rifondazione communista)، فهو ما زال بالطبع تابعًا للمبادئ الماركسيّة.

بخلاف ألمانيا، يبدو أنّ الكنيسة الإيطاليّة لم تعرف ما يسمّى بالارتداد الجماعيّ الشعبيّ للمسيحيّة. هل يوجّه النظر في إيطاليا، بشكلٍ أقلّ إلى الأسئلة العقائديّة، وعوضًا من ذلك يُركّز على الأمور الاجتماعيّة، وعلى المسيحيّة المطبّقة عمليًّا؟ لماذا هذا الفرق؟ وما الذي يُحرّك الإيطاليّين؟

قد يُستحسن القول أوّلاً، إنّ تجارب الارتداد الشعبيّ إلى الكنيسة بقيت حركات فاشلة في بلجيكا، في فرنسا. ومن المحتمل أن تلاقي المصير نفسه في أميركا. إنّها حركة ذات طابع ألمانيّ خاصّ جدًّا. وبالمناسبة، لقد اضطرّوا في بلجيكا إلى تحوير المواضيع

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

التي ركّزت عليها حركة الارتداد الجماعيّ الشعبيّ الألمانيّة، وذلك لإثارة اهتمام البلجيكيّين. لكنّني أجهل الوضع في البلاد الأخرى. وبرأيي، لن يفهم أحد في إيطاليا الفرق بين بشرى مهدِّدة (Drohbotschaft) وبين بشرى سارّة (Frohbotschaft)، فكلّ إنسان عاقل يفهم أنّ الإنجيل هدّدنا بالدينونة، بهدف مساعدة طبيعتنا الضعيفة. كما أنّ الصيغ الضبابيّة، التي بحثت موضوع الكنائس الشقيقة، لن تُهمّ أحدًا هنا، فالكلّ يُدرك أنّ الإخوة ليسوا دائمًا صورة مثاليّة للحياة المشتركة السلميّة. والكلّ يدرك أنّ العزوبة تجرّ معها مشاكل إنسانيّة، وأحيانًا مآسي، لكنّ الناس واقعيّون بما فيه الكفاية، حتّى يدركوا أنّ الزواج ليس بالأمر السهل. لذلك نتمسّك بالعزوبة على أنّها جزء من الحضارة الكاثوليكيّة، نعترف بأهمّيّتها، رغم كلّ الإخفاقات الممكنة، ولا نودّ خسارتها. بإمكاننا المتابعة على هذا المنوال. مع أنّ إيطاليا لم تعرف انقسامًا ضمن الكنيسة، إنّما هي منقسمة بين كاثوليك وعلمانيّين. ويندرج، في عداد الملحدين، المدافعون عن فلسفة الدولة، وعن مفهوم الوجود. وتجسّد الثورة الفرنسيّة خير دلالة تاريخيّة على هؤلاء. والماسونيّون – وهم أنموذج العلمانيّين – الذين كانت لهم اليد الطولى في بناء الدولة الوطنيّة الإيطاليّة، ويعتبرون ذواتهم خير ضامن لهذا المفهوم. وإنّ المواجهة تدور بين هذين العالمين، اللذين انضمّت إليهما الشيوعيّة، منذ الحرب العالميّة الثانية. والسؤال المطروح، يتعلّق، قبل أيّ شيء آخر، بمعرفة الطريقة، التي تؤدّي إلى قيام توازن، بين القوى الثلاث تلك، وباكتشاف نقاط التآلف في ما بينها، وبإقصاء نقاط الاختلاف.

لنلقِ نظرة على إسبانيا.

في إسبانيا، تزامنت أزمة نهاية نظام فرانكو والتحوّل إلى حكم ديموقراطيّ، مع الأزمة التي تلت المجمع الفاتيكانيّ. هذا ما حمل إلى داخل الكنيسة الإسبانيّة اهتزازات ضخمة. وهي كانت قد بقيت، حتّى الآن، ومن خلال تراتبيّة محدّدة لنظام اجتماعيّ، متطابقة مع المجتمع، وحتّى مع الدولة. ابتداءً من هذا الوقت، اعتُبر كلّ هذا خطأ. كان على الكنيسة، أن تنفصل عن قواعدها الاجتماعيّة، وتعيد توضيح ذاتها. ونتج عن هذا الإنقلاب انخفاض مفاجئ في نسبة الدعوات الكهنوتيّة والرهبانيّة، وفي ظهور أقطاب في مجال اللاهوت. ولم يبقَ من كلّ ذلك سوى تيّارٍ قويٍّ من الكاثوليكيّة ومن اللاهوت الأصيل؛ يضاف إلى ذلك، حركة نشيطة، تسعى إلى كتلكة جديدة، قوامها المجمع الدينيّ، والتحرّر من كلّ التقاليد القديمة، التي كانت تربط الكنيسة بالدولة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

ويوضح تحقيق أُجري في فرنسا، سنة ١٩٩٤ أنّ ٨٣ في المئة من المؤمنين، يرَون أنّهم ملتزمون بأحكام ضميرهم فحسب، وأنّ واحدًا في المئة فقط من الكاثوليكيّين يخضع لعقيدة الكنيسة الرسميّة.

أجل، وربّما تكون فرنسا، من وجهة نظرها، أكثر دول أوروبّا علمانيّة، وإنّ وعي الروح الغاليّ لذاته، كان دائمًا عاملاً خاصًّا في الكنيسة. ومن الصعب أن نعرف بالضبط إلى أيّ مدًى يمكن أن تؤخذ هذه النسبة بعين التقدير. وصحيح جدًّا أنّ الكاثوليكيّة الفرنسيّة مختلفة كثيرًا عن سواها، ونلاحظ فيها حركات أصوليّة. ويكفي أن نراجع، على سبيل المثال، مجلّة «غوليا» (Golia)، أو مجلّة «الشهادة المسيحيّة» (Témoignage chrétien). ومن جهة ثانية، فقد بقيت هذه الكاثوليكيّة متمسّكة بقوّة بالتقليد. وإنّ حركة المونسينيور ليفيفر أو بقيّة الحركات التقليديّة داخل الكنيسة، بدت أقوى منها في فرنسا، من أيّ مكان آخر. وهكذا، يبدو التناقض واضحًا. ولكن، مع ذلك، يلحظ المرء هنا علامات تجديد، وحياة مسيحيّة، مفعمة بالفرح، وتحمل قوّة مستقبليّة.

ويبدو حاليًّا أنّ الانقلاب الأكبر حصل في أوروبّا الشرقيّة. فعلى الكنيسة هناك، وبعدما كانت كنيسة مقاومة، أن تؤدّي دورًا جديدًا كاملاً في المجتمع، بعد انهيار النظام الشيوعيّ.

لا أملك معلومات دقيقة حول هذا الموضوع، لأنّني لم أطّلع إلاّ قليلاً على التيّارات اللاهوتيّة، التي كانت موضوع انتقاد عندنا، وتسير في هذا الاتّجاه الحركة بوكور "Bokor"، التي أسّسها الأب البياريستي بولاني "Bulány" في هنغاريا. والأمر يتعلّق بطائفة أساسيّة، ولدت من تجارب الاضطهاد. وهي عبارة عن التطرّف المسيحيّ، الذي يعتمد حالةً شديدة المسالمة، ويتّخذ موقفًا مناهضًا من أساقفة النظام في البلد. وقد فشلت للأسف كلّ الجهود المبذولة للمصالحة حتّى الآن. وفي المقابل، فقد تحالفت هذه الحركة بقوّة مع النظريّات اللاهوتيّة الخطيرة في الغرب، التي ترفض كلّ تسلسل طبقيّ. ويرى هؤلاء أنّ الفرد يستطيع الانتماء إلى أيّ دين كان، شرط أن يتّخذ من وصيّة المحبّة شعارًا ساميًا له. أمّا في جمهوريّتَي تشيكيا وسلوفاكيا، فقد تطوّرت حركة من لفيف الكهنة السرّيّين، مستندة على اللاهوت النقديّ. ومع ذلك، فهذه ليست حركات دامغة؛ إذ لا يمكن، بعد طور كنيسة الشهداء، العودة إلى المرحلة السابقة للكنائس الرسميّة، لتكوين أتباع أحرار في الإيمان، مجبرين على تحديد علاقتهم بالمجتمع من جديد. فهذا

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

يستدعي الكثير من النضال الداخليّ. ولكنّه قد بقي من زمن الآلام إيمان قويّ، وترياق يشفي من بعض المحاولات والتجارب القويّة.

يلاحظ، في بولونيا على الأخصّ، مظاهر غابت عن مخيّلتنا منذ زمن بعيد، أقلّه في أوروبّا الغربيّة، وهي هذا الربط الوثيق بالكنيسة، الذي يشمل على حدّ سواء توجيهات السياسة الخاصّة والأشخاص.

إنّه بالطبع موضوع خاصّ، لا أعرف عنه معلومات دقيقة. ولكن، يجب ألاّ يغيب عن البال، أنّ لبولونيا تاريخًا ثوريًّا، كان يغلي بالقطيعة والحركات الثوريّة، التي كان يقوم بها الكاثوليكيّون. وقد انصهر كلّ ذلك، بطريقة فريدة، بالشعور الوطنيّ البولونيّ. وعندما تبدّلت السلطة البولونيّة، بقيت بولونيا بفضل الكنيسة، وحافظت على تلاحمها الداخليّ، على الرغم من التقسيمات على الأرض. وهكذا، استمالت الكنيسة هناك عاملاً سياسيًّا حاضرًا، مع تبدّل العيش والمعاناة. ولئن بقي هناك ترسّبات وتصفيات، فلأنّه من غيرالممكن ضبط الأمور، بين ليلة وضحاها.

يبدو أنّ الكاثوليكيّة الإنكليزيّة هي الوحيدة التي تزداد قوّة، وأنّ بريطانيا هي دائمًا الولد الضالّ المفضّل لدى الكنيسة الرومانيّة.

ما تزال الأنجليكانيّة الإنكليزيّة تحتفظ بعناصر من الكثلكة. وإنّ إنكليترّا وطائفتها الأنجليكانيّة ألّفتا دائمًا معًا وجهة وسيطة. فمن جهة أولى، قد انفصلت إنكليترّا عن روما، وأوجدت لنفسها سمة خاصّة بها. ويكفي، في هذا المجال، أن نشير إلى ما قاله الفيلسوف توماس هوبس: ينبغي أن يكون للدولة دين. وبالتالي، يوجد نوعان من المواطنين: الملحدون أوّلا، وأتباع الكرسيّ الرسوليّ، ثانيًا. ولهؤلاء الآخرين عاهل غريب. ويظهر من هذا أنّ المسافة الفاصلة بعيدة؛ ولكن، في الوقت عينه، هناك تعلّق بالتقليد الكاثوليكيّ، من جهة ثانية. وإنّ التيّارات، التي كانت تقوّي الإرث الكاثوليكيّ، استمرّت حيّة ونشيطة، وانقسمت دائمًا، وبغرابة، ما بين تأويل بروتستانتيّ، وتفسير كاثوليكيّ. وهذا ما يلاحظ في أزمتها الحاليّة. وهناك مناسبتان أنتجتا حالة جديدة، اتّساع مبدأ الأكثريّة في ما خصّ موضوع العقيدة، وتحويل سلطة القرار حول مسائل العقيدة، في الكنائس الوطنيّة. والمبدأان عبثيّان في حدّ ذاتهما؛ لأنّ العقيدة، إمّا أن تكون صحيحة، وإمّا ألاّ تكون، والأمر عائد، في هذه الحالة، إلى الأكثريّة، أو إلى الكنائس الوطنيّة، التي يمكنها أن تقرّر ذلك. وإنّ مقاومة سيامة

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

النساء، وحالات الاهتداء إلى الكاثوليكيّة، ينبغي فهمها من هذه الزاوية. ويبقى أنّ الكنيسة الرسميّة لا تريد التخلّي عن العنصر الكاثوليكيّ، وهي تقبل، بوعي منها، الأساقفة الذين لا يؤيّدون مبدأ سيامة النساء، فكأنّما هي تقدّم الملجأ لقسم من الكاثوليك الأنجليكانيّ. وهكذا، يبقى في الأنجليكانيّة قوّة كاثوليكيّة، تظهر بوضوح في الأزمة الحاضرة.

هناك بدع بروتستانتيّة جديدة في أميركا الجنوبيّة تجمع حولها ملايين المناصرين والأتباع، كما يلتحق بها مجموعات كبيرة من المؤمنين الكاثوليكيّين. وفي البرازيل، أكبر بلد كاثوليكيّ في العالم، تنشب معارك منظّمة بين الكنائس، فيتضارب الكاثوليكيّون ومناصرو البدع بالأيدي. فهل هذا نتيجة لفشل اللاهوت التحرّريّ؟ أو بطريقة أخرى: هل كان من الممكن تفادي هذا التطوّر، فيما لو شجّعت روما هذا اللاهوت؟

إنّ تشخيص هذه الحالة متعدّد الوجوه، ولا نملك عنه معرفة واضحة. ويرى كثيرون أنّ اللاهوت التحرّريّ لم ينجح يومًا في استمالة طبقة الشعب الذي يتوجّه إليها، وهي في الأساس الأكثر فقرًا. وعلى العكس من ذلك، فإنّ الفقراء هم الذين يهربون منه، لأنّهم يجدون نفسهم غير معنيّين بالوعود الفكريّة، ويعتقدون بأنّ اللاهوت يفقد حرارته ومقدرته على المصالحة؛ ولهذا توجّهوا نحو البدع. وبالطبع، فإنّ أنصار اللاهوت التحرّريّ يعترضون على ذلك. غير أنّ في الأمر جزءًا كبيرًا من الحقيقة. فبالنسبة إلى الفقراء المعدمين يبدو العالم الذي رسموه لهم نظريًّا بعيد المنال، فآثروا في أعماق ذواتهم، الأخذ بالدين الحاضر اللصيق بحياتهم. ومن هنا تدفّق الناس على البدع، التي قدّمت لهم ما لم تستطع تقديمه أيّ طائفة دينيّة أكثر تسييسًا.

ثمّ، أخذوا على البدع اجتذابهم الناس بالمال وإغراءهم بطريقة غير نظيفة. وقد يبدو هذا، في بعض جوانبه، صحيحًا؛ ولكنّه لا يعكس بشكل عامّ ما تتّصف به تلك البدع. ويجري كلّ هذا، كما لو كان سباق بين الكنائس الكاريسماتيّة، والعنصريّين، وأولئك الذين يمكن تسميتهم بالأصوليّين، وهم من أعضاء البدع المتشدّدين. ويأمل التيّار الكاريسماتيّ والتيّار العنصريّ، في أن يكون في الكنيسة طواعية أكبر، وجماعة أكثر تماسكًا. إذًا، كلّما أقللنا من تعقيد العقيدة، وتمرّسنا أكثر في العمل، يزداد فرحنا

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

في الإيمان. وتشير النزعة الأصوليّة الجوهريّة إلى أنّ المطلوب من الإيمان هو العمق اليقينيّ. وفي حال الخطأ والمعصية، يبقى هذا العمق أرض حياة.

وفي الإجمال، يمكن القول إنّ ظاهرة التعصّب الطائفيّ تضاءلت، وحصل تبادل بين الأتباع، وتنقّلٌ من طائفة إلى أخرى. وما تلك إلاّ مرحلة تؤدّي إلى ترك الدين. وإنّ هذه التطوّرات مرتبطة أيضًا بتغيير البنى الاجتماعيّة، وبعامل النزوح إلى المدن والتحضّر. فالناس يتركون الريف، ليعيشوا في تجمّعات سكنيّة مكتظّة في المدينة، حيث ينعدم وجود الدين، فلا يهتمّ بهم أحد من الناحية الدينيّة. وهكذا، تبدو الأسباب متعدّدة، ومن غير المنطقيّ إعطاء تشخيص بسيط لهذا الوضع.

أعلن عدد كبير من مطارنة الكنيسة الرومانيّة، في الولايات المتحدّة الأميركيّة، عن استعدادهم للردّ على المقالات المعارضة.

إنّ عدد المطارنة المعنيّين ليس بالكبير، فهو لا يتعدّى الثلاثين، وقد أصرّ أحد المحرّضين الرئيسيّين، في خلال حديث مشترك لي معه، أنّه قد أُسيء فهمه تمامًا. لقد أكّد على أنّهم كاثوليكيّون ملتزمون بلا شكّ، مخلصون للسلطة البابويّة، وأنّ كلّ ما يسعون إليه، هو تحديث الوسائل. لقد قرأت المخطوطات المعنيّة بدِقّة، كما أنّني قلت: أوافق تمامًا على عدد من الأمور التي وردت. لكنّني تحفّظت أيضًا على نقاط عديدة. بإمكاني أن أقول إنّه لا وجود لاتّجاه معارض لروما بشكل حقيقيّ وقاسٍ، داخل مجمع المطارنة الأميركيّ. إنّ مجمع الأساقفة الأميركيّ واسع النطاق، هذا جيّد أيضًا، وفي الواقع إنّ عدد الذين من الممكن أن يُسمَّوا بالمتطرّفين قليل جدًّا. لكنّ انطباعي بعد خمس عشرة سنة من عملي هنا، أنّ العلاقة بين روما وأميركا قد تحسّنت جدًّا. وبالاجمال، العلاقة مع مجمع الأساقفة الأميركيّين علاقة ممتازة. إنّ لهذا المجمع قرارات فكريّة ودينيّة كبيرة جدًّا، وفيه العديد من الرعاة الكبار، الذين كانت لهم مساهمات فعّالة جدًّا في تطوير تعاليم الكنيسة الكونيّة. إنّنا نستقبل هذا المجمع مرّتين سنويًّا، والحقيقة أنّ العلاقة القائمة بيننا علاقة عاطفيّة جدًّا.

هل تستطيع كنيسة أميركا الشماليّة الاستفادة من الصحوة الدينيّة التي تلوح في الأفق، في هذا البلد؟

على ما أعتقد، نعم. على الرغم من أنّه علينا التنبّه من تفسير بعض الحركات

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

والارتدادات الجماعيّة بشكل يعطيها حجمًا أكبر ممّا هي عليه في الواقع، لكنّها تؤكّد أيضًا أنّ الشباب الذي يعيش حالة انتفاضة دينيّة، قد وجد في الكنيسة عنوانًا، وفي شخص البابا مرجع وصورة قائد دينيّ. في الواقع، شهدت السنوات الخمس عشرة الأخيرة تطوّرًا إيجابيًّا وتدنّيًا ملحوظًا في حدّة التوتّر على أصعدة مختلفة. فبجانب حركة الارتداد، التي يشهدها وسط الكهنة الأنجليكانيّين، هناك علاقة جديدة بالأنجليكانيّين، وهم من كان في السابق من أقسى نقّاد الكنيسة الكاثوليكيّة. لقد تبلور تقارب مميّز بين الأنجليكان والكاثوليك في مؤتمر القاهرة وبيكين، سببه بسيط، وهو أنّهم اقتنعوا بأنّ الكاثوليكيّة لا تهدّد الكتاب المقدّس، كما كانوا يعتقدون حتّى الآن، إنّما هي ضمانة لجدّيّة التعامل مع الكتاب. ما لا يعني بالطبع، أنّ هذا التقارب سوف يقود سريعًا إلى الوحدة، لكنّه يفسح المجال أمام الكاثوليكيّة لتعود وتشكّل إحدى الامكانيّات الأميركيّة المقبولة في هذا الوسط.

ما هو الدافع المحتمل لهذه الصحوة الدينيّة في أميركا؟

بالتأكيد، هناك عناصر عديدة أعجز عن تفسيرها، لعدم معرفتي الكافية بأميركا. لكنّ الأكيد أنّ هناك إرادة توّاقة للأخلاق وللدين. كما أنّ هناك اعتراضًا رافضًا للقوّة العظيمة التي تملكها ثقافة الإعلام. وما قالته هيلاّري كلينتون – «لا تقبلوا بعد اليوم ما يُقدَّم لكم، أقفلوا أجهزة التلفزيون»–، يظهر، أنّ هناك تيّارًا عريضًا يرفض الرضوخ بعد الآن لهذه الثقافة.

في أفريقيا، يشعر الكاثوليك السود، وكأنّ روما تعاملهم دائمًا على أنّهم «أبناء الجارية» ويناضلون من أجل رفع شأنهم. من جهة أخرى، تعيش الكنيسة في القارّة الأفريقيّة مشاكل جمّة، عندما تحاول استيعاب الطقوس الأفريقيّة كلّها والعلامات الفارقة في ثقافتها. مثلاً: هل يسمح بقرع الطبول، أو الرقص، خلال القدّاس، وكيف الحال في تعدّد الزيجات. إنّ الكثيرين من الأفريقيّين يقولون: أنا كاثوليكيّ ملتزم، وكذلك هنّ زوجاتي الثلاث. من ناحية أخرى، نشهد سباقًا مع الإسلام، الذي يعتقد الأفريقيّون أنّه أقرب إليهم، لأنّه أقرب إلى تقاليدهم.

إنّ أفريقيا هي قارّة الرجاء، كما هو معروف، لكنّها أيضًا قارّة كثيرة المشاكل والتوتّرات. من الطبيعيّ أن يخجلنا تحوّل روندا وبوروندي الكاثوليكيّتين إلى مسرح لأفظع الجرائم.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

بهذا المعنى، علينا التفكير جيّدًا لنعرف كيف نحوّل الإنجيل إلى عنصر فعّال في الحياة الاجتماعيّة.

لا يخامرني الشعور، خصوصًا بعد سينودس أفريقيا، واللقاءات العديدة مع الأساقفة الأفارقة، بأنّ أفريقيا تشعر وكأنّ روما تعاملها معاملة سيّئة. على العكس، إنّ الأفارقة جميعهم يعتزّون بانتمائهم لمرجع كبير كالكنيسة الكاثوليكيّة، وإنّ انتماءهم كامل المساواة، وإنّ الأسقف الأفريقيّ، أو الكاردينال، هو على ذات المستوى مع الكاردينال الإيطاليّ أو الإسبانيّ أو الأميركيّ. كما أنّ هناك إخلاصًا صادقًا نابعًا من القلب عند الكثيرين تجاه روما، ومحبّة للكرسيّ البابويّ، وسعادة بكونهم كاثوليكيّين. عندما يدور الحديث حول أسئلة أو خلافات لاهوتيّة، يقول لنا الأساقفة الأفارقة دائمًا: إذا كان هناك من يتعدّى الحدود، فبالتأكيد ليسوا الأساقفة الأفارقة، إنّما هم اللاهوتيّون الأوروبّيّون. قد تكون هذه الملاحظة مبسّطة، لكنّها صحيحة، فغالبًا ما يقف الأوروبّيّون خلف الانتقادات السلبيّة. هذا لا يعني أنّ لا أسئلة مبهمة في الواقع؛ إنّها بالطبع موجودة. لكنّنا لا يمكننا القول إنّه هناك تيّارات مضادّة لروما في اللاهوت الأفريقيّ.

لقد تكلّمت على ميدانين رئيسيّين، هما مظهران من مظاهر اندماج الثقافات: الزواج والليتورجيّا. إنّني أعتقد، أنّ السؤال حول تعدّد الزوجات، يُطرح في أوروبّا، من نقطة انطلاق خاطئة. فالمشكلات ليست عاطفيّة وإنّما في أغلب الأحيان حقوق ماليّة ومشاكل اجتماعيّة. كيف يمكن تأمين الحياة الكريمة لهذه المرأة؟ وكيف يمكن تقوية مكانتها في المجتمع؟ لأنّ الزواج لا يكون دافعه الحبّ فقط، إنّما هما عشيرتان تتزاوجان، إنّه تبادل للممتلكات. هنا، لا تشكّل الحالات الشعوريّة المشكلة. لكنّ السؤال الأساسيّ هو كيف تتمكّن امرأة فقدت زوجها، ولم تعد تنتمي إلى أيّ اتّحاد قويّ، أن تحافظ في هذا المجتمع على مكانة محدّدة لها. المشكلة هي اذًا هنا مشكلة تتعلّق بالتركيبة الاجتماعيّة، والسؤال هو، كيف يمكننا خلق تركيبة اجتماعيّة، تسمح للزواج الأحاديّ أن يكون الخليّة الأساسيّة للتركيبة الاجتماعيّة. العديد من الأساقفة الأفارقة متفائلون فيما يتعلّق بهذه النقطة، ولا يمكنني هنا الحكم بشكل جازم.

أمّا فيما يتعلّق بالليتورجيّا، فهناك من جهة حرّيّات جديدة ومتعدّدة، تسمح حتّى للعادات والمشاعر الأفريقيّة بأن تجد مكانها المناسب؛ من جهة أخرى، من المهمّ أن تحافظ الليتورجيّا المسيحيّة على بعض رزانتها، وألاّ تُطمس بشكل سريع. حتّى إنّ

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

العديد من الأفارقة يشاطروننا الرأي هنا. وهم يعتقدون، مثلنا، بأنّ تزاوج الثقافات ليس من الضروريّ أن يبدأ بالإفخارستيّا.

صحيح أنّ الإسلام يجتاح أفريقيا بشكل عارم – من خلال القوّة المادّيّة أيضًا، ويدّعي أنّه الدين الأنسب للأفارقة – كما أنّه صحيح أيضًا أنّ على الأفارقة تخطّي الديانات القبليّة المسيطرة، والإسلام يقول: إنّنا الدين الأنسب لأفريقيا، لأنّ تعاليمنا ليست معقّدة، كما أنّ أهدافنا الأخلاقيّة ليست بعيدة عنكم. على الرغم من أنّ ذلك يلاقي تجاوبًا جزئيًّا، لكنّه يبقى بعيدًا عن أن يكون عامًّا. دور الإسلام الرائد في الحركات الاستعباديّة ما زال حاضرًا، وبشكل عامّ. كان بعيدًا كلّ البعد عن إظهار الاحترام للسود في الماضي. أهمّ ما في الأمر أنّ الإسلام لا يقدّم أيّ تنازلات فيما يتعلّق بتداخل الثقافات. الإسلام عربيّ، ومن يريد الإسلام، عليه أن يتبنّى طريقة حياة محدّدة. الأمر بعيد هنا عن أيّ تمازج في الثقافات، وهو ما يعرّض الإسلام إلى المشاكل نفسها، التي تعيشها الكنيسة، حيث يشكّل إحدى طبقات الحياة. أمّا ما يبقى في القعر، فهو هذه الطريقة الوثنيّة القديمة، ويشكّل الإسلام غطاءً رقيقًا فوق العادات الحياتيّة الأساسيّة. لذا، أرى أنّ الصراع حول الشكل الدينيّ للقارّة الأفريقيّة مستمرّ وصعب.

آسيا: إنّ لمنطقة المحيط الهادي دورًا اقتصاديًّا كبيرًا، وسياسيًّا مهمًّا في القرن القادم. هل ستتأثّر الكنيسة بذلك؟

من الصعب جدًّا التكهّن هنا. حتّى الآن لم يكن بإمكان أيّة كنيسة، بقطع النظر عن الفيليبّين أن ترسّخ دعائمها في آسيا. وهو ما لا يعني أبدًا أنّ المسيحيّة بقيت عديمة الأهمّيّة. لقد تركت آثارًا مختلفة، وبأشكال متعدّدة في المجتمعات، كما أنّها ساهمت في تحويل الديانات المتمركزة هناك. عدد الكاثوليك الموجودين في اليابان قليل، لكنّه ثابت. لكنّ الاهتمام بالعادات وبالحضارة الكاثوليكيّة كبير جدًّا. إذًا، المسيحيّة موجودة في الواقع الاجتماعيّ. قد لا تكون على شكل التزام حياتيّ طوال العمر. إنّما هي بالطبع قوّة فعّالة في المجتمع.

أمّا في الهند، فالنسبة قليلة جدًّا، لكنّ الهندوسيّة الجديدة، والتي تكتسب أهمّيّة كبرى في العالم كلّه، تشبّعت بعناصر عديدة من المسيحيّة، بأشكالها المتحرّرة. تبقى الصين مقفلة في وجهنا، وحيث لا يشكّل المسيحيّون، من حيث العدد، سوى قلّة على طريق الانقراض، لكنّهم يتمتّعون بقوّة معنويّة مهمّة. وما الأهمّيّة التي يعيرها لهم القائمون

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الشيوعيّون على السلطة إلاّ دليلاً على القوّة المكتنزة فيهم. لكنّني لا أتجرّأ على التنبّؤ كيف سيؤثّر ذلك في التوزيع الجديد لموازين الثقل في آسيا وضمن النظام العالميّ.

إنّ الكنيسة تواجه وضعًا دقيقًا وجديدًا، من خلال الملاحقة المتزايدة، التي يتعرّض لها المسيحيّون في العالم.

نعم، إنّ ذلك يحدث بأوجه مختلفة. في الصين مثلاً، على الرغم من البدايات الخجولة لبعض أوجه التسامح، ما زال هناك قمع للمسيحيّة، وبالأخصّ للمسيحيّة المرتبطة بالكرسيّ الرسوليّ. وهذه هي الحال في عددٍ من البلدان. إنّ هذا جزء من قدر الكنيسة – أن تجد نفسها، وفي أزمان مختلفة، وفي ظلّ نظمٍ متنوّعة، عرضةً للقمع. كما أنّ هناك خطرًا من نوعٍ آخر، يتزايد بشكلٍ تدريجيّ، يكمن في ظهور مفهوم جديد للعالم، يُصوّر الإيمان الكاثوليكيّ على أنّه غير متسامح، وعلى أنّه موروث من التاريخ، يستحيل انسجامه مع الحداثة، لذا، يجب قمعه. وأرى هنا الخطر كبيرًا، وإن كان لا يزال بعيدًا. لكنّ الضغط، الذي يمارسه المجتمع على الكنيسة، ليرغمها على التجاوب مع ما يعدّه مقياسًا عامًّا، موجود الآن وبشكلٍ واضح.

هل بإمكاننا تصنيف هذا على أنّه قمع للمسيحيّين؟ هناك فرق شاسع بين القمع الذي يتعرّض له المسيحيّون في الدول الإسلاميّة أو الدكتاتوريّة، حيث يدخلون السجون ويتعرّضون للتعذيب – وبين التحجيم، إلى حدّ التغيّب أو النسيان، في المجتمعات الغربيّة.

طبيعيّ أنّ هذا بعيد عن أن يكون اضطهادًا، ومن الغلط استعمال هذا التعبير هنا. لكنّ هذا لا يمنع وجود مجالات عديدة في الحياة، حيث تحتاج اليوم إلى الكثير من الشجاعة، حتّى تُعرّف عن نفسك بأنّك مسيحيّ. وبالأخصّ، يزداد الخطر الكامن في قبول المجتمع وترحيبه « بالمسيحيّة المتأقلمة» والنظر إليها، على أنّهم المثل اللطيف للمسيحيّة، تجاه الإنسان، في تقابل تصنيف من لا يقبل السير في التيّار السائد على أنّه أصوليّ. إنّ خطر «دكتاتوريّة الرأي» يزداد، ومن لا يتماش معه يُعزل، حيث لا يتجرّأ حتّى الناس الجيّدون على الاعتراف بعدم تطابقهم مع الرأي السائد. إنّ الدكتاتوريّة، التي قد تنشأ في المستقبل، والمعادية للمسيحيّة، من الممكن أن تكون رقيقة ودقيقة، على نحوٍ لم نعرفه بعد، حتّى الآن. قد تظهر على أنّها ودّيّة تجاه الديانات، شريطة أن لا تمسّ هذه الأخيرة نماذج تفكيرها وتصرّفها.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الوضع في ألمانيا

يظهر، أنّنا لا نشهد ارتدادًا عن الدين، وتفاقمًا في الخلاف، في أي مكان آخر، كما في ألمانيا وفي البلدان الناطقة باللغة الألمانيّة. على الرغم من أنّ الكنيسة الألمانيّة هي إحدى أغنى الكنائس في العالم، لكنّ نفوذها في المجتمع هو أضعف من نفوذ أفقر كنيسة في أفقر المجتمعات. إنّ الاحتجاج بوجه البابا وبوجه الكنيسة الرومانيّة لم يكن يومًا، منذ المجمع الفاتيكانيّ الأوّل، أي منذ أكثر من مئة سنة، على هذا المستوى المرتفع. ماذا يحدث هنا؟ هل تنظر بقلق وحزن إلى بلدك الأوّل؟

بقلق أقول نعم، وذلك لأنّ الانقسام داخل الكنيسة، والضجر من الإيمان، يتزايدان على كلّ الأصعدة. فمن ناحية، هناك الأوساط الحديثة، حيث كلّنا نعلم أنّ الإصلاحات تبقى غير كافية بنظرهم، فينهض مَن يعارضون البابويّة وتعاليمها. ومن ناحية أخرى، هناك ما يُسمّى « بالكاثوليك الصالحين» الذين يتزايد شعورهم بعدم الارتياح داخل الكنيسة، فهم يشعرون بالغربة داخل كنيستهم، يتألّمون ويحزنون؛ لأنّ الكنيسة لم تعد ملجأ أمان وسلام، إنّما هي موضع جدل دائم، يحوّلهم إلى مضطربين ومعترضين. إنّ هذا الانشقاق الداخليّ في الكنيسة، والذي يدفعنا إلى الاستياء من الكنيسة، وفي الوقت نفسه، إلى الحزن عليها، هو بالفعل داعية للقلق. زد على ذلك ظواهر الشيخوخة المقلقة، التي بدأت تظهر في الكنيسة: فالاضمحلال البطيء لبعض الكنائس الأخوات، وانعدام الانتفاضات الكبيرة، التي كانت لها دلالات مهمّة في الماضي، قد أصبحت، على ما يبدو، جزءًا من التاريخ.

قسم كبير من العامّة يطالب بفصل أعمق وأوضح بين الكنيسة والدولة. على طاولة النقاش، حذف مفهوم الله من الدستور، وإلغاء أيّام العطلة الرسميّة، علاوةً على

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

عطلة نهار الأحد، والضرائب العائدة للكنيسة[1]. *أضف إلى أنّ السؤال حول الصليب المعلّق في قاعات التعليم، تحوّل إلى جدل قانونيّ.*

من الطبيعيّ أن يعود السؤال، حول العلاقة الصحيحة، التي يجب أن تقوم بين الدولة والكنيسة دائمًا ومجدّدًا، إلى نطاق البحث. طالما أنّ هناك توافقًا في المجتمع، يقبل بأن تشكّل القيم المسيحيّة الأساسيّة القاعدة الأوّليّة للدستور، سوف يبقى التداخل العميق بين الدولة والمجتمع والكنيسة قائمًا ومقبولاً، وهو لا يقف عائقًا بوجه الحرّيّات الدينيّة. لكن، عندما تزول القناعات، التي شكّلت الأساس لهذا التوافق، فمن الطبيعيّ أن يهدّد الخطر مستقبل التشابك القويّ بين السلطات المختلفة. لذلك، أنا لست معارضًا مبدئيًّا لفكرة اللجوء، وفي بعض الحالات، إلى الفصل النهائيّ. إنّ الكنيسة استفادت أكثر، عندما اضطرّت، بعد الحرب العالميّة الأولى، إلى الانفصال عن التركيبات المتداخلة مع الدولة. بشكلٍ عامّ، كانت تجربة الارتباطات القويّة دائمًا مسيئة للكنيسة. لذلك، أعتقد بأنّه على الأساقفة في ألمانيا أن يبحثوا، بشكلٍ واقعيّ جدًّا، عن أوجه ارتباط بين الكنيسة والدولة، تكون فعلاً نابعة من قناعات عميقة، وتحظى على موافقة الأغلبيّة الواسعة، حتّى تكون فعلاً منتجة، وأن نبتعد عن محاولة المحافظة على مواقع، لم يعد لنا حقّ الإصرار على التمسّك بها. إنّ محاولة إدراك هذا الواقع، هي بالتأكيد مفيدة وضروريّة. أمّا النقاط التي ذكرتها في سؤالك، فأجد أنّ الجواب عليها يختلف باختلاف النقاط؛ ما زلت مقتنعًا بأنّ وجود الله في الدستور مهمّ جدًّا، إنّ ذلك لا يرتبط بأيّة شهادة مسيحيّة محدّدة. عندما نتحرّر، نتخلّص نهائيًّا من أنّ هناك معيارًا وسيّدًا أعلى منّا، يقتضي بنا عندئذٍ أن ننصّب مكانه أيديولوجيّات، أو نترك كلّ شيء في طريقه للانحلال. إنّ لاهوتيًّا لاذعًا كبولتمن، قال مرّة: «من الممكن أن تقوم دولة غير مسيحيّة، ولكن، من غير الممكن أن تقوم دولة ملحدة». إنّني أظنّ أنّه مُحقٌّ في المبدأ، فحيث لا معيار يعلو فوق رأينا الخاصّ يسود الاستبداد المتزايد المتعسّف وينهار الإنسان. أمّا النقاط الأخرى، كالسؤال حول الضرائب العائدة للكنيسة، فكلّها أسئلة يجب بحثها برويّة وتعقّل.

---

(١) لا يوجد في ألمانيا هبة عبادة. والجميع يؤدّي الضريبة المخصّصة للكنيسة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

سؤالُ محرج: ما هو المخرج برأيك؟

لا أتجرّأ على إصدار الحكم. بشكلٍ عامّ، وعلى ما يبدو لي، أنّ نظام الضرائب الألمانيّ يتمتّع بقبول واسع؛ لأنّ الخدمات الاجتماعيّة التي تقدّمها الكنيسة تحظى بالاعتراف. قد يتحوّل في المستقبل باتّجاه النموذج الإيطاليّ، الذي يفرض ضرائب أخفّ من جهة، كما أنّ الفرد ضمنه يتمتّع بحرّيّة أوسع. على كلّ فرد في إيطاليا أن يدفع نسبة معيّنة من دخله – و ٨ على ما أعتقد – لجهات خيريّة أو ثقافيّة ما، من بينها الكنيسة الكاثوليكيّة، تبقى له حرّيّة الاختيار. في الواقع، الغالبيّة تختار الكنيسة الكاثوليكيّة، لكنّ حرّيّة الاختيار مضمونة.

كيف وجدت الحكم الصادر عن المحكمة العليا في كارلسرويه[٢]*؟*

بالطبع، إنّني كنت مغتاظًا، لأنّ أسس الحكم، في رأيي، ضعيفة ومُشكّك فيها. ولأنّني كنت مقتنعًا وما أزال، أنّه عندنا من الإرث المسيحيّ المشترك ما يُعطي لهذا الرمز في مدارسنا معنًى عميقًا. أنا مستاء، بمعنًى آخر أيضًا، لأنّه كما أعتقد يجب احترام التوافق الجماعيّ، أي إنّه من الجانب الديموقراطيّ، بُني هذا الحكم على قاعدة ضعيفة جدًّا. لقد برهنت ردّات الفعل أنّه ما زال عندنا إدراك قوميّ أساسيّ مسيحيّ موجود، قد يختلف بقوّته من إقليم إلى آخر. فكما سمعت، كانت ردّات الفعل في بايرن غير ردّات الفعل في مجلس الأساقفة في ميكلنبورغ ـ فوربومرن. في هذه الأقاليم أُزيل رمز الصليب، منذ زمن طويل، كما هو الحال في ألمانيا الشماليّة. وهو ما يوضح لنا أنّ هذا السؤال بعيد عن أن يكون سؤالاً عقائديًّا. لكنّني لا أجد أنّه من الصواب التملّص، وبهذه السهولة، من رمزٍ يوحّدنا، ولاسيّما وإنّ الدستور في منطقة بايرن لا يزال يصرّ، وبشكل غير قابل للتفسير، بحسب معلوماتي، أنّ المسيحيّة هي الأساس لمبادئ التربية.

إذًا يصرّ رئيس مجمع الإيمان على القول: دعوا الصليب في المدارس!

نعم.

---

(٢) حرّمت محكمة «كارلسرويه» الدستوريّة، في ١٩٩٥/٥/١٦، تعليق الصلبان على الجدران، في المدارس غير الدينيّة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لماذا تُشكّل ألمانيا أرضًا خصبة للانشقاقات؟ ما هو هذا البلد؟ أيّة روحانيّة تُخيّم عليه، أو أيّ شرّ يتشبّث به؟ أو هل نعاني في هذا البلد عقدة نقص تصبغ وجودنا، فنعوّض عنها بمزيدٍ من الإنتاج والتفوّق؟ قال غريلبارتسر مرّة: «الله غير موجود في واقع الألمان، هم يعتبرونه صنيعتهم، وليس العكس».

أرى أنّه يجب ألاّ نبالغ، نحن الألمان، في لوم أنفسنا. في بلدان أخرى كفرنسا، إسبانيا، إيطاليا أو حتّى بريطانيا، نجد أيضًا أنّ لديهم مشاكلهم الكبيرة داخل كنيستهم، كما نجد الحركات المعادية للمسيحيّة. لكن، بالطبع ألمانيا ترزح تحت حمل تاريخها، والذي ازداد ثقلاً بعد ١٩٣٣–١٩٤٥. لذلك، يجب البحث بإصرار لمحاولة فهم ماذا جرى لشعبنا، حتّى حدث ما حدث في تلك السنين.

على ما أعتقد، فضائل الألمان مرتبطة بشكلٍ وثيق بالخطر والمهالك. فمن جهة، نحن شعب يقدّر النظام، الإنتاج، العمل، الدقّة، وبفضل هذه الصفات، نتمكّن من إنجاز مهمّات صعبة. لقد عدنا من جديد لنشكّل أقوى قوّة اقتصاديّة داخل أوروبّا، لكنّ هذا قد يقودنا بخفّة إلى نوعٍ من الغرور، وإلى طريقة تفكير محدودة تمجّد العمل، الإنتاج، التفوّق، النظام، لكنّها تهمل أبعادًا عديدة مختلفة من الوجود الإنسانيّ. كما أنّ هذا قد يقود إلى الاستخفاف بالأمم الأخرى، كالقول مثلاً: إنّ الألمان هم الوحيدون القادرون على إنجاز عمل متقن. أمّا الباقون، فهم مغفّلون وإلخ. لا شكّ في أنّ محاولة الامتياز هذه، والتصنيف المنحاز، الذي يعتمد الإنتاج كمقياس، هي صفة خاصّة تطبع الألمانيّ، وبالأخصّ في التاريخ الحديث، فعلينا مجابهتها.

على ما يبدو فإنّ هذه تتعدّى التاريخ الألمانيّ الحديث. لقد حاول ستيفان سفايغ أن يُجسّد صفات الطبع الألمانيّ، من خلال تحديد شخصيّتين، هما إراسموس (Erasmus) فون نوتردام ولوثر. نادرًا ما أبرز قدر العالم شخصيّتين متكاملتين في تناقضهما مثل لوثر وإراسموس، فقد رمز هذا الأخير إلى سماحة النفس إزاء التعصّب، والعقلانيّة إزاء والانفعال، الحضارة إزاء القوى الجامحة الفطريّة، المواطنيّة العالميّة إزاء القوميّة الوطنيّة، التطوّر إزاء الثورة. كما وُجد عند لوثر هذه النبرة المتعصّبة، الديماغوجيّة في كلّ مكان. لقد أُعطي هذا الشخص أن يُجسّد المشاعر المحتقنة كلّها لشعبٍ كامل، لكنّها وقعت في يد شخصٍ متعصّب ومشاغب، «جسّد في شخصه مجموع الضمير القوميّ لألمانيا

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الطامح إلى الانتفاضة، ضدالشعوب اللاتينيّة والامبراطوريّة، فقد جسّد كلّ الكره ضدّ الإكليروس، ضدّ الغرباء، فكان النار السوداء الاجتماعيّة والدينيّة».

من دون أيّ شك، اكتسبت ألمانيا، خلال قرن الثورة البروتستانتيّة، ملامح خاصّة، كما أنّ هذه المرحلة برمجت سلفًا تاريخها المستقبليّ إلى حدٍ ما. إنّني أجد المقابلة، بين لوثر وإراسموس مشوّقة جدًّا، ولكن قد تكون نقاط التركيز منحازة بعض الشيء. لا يحقّ لنا أن ننسى، أنّ إراسموس، في اتّخاذ المواقف الحاسمة– تخاذل وتراجع كثيرًا أمام لوثر–كما أنّ الأوساط الكاثوليكيّة اتّهمته بانعدام الصفاء في صفاته الأخلاقيّة. لقد حاول، كما نعبّر اليوم، التملّص بطريقة أكّاديميّة من القرارات المصيريّة الكبرى، وهذا غير مسموح، لأنّه بذلك تخاذل أمام قرارات مرتبطة بدراما المصير الإنسانيّ. بهذا المعنى، لم يكن إراسموس هذا الشخص اللامع بمواجهة لوثر القاتم. لكلّ الشخصيّتين مشاكلهما. بالطبع، علينا التساؤل، ما هي الصفات المريبة التي دخلت إلى الطبع الألمانيّ من خلال الثورة الدينيّة، ولنكون عادلين علينا ربطها بسؤال آخر: ماذا تولّد الكاثوليكيّة فينا من مشاكل؟ على ما أعتقد، في هذين السؤالين تكمن مسؤوليّة مميّزة للحوار بين الكنائس في ألمانيا. لا يحقّ لنا إخفاء السلبيّات ـ إلى جانب الكثير من الحسنات ـ التي دخلت التاريخ الألمانيّ، من خلال لوثر، لكن، يجب أن لا يتحوّل النقاش إلى حوار حادّ، أو إلى الإصرار على ادّعاء العصمة.

يبدو، أنّ الجدل مع الكنيسة لا يدور في الوقت الحاضر حول محتوى الإيمان بحدّ ذاته أو متطلّباته. من الغريب أنّه لا يدور أيضًا حول موضوعات اجتماعيّة مثل الفقر، الاستغلال، التفقير. لقد صرّحتَ مرّة عن شكّك بأنّ الكثيرين يرغبون أن تنضمّ الكنيسة إلى الرأي السائد، أن لا تعكّر صفاء الإنسان الحديث الوقح الغارق في ملله.

أعتقد بأنّ هذه هي الحال في أغلب التيّارات. لكن، قد يكون علينا هنا الاستطراد والقول إنّه حتّى النقاشات داخل الكنيسة قد تجمّدت حول نقاط معيّنة، وتركت جانبًا أكبر تحدّيات عصرنا. أينما تحضر فوروم (Forum) للأساقفة، أو أيّ اجتماع آخر، تدرك مسبّقًا ما هي الأسئلة التي ستطرح: العزوبة، حقّ الكهنوت للنساء وزواج المطلّقين. إنّها أسئلة مهمّة بحدّ ذاتها. لكنّ هناك انهماكًا داخل الكنيسة ببعض النقاط الثابتة. وهنا نتجاهل أنّ ٨٠ بالمئة في الخارج ليسوا بمسيحيّين، وهم ينتظرون الإنجيل، أو أنّ

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الإنجيل خُصّص لهم أيضًا، وأنّه علينا عدم الانهماك دائمًا بأسئلتنا الخاصّة، بل علينا التفكير: كيف يمكننا بوضعنا كمسيحيّين اليوم، في هذا العالم، التعبير عمّا نؤمن به، بشكلٍ نتوجّه فيه أيضًا إلى الآخرين. على كلّ حال، تسود في ألمانيا حالة من الضيق الهائل في الضمير الكنسيّ. نحن ننظر فقط إلى ذاتنا، ننشغل فقط بأنفسنا، نعالج جروحنا، نريد أن نبني كنيسة جميلة، وننسى أنّ الكنيسة ليس هدفها ذاتها، إنّما الكلمة التي نملكها، والتي يجب أن تعلن للعالم أجمع، وأن يصغي إليها، لأنّ بإمكانها أن تعطي الجديد. إنّنا ننسى جانبًا مهمّاتنا الأساسيّة.

ألا يهمل الفاتيكان، إلى حدٍّ ما، التطوّرات التي تحدث في ألمانيا؟ يتخيّل المراقب أنّ حدّة التطوّرات لا تواجهها محاسبة دقيقة؟

من الصحيح أنّ اللغة الألمانيّة ليست موجودة بشكلٍ قويّ في الإدارة المركزيّة البابويّة. هنا، يتقنون اللغات الرومانيّة – ومن جديد الإنكليزيّة ـ أمّا الألمانيّة، فتبقى بعيدةً نوعًا ما عن حقل المراقبة. من جهة أخرى، هناك وجود واضح وجديد للألمان ولألمانيا في روما. قد يكون من الصعب على روما إدراك خصائص الحالة الألمانيّة، لأنّها غالبًا ما تكون مرتبطة بنظريّات أكّاديميّة، بعيدة عن البراءة، صعبة الفهم على من يعيش في جوّ حضاريّ مختلف. بهذا المعنى، يصحّ القول إنّ الحوار مع ألمانيا يعرِج بعض الشيء. لكنّني أجد أنّ ردّات الفعل السريعة لها أيضًا حسناتها. على الرغم من كلّ ما سبق، أرى أنّ الحوار مع الأساقفة الألمان يجب أن يتعمّق.

ما هي خطورة الأزمة الحاليّة للكنيسة؟ وهل هذا هو التحدّي الأكبر منذ بدايات الكنيسة؟ وماذا تعني أزمة الكنيسة للعالم؟ لقد أوضحت مرّة قائلاً: إنّ اختفاء الكنيسة سوف يحدث زلزالاً أخلاقيًّا، من الصعب علينا أن ندرك أبعاده الآن.

على السؤال الأوّل، أجيب: لا أدري. بالتأكيد هذه الأزمة هي إحدى التحدّيات الكبرى. لكنّ الكنيسة القديمة عرفت أزمتين صعبتين. الأولى كانت الغنوصيّة، عندما بدأت الطقوس، وكذلك الإيمان، بالتحوّل داخل الكنيسة، وبشكل تدريجيّ، إلى إيديولوجيّات، وإلى أساطير، وإلى صور، إلى حدّ أنّها كانت تسيطر، دون أن يشعر بها أحد من الناس، على الكنيسة جمعاء. عندما نقرأ اليوم تاريخ هذه المرحلة، نتصوّر أنّه كان هناك من جهة الغنوصيّون، ومن جهة أخرى آباء الكنيسة. لكنّ هذا بعيد عن الصحّة، فالحقيقة هي أنّ الجهتين كانتا متشابكتين ومتداخلتين تمامًا، وأنّ الفصل بينهما

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

تمّ عبر الزمن وببطء. كما جرت محاولة التخلّص من العهد القديم، السهل والمشوّق للفهم، والاكتفاء ببولس. إذًا، كانت هناك محاولات لتحقيق الذات معقّدة جدًّا. زد على ذلك أنّه كان هناك، ومنذ البدايات، دائرة مركزيّة لتعليم الدين، كانت مخوّلة للتدّخل بشكل سهل وفعّال. بالتالي، توجّب التغلّب خطوة خطوة على مراحل الخلاف. أتصوّر أنّها كانت أزمة كبيرة، وخصوصًا في بدايات المسيحيّة، حيث توجّب عليها تشكيل ذاتها.

الأزمة الثانية – على الرغم من أنّها لم تكن كبيرة وجوهريّة، كسابقتها، لكنّها شكّلت تحدّيًا كبيرًا – وهي الأزمة الأريوسيّة، عندما راهن القيصر، ولو لفترة محدودة، على الأريانيّة، بسبب سهولة انسجامها مع العقليّة السائدة. والنموذج هو التالي: اللّه موجود، وهناك المسيح الذي هو مخلوق من صنف الآلهة – هذا سهل الفهم للجميع. لقد حرّك النظام السياسيّ بكامله لتثبيت هذا النموذج. حتّى إنّ مجموعة كبيرة من الأساقفة سقطت في هذا الشرك، إن لم نقل مجامع أساقفة بكاملها. في نهاية الأمر، تحوّل العالم الجرمانيّ كلّه إلى الأريوسيّة، وبهذا كان العالم القديم، أي الرومان كاثوليكيًّا. بينما العالم الجديد، أي الجرمان، كانوا أريوسيّين. اعتقد المرء بهذا أنّه من السهل التحديد، في أيّ اتّجاه يميل الحديث، أي المستقبل.

كما أعتقد، إنّ أزمة القرن السادس عشر كانت أيضًا خطرة، على الرغم من أنّها لم تطل الجذور، وذلك لأنّ قانون الإيمان بقي مقبولاً عند الفريقين. إنّما الضياع الداخليّ، الذي حلّ بالكنيسة، كان كبيرًا إلى حدّ أنّه، حتّى الحركة الإصلاحيّة سريعًا ما تشعبّت إلى حركات، البعض منها جذريّ جدًّا.

ما نعيشه اليوم إذًا، قد لا يكون أكبر تحدٍّ واجهته الكنيسة، منذ بداية تاريخها. إنّه أحد التحدّيات الذي يطال الجذور.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أسباب الانحطاط

كيف كان معقولاً أن تصل أزمة الكنيسة إلى هذا الحدّ؟ وأعني بسؤالي أوّلاً الأسباب المحتملة التي نجدها خارج الكنيسة؟

من الأكيد أنّه ظهرت، ومنذ عصر التنوير، تيّارات قويّة ترى في الكنيسة رمزًا أثريًّا. ومن المؤكّد أنّه، كلّما انطلقت قوى التيّارات الفكريّة الحديثة، ازداد الخلاف حدّةً. حتّى لو أنّ القرن التاسع عشر قد شهد تيّارات ارتداد إلى الكنيسة، لكنّ الميل العامّ استمرّ بالاتّجاه المعاكس. ما يمكن إثباته علميًّا هو المقياس الأوحد: وكما يشرح لنا بولتمان ـ ينتج عن ذلك عالم حديث غارق إلى أقصى الحدود في الديماغوجيّة. فهو يعتبر أنّ تدخّل الله في الكون، من خلال التجلّي أو العجائب مرفوض. بإمكان الإنسان أن يكون له دين، لكن يقتصر على شخصه ولا يمكن أن يتعدّاه إلى ما هو موضوع، أو أن يتضمّن ما قد يصلح للجميع، لأنّه، وبشكل مطلق، فالعقيدة متعارضة في أساسها مع العقل الإنسانيّ. إنّ الكنيسة تقف الآن وسط هذه الرياح المعاكسة للتاريخ. وهذه الرياح سوف تستمرّ في المستقبل.

وعلى الرغم من كلّ شيء، يتّضح الطابع الأحاديّ لهذه الحالة الجوهريّة الموروثة من عصر التنوير؛ لأنّ الدين ذا الخاصّيّة الذاتيّة القحّ لم تعد له قوّة مثقّفة ومهذّبة؛ الفرد هو الذي يبني ذاته بنفسه. وإنّ العقليّة البسيطة المحصورة بعلوم الطبيعة، لا يمكن أن تجيب عن التساؤلات الدقيقة والخاصّة من مثل: من أين جئنا؟ ما أنا؟ كيف ينبغي لي أن أعيش؟ ولماذا أنا هنا؟ ولهذه التساؤلات مستوًى آخر من البعد العقليّ، ولا يمكن تركها للذاتيّة البسيطة أو للامعقول. لذلك، وفي المستقبل القريب، لن تعود الكنيسة لتؤدّي الدور المشكل في طريقة حياة المجتمع بكامله. لن يكون هناك قرون وسطى قادمة، بأيّة حال، ليس في المستقبل القريب، لكنّها سوف تبقى دائمًا تيّارًا تكميليًّا أو بالأحرى معاكسًا للنظرة الكونيّة المسيطرة. إنّما سوف تثبت وتؤكّد من جديد الحاجة إليها، وإلى ضرورتها الإنسانيّة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

في نهاية عصر التنوير، وحتّى ما قبل الثورة الفرنسيّة، علت أصوات تقول إنّه أصبح على البابا أن يختفي، لكي يكون بإمكان عصر العقل أن يبدأ، وبالفعل، اختفى الكرسيّ الرسوليّ لفترة – أي في المنفى الفرنسيّ– لكنّه عاد في القرن التاسع عشر، بل أصبح أقوى ممّا كان عليه سابقًا. على الرغم من أنّ المسيحيّة لم تشهد، في القرن التاسع عشر، القوّة والشكل اللذين عرفتهما في القرون الوسطى، لكنّها عايشت ما هو أجمل بكثير، إذ إنّها عايشت ظهور الحركات الاجتماعيّة الكبيرة وتأثيراتها. وهو ما يدلّ على أنّه سوف يكون هناك دائمًا اتّجاهان قويّان منفصلان كلّ الانفصال، يحاولان دائمًا التعايش معًا. إنّ حالة العالم الجديد تجعل الإيمان معقّدًا، كما أنّ قرار الالتزام به يصبح شخصيًّا أكثر وأصعب، لكنّ العلم لا يمكنه أن يترك المسيحيّة خلف ظهره.

أصبح هناك منافسون جدد للكنيسة، والجمهور يقابل، يوازن بين الاحتمالات، ويختار ملاجئ جديدة. من الممكن أنّه، ولهذا السبب، كانت مهمّة الحفاظ على الإيمان أسهل على الأجيال السابقة، فبالنسبة إليها كانت هذه ديانة الأجداد الممتحنة والأكيدة. اليوم، دخل تحفّظ أساسيّ إلى هذه العلاقة. إنّه نوع من قناعة منتشرة في العالم الحديث، تقول إنّ الكنيسة مبنيّة، وبدرجة أولى، على القمع والسلطة. وبالتالي، النتيجة الحتميّة لفصل الدين عن الدولة، ولتنوير البشر، هي أفول نجم الكنيسة.

في هذا الصدد، أودّ أن أذكر أمرين: أوّلاً، وخصوصًا في ظلّ النظم القمعيّة، أثبتت الكنيسة – التي لا يمكنها أن تسمح بالانجرار إلى نظرة كونيّة محدّدة، قدرتها على أن تقف قوّة موازية مناهضة، وأنّها، بوصفها جماعة عالميّة، أدّت دورها قوةً مناهضة لهذا القمع. إنّ القرن العشرين أظهر، وبشكلٍ غير مسبوق حتّى الآن، أنّ الكنيسة، وخصوصًا بصفتها رابطًا اجتماعيًّا، هي قوّة مواجهة ضدّ كلّ ما هو قمع سياسيّ أو اقتصاديّ على المستوى العالميّ، كما أنّها قوّة مضادّة لكلّ أنظمة التوحيد. إنّها توفّر للإنسان مكانًا يتنفّس فيه الحرّيّة، وتقيم بوجه القمع حاجزًا أخيرًا. كما أنّ الشهداء صمدوا دائمًا من أجل الباقين. يظهر لنا أنّ الكنيسة هي عنصر حرّيّة في أوروبّا الشرقيّة، كما في الصين، في أميركا الجنوبيّة كما في أفريقيا. إنّها عنصر حرّيّة بالأخصّ، لأنّ لها شكلاً اجتماعيًّا يفترض تضامنًا اجتماعيًّا. إذًا، عندما أقف معترضًا على دكتاتوريّة ما، أنا لا أقوم بهذا من منطلق فرديّ فقط، إنّما انطلاقًا من قوّة داخليّة تفوق الأنا وتتجاوز شخصيّتي.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

· ثانيًا: هناك إيديولوجيّة، تحاول تفسير كلّ ما هو موجود، وهذه الإيديولوجيّة تُفسد الإنسان وتخرّب الكنيسة. لنأخذ مثلاً واقعيًّا: عندما أنظر إلى الكنيسة، من وجهة نظر الطمع بالسلطة، فمن الطبيعيّ أن يكون كلّ من لا يملك السلطة مقموعًا. ومثلاً على ذلك، يصبح السؤال المتعلّق بإعطاء سرّ الكهنوت للمرأة سؤالاً سهلاً، لأنّه متعلّق بالسلطة؛ فلكلّ فرد حقّ التمتّع بالسلطة. إنّني أظنّ أنّ إيديولوجيّة الشكّ هذه، والتي تعتبر أنّ السلطة هي الدافع الأساسيّ الدائم، تحطّم الترابط ليس فقط ضمن الكنيسة، إنّما في الحياة البشريّة بشكل عامّ. كما أنّها تضيء الأمور بنور خاطئ، وكأنّ الهدف الأعلى في الكنيسة هي السلطة. وكأنّ السلطة هي التعبير الوحيد لشرح العالم والمجتمع. إذا كان هناك من معنًى للانتماء إلى الكنيسة فهو يكمن فقط في أنّها تعطي الحياة الأبديّة، أي الحياة الحقيقيّة، كلّ ما هو عدا عن ذلك هو ثانويّ. وإن لم يكن ذلك صحيحًا، فإنّ كلّ سلطة ضمن الكنيسة التي تتدنّى عندها إلى مستوى نادٍ، هي مجرّد تمثيل مسرحيّ. أعتقد، بأنّه علينا التخلّص نهائيًّا من التنقيص هذا، ومن إيديولوجيّة السلطة، وهما موروثتان من موروثات الماركسيّة.

لقد طوّرت الكنيسة كمّيّة لا بأس بها من الممنوعات، أو من قوانين التصرّف التي تتولّى تنظيم سرعة الحياة. في الخارج، تُشير إلى نماذج الحياة السائدة وعلى كلّ زاوية: أسرع، الطريق سالك، وسط هذا الكمّ من اللذّات السريعة بإمكان الدين الاستمرار في المجتمع فقط، عندما يعد بسعادة مجرّدة من الحزن، وكأنّه سحر روحيّ متصوّف. قد يكون سبب تعرّض الكنيسة القويّ للنقد، وعدم استفادتها من الانتفاضات الروحيّة، فرضها لمطالب ولطريقة حياة عادلة، وكلامها على الخطيئة وعلى الألم. ومثلاً على هذا الوضع الغريب، يكفي أن يشعر أيّ مجتمع بأنّه مهدّد في أمنه، أو تتعرّض أيّة دولة إلى اعتداءات متزايدة، حتّى تعلو الأصوات المطالبة بالتشدّد وبالحزم. أمّا تجاه الكنيسة بقوانينها الأخلاقيّة البحتة، فتُطالب بالعكس: هنا يُصار دائمًا إلى المطالبة بالتراخي وفكّ القيود.

إنّ نظرتنا الحاليّة للكون تغلب عليها فكرة الاستقلاليّة والتحرّر من كلّ سلطة، كما يغلب عليها مفهوم القوّة. هذان المفهومان يذوبان في فئة واحدة، يحسب لها الحساب في حياة الناس فيما بينهم. نتائج ذلك واضحة: عندما يكون للفرد الكلمة النهائيّة، من الطبيعيّ أن يرغب بالحصول على كلّ شيء. عندها، يريد أن يحزم في متاعه ما

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

يتمكّن من الحياة. على ما أعتقد، هنا تكمن مشكلة كبيرة من مشاكل الوجود في هذا العصر. فالإنسان يرى أنّ الحياة قصيرة ومعقّدة، لذلك، يريد أن يأخذ منها كلّ ما يتيسّر له، دون أن يسمح لأحد باعتراضه. في نظره، عليه أن يقتطع إليه بعنف هذا الجزء من الحياة، أن يحاول تحقيق ذاته، دون أن يسمح لأحد بالتدخّل في أموره. بمعنًى آخر: كلّ من يحاول منعي من القبض على الحياة هو عدوّي.

تتراءى لنا هذه النظرة بوضوح بين أسطر مقرّرات القاهرة ويكين (مؤتمر الأمم المتّحدة للسكّان والتنمية، ومؤتمر الأمم المتّحدة للنساء). فهنا، يُحَدّد الإنسان بشكل فرديّ محض، فهو فقط ذاته. أمّا العلاقة، التي هي ملكه، ومن خلالها يحقّق ذاته أوّلاً، فتنتزع منه هذه الرغبة، أن نكون وحدنا السلطة النهائيّة والوحيدة على أنفسنا. وهذا المطلب القائم على الانتزاع من الحياة، القدر الأكبر الممكن، دون السماح لأحد باعتراضنا، هو جزء من الفهم الحاليّ للحياة. بهذا المعنى، يكون من الطبيعيّ أن تُقيم تعاليم «لا يحقّ لك» أو «هناك معايير علينا الرضوخ لها» على أنّها تدخل، بل على أنّها محاولة استئصال للحرّيّة، يجب التصدّي لها. في نهاية الأمر، نعود إلى طرح السؤال الأساسيّ: كيف يفعل الإنسان ليعيش بطريقة صحيحة؟ وهل هو صحيح أنّه هو وحده المعيار لذاته ولسعادته؟

منذ مدّة، تكلّمت مع أصدقاء من منطقة فراسكاتي، كانوا منهمكين في تقليم الكروم التي تحتاج سنويًّا إلى التشحيل، لتعطي إنتاجًا جيّدًا؛ فالتقليم هو عمل ضروريّ لتأمين وفرة الإنتاج. في إنجيل يوحنّا (الفصل الخامس عشر) نجد هذه الصورة وتشبيهها بالوجود الإنسانيّ وجماعة الاشتراك في الكنيسة. إن لم نملك الشجاعة الكافية للتقليم، عندئذٍ ينمو الأوراق فقط. وفي حالة الكنيسة: لن يكون هناك سوى الأوراق، وفي النهاية، لن تنبع منها أيّة ثمار. ولنقل ذلك بكلام المسيح، الذي قال لنا: في اللحظة التي تعني فيها أنّ عليك أن تملك نفسك وأن تدافع عن نفسك، في هذه اللحظة بالذات، أنت تدمّر ذاتك. لأنّك بعيد عن أن تكون جزيرة بذاتك، مستقلّة بحدّ ذاتها، إنّما أنت مصنوع للمحبّة، للعطاء، وللزهد، ولأنّك مبنيّ على مبدأ تقليم الذات. عندما تهب ذاتك فقط، تفقد ذاتك كما يقول المسيح، وحينئذٍ فقط بإمكانك الحياة.

هذا القرار الأساسيّ يجب أن يظهر كلّيًّا بشكلٍ واضح، وهو متروك للحرّيّة الفرديّة. لكن، يجب أن يكون واضحًا أنّ العيش خارج مقتضيات الحياة، وفق الأهواء الخاصّة،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هو وصفة خاطئة. إنّ رفض الألم، ورفض أنّنا مخلوقات (من صنائع الله)، بمعنًى آخر رفض الخضوع لقانون ما، هو في النهاية، رفض المحبّة ذاتها، وهذا يحطّم الإنسان، لأنّ هذا الأخير، وفقط في خضوعه لمقتضيات الحياة، وفي خضوعه لتقليم ذاته، عندئذٍ بإمكانه أن ينمو وينتج.

نلاحظ أنّ الشباب بازدياد يشعرون أن ما يُطلب منهم غير كافٍ، وهذا يفسّر قسمًا من حركات الانضمام إلى شيع مختلفة جذريًّا. أوّلاً، هم يبحثون عن الدعوة التي تشجّعهم على المزيد من العطاء. إنّ هذا الشعور الدفين يختبئ في مكانٍ ما من الإنسان: من الضروريّ له أن يشعر بالحثّ على عطاء المزيد، أن يسعى إلى مستوًى أسمى، وأن يتعلّم كيف يهب ذاته.

إنّ الاختلاف بين المجتمع والإيمان، سببه أيضًا محاولة المجتمع التدقيق في مدى صحّة أقوال الكنيسة: تاريخها – تعاليمها. هل برأيك هذه نقطة انطلاق خاطئة؟

هي غير خاطئة، عندما يكون الدافع للمحاولة هو فهم الإيمان. إنّ هذا، ومنذ البداية، جزء من الإعلان المسيحيّ (البشارة). لقد تمكّن الإيمان عمومًا، فقط من خلال التبشير، أن يدخل العالم، لأنّه كان، ومنذ البدء، قابلاً للفهم. ومن الممكن إقناع الناس به. لقد تمكّن بولس في الكنيس من مخاطبة اليهود وخائفي الله، والوثنيّين على حدّ سواء. كما أقنعهم وبواسطة الدلائل أنّه، بالمسيح، تحقّقت اليهوديّة وكذلك الوثنيّة التي بدأت تؤمن بوجود إله واحد، بعد تعرّفها على اليهوديّة. بهذا المعنى، تكون محاولة المسيحيّة مهمّة لإيجاد جواب مقنع. لكن، عندما نحصر مفهوم الصحّة بشكلٍ ضيّق جدًّا، ولا نقبل من المسيحيّة إلاّ ما يتناسب مع رغبتنا الوقتيّة، عندئذٍ، نكون قد حوّلنا المسيحيّة إلى بضاعة رخيصة الثمن، فاقدة لكلّ قيمة، ومعها نفقد كلّ قيمة لنا.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أخطاء الكنيسة

وصف الكاردينال كونيغ وضع الكنيسة الحاليّ في العالم، على النحو التالي: في واقع الأمر، المشكلة هي نتيجة تطوّر امتدّ على مئات السنين، وأدّى إلى التباعد الحاصل بين الكنيسة والعالم. إنّها حالة التناقض المتنامي بين الوعي الذاتيّ للإنسان الحديث، وبين تعاليم المسيحيّة. لكنّ الكاردينال يتابع قائلاً: «من المهمّ أيضًا أن تخضع الكنيسة نفسها لاستجواب ذاتيّ نقديّ لتحدّد مدى مسؤوليّتها في هذا الخلل الحاصل في الحوار، حتّى تكون قادرة على المساهمة في تخطّيه».

إنّ العطل الحاصل في الحوار، والذي يتكلّم عنه الكاردينال كونيغ، موجود بشكل ظاهر، ومن الثابت أنّنا نتحمّل من جهتنا مسؤوليّة قسم منه. فمن جهة، نحن نعجز عن التعبير بشكل يحاكي الضمير المعاصر. قد نصل لاحقًا إلى مفاهيم مثل الخطيئة الأصليّة، الخلاص، الخطيئة، التكفير، وغيرها. كلّ هذه التعابير تفصح عن حقيقة، لكنّها لا تعني شيئًا بالنسبة الى أكثر الناس. وفي اللغة المعاصرة، إيصال مضمون هذه المفردات، هو ومن دون أيّ شك، إحدى الوظائف التي يجب أن ننصبّ عليها. لكنّ هذا يبقى غير ممكن، إذا لم نعايش هذه المفاهيم داخليًّا. عندما تتوضّح لنا من جديد، ومن خلال تجربتنا لها، يكون بإمكاننا أن نعبّر عنها بصيغ جديدة. لكن عليّ أن أضيف، أنّ التفاهم مع المسيحيّة لم يكن يومًا مخاطبة مبنيّة فقط على الفهم. إنّ المسيحيّة تعبّر عمّا يحتضن الإنسان بكلّيّته، ومن المستحيل عليّ فهمه، إذا لم أرمِ بنفسي وسط الجماعة المسيحيّة، وأسِرْ معها قسطًا من الطريق. نستخلص ممّا سبق أنّ التحدّي مزدوج، فمن جهة، علينا أن نعيش حقيقة هذه المفاهيم، حتّى نصل بذاتنا إلى الفهم، ومن ثمّ علينا إيجاد وسائل تعبير مرتكزة على تجربة، تكون ضمن جماعة تعطي بدورها مصداقيّة للشهادة الذاتيّة.

إنّ صورة الكنيسة عند العامّة هي أقرب إلى أن تكون صورة السلطة المهدّدة،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

المتحجّرة. لمَ تتّصف إدارة الكنيسة بهذا القدر من التحجّر؟ ألا يجب عليها، بوصفها راعية للقطيع، أن تكافح كالأمّ من أجل الأرواح التي تحتضنها؟

الصحيح أنّ الكثيرين من الناس لا يعلق في ذاكرتهم إلاّ بعض الممنوعات الأخلاقيّة – وبالأخصّ، الأخلاق الجنسيّة – ما يعطيهم الانطباع أنّه هنا لا يصار إلاّ إلى إصدار الأحكام والتضييق على الحياة. من الممكن أن يكون أيضًا قد قيل الكثير في هذا الاتّجاه، أو أنّه قد أعيد تكرار الكثير – من دون أن يشار إلى صلته الضروريّة بالحقيقة وبالحبّ. كما أنّني أعتقد، أنّ الأمر يرتبط نوعًا ما، بما تختاره وسائل الإعلام لتسليط الضوء عليه. هذه المعلومات تشكّل مادّة دسمة للعناوين، من السهل تحديد محتواها. لكن، عندما يصار إلى التكلّم عن الله، وعن المسيح، وعن مفاهيم عديدة ومركزيّة في الإيمان، فمن غير الممكن أن يتمّ استيعابها في اللغة العلمانيّة، التي تبقى غير قادرة حتّى على إدراكها. لذلك، وعوض أن تقوم الكنيسة بتأنيب وسائل الإعلام، عليها تحديد جرعات ظهورها الإعلاميّ بدقّة. في داخل حياة الإيمان، هناك، حيث نسعى إلى التبشير بجوهر الإيمان الحقيقيّ، بالإمكان شرح التفاصيل بشكل متكامل ومتسلسل، وهو ما يظهر أهمّيّة هذه الممنوعات ومكانتها الإيجابيّة داخل نظام إيجابيّ ومتكامل. إرادة تسليط ضوء الإعلام على كلّ شيء، يدفع إلى إلحاق خلل في المقاييس. على الكنيسة التفكير لإيجاد توازن صحيح بين الحديث الموجّه إلى العلن، والذي من المعقول أن لا يصار إلاّ إلى استيعاب قسم منه، وبين إعلان الآراء التي هي جزء من بنية إيمانيّة متشابكة.

لدى الرأي العامّ الانطباع بأنّ الكنيسة تتصرّف وفق منطق تحكمه ردّات الفعل، مشيرة بصرامة إلى الوصايا الإلهيّة، مسلّمة أمرها لله، الذي لن يسمح بأن تغرق كنيسته. الديناميكيّة تسود من حولها، ووحدها الكنيسة تبدو غير قادرة على تغيير منطقها في التفكير، مصمّمة على المحافظة على مواقفها بعناد. هي تبدو أقرب إلى التجمّد منها إلى الأصوليّة، وكأنّها مسجونة داخل قلعة. أمّا البشارة، فتحوّلت إلى عبارات تقليديّة.

من الطبيعيّ أن يختلف الوضع كثيرًا، من أمّة إلى أخرى، لأنّه ذو علاقة بالثقافة. وفي زمن القمع، الذي مارسته الأنظمة الشيوعيّة، كان يتكوّن لدى المؤمنين، وغير المؤمنين من الباحثين، أمثال فاكلف هافل، انطباع مختلف تمامًا. في الواقع، أُدركَ تمامًا أنّ الكنيسة تحمل بشارة الحرّيّة، وأنّها تقيم قوّة مضادّة، وهي قوّة تدعم حتّى غير

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

المؤمنين وتطمئنهم بأنّ القوى المستبدّة لن تتمكّن أبدًا من السيطرة على كلّ المساحة.

كذلك في أفريقيا، حيث الكنيسة تقف في مواجهات متنوّعة مع الدولة، مع الفساد الذي هو أحد أكبر مشاكل الدول الأفريقيّة. هناك أيضًا لا يسود الانطباع، بأنّ الكنيسة هدفها فقط تأكيد ذاتها بعناد، إنّما يُنظر إليها على أنّها قوّة ديناميكيّة تدافع عن العالم الثالث، وتقوم من أجل ذلك بتبنّي مبادرات. هي لا تكتفي بإدارة أشكال محدّدة من المساعدات الإنمائيّة الماديّة، بل إنّها تدعم تبادلاً فعليًّا. كذلك في أميركا اللاتينيّة الانطباع مغاير لما ذكرته. إذًا الانطباع يختلف جدًّا وفق البلد المستقبِل، ومعه يختلف الحكم على الكنيسة وعلى ديناميكيّتها. أمّا الانطباع السائد عندنا في ألمانيا، أو حتّى في أوروبّا الوسطى، أنّ الكنيسة ليست سوى عدوّة للتقدّم، وأنّ دورها ينحصر في الدفاع عن ذاتها، فيستند، كما أظنّ وعلى عكس ما يبدو، على دفاعنا نحن عن كلّ ما يبدو مريحًا وحقًّا مكتسبًا لنا، وما تعترض عليه الكنيسة وتأبى القبول به.

يدعونا البابا إلى أن لا نتساوى مع العالم. لكن، ألم تتساوَ الكنيسة ذاتها، وإلى حدٍ بعيد مع العالم؟ تبدو منهمكة بتأمين ممتلكاتها الموروثة، تستنفد المال والوقت والطاقة للحفاظ على عقاراتها. ألا يجب عليها، عوضًا من ذلك، أن توضّح أكثر أين تكمن عروضها المقدّسة؟

هنا، أعطيك الحقّ. حتّى داخل الكنيسة، يبقى عنصر القصور الذاتيّ عنصرًا قويًّا جدًّا بالتالي، فهي تميل إلى التمسّك بشدّة بما اكتسبته من مراكز وأملاك. إنّ القدرة على تحجيم الذات، وعلى تقليمها، ليست متطوّرة بالطريقة الصحيحة. أعتقد بأنّ هذا ينطبق علينا بنوع خاصّ في ألمانيا، حيث لدينا مؤسّسات كنسيّة أكثر بكثير من قدرتنا على تغطيتها بروحانيّة كنسيّة، وهذا هو بالضبط أحد الأسباب التي أساءت إلى سمعة الكنيسة، فهي تتمسّك بتركيبة المؤسّسات، حتّى لو فرغت من كلّ مضمون. كأن نجد مثلاً الناس في مستشفًى ما، أو في مدرسة ما، مجبرين على اعتماد سلوكٍ معيّنٍ لا علاقة لهم به، وذلك، لأنّ الكنيسة هي مالكة المؤسّسة. في الحقيقة، هنا يجب إجراء فحص دقيق وواقعيّ للضمير. لكن وللأسف، كانت الأمور دائمًا على هذه الحال في التاريخ، حتّى إنّ الكنيسة لم تكن أبدًا قادرة على رفض خيرات هذه الدنيا، بل كان يجب دائمًا أن تُنتزع منها بالقوّة، وهو ما كان يعود دائمًا بالخير عليها.

أحيانًا، جرت الأمور خلاف ذلك؛ إنّني أفكّر بالفصل بين الدولة والكنيسة في

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

فرنسا، على عهد بيّوس العاشر، أي في بداية القرن العشرين. في ذلك الوقت، عُرض على الكنيسة معادلة تسمح لها بالمحافظة على ممتلكاتها، لكن ما كان سوف يضعها بطريقة ما تحت سلطة الدولة، وهو ما دفع بيّوس العاشر إلى الإعلان أنّ «خير الكنيسة هو أهمّ من خيراتها». وكان قراره التخلّص من الممتلكات والتفرّغ للمدافعة عن الخير. إنّني أعتبرها جملة عظيمة، وعلينا الاقتداء بها.

إنّني أتساءل لماذا لم تعد الكنيسة تدلّنا، نحن المسيحيّين البسطاء والجهلاء، على الإيمان؟ ولماذا لم تعد توحي لنا بعظمة الكاثوليكيّة وبحرّيّة التفكير، بالمصالحة وبالرحمة. كما أنّني أفتقد تقاليدها، وعاداتها، وأعيادها، التي كانت تحتفل بها بكلّ كبرياء وقدرة ورثتها عن خبرةٍ عمرها ألفا سنة. لقد وجدت في أحد كتب إسحق سنجر وصفًا لعيد المظالّ حيث يتلو الرابّيّ صلاة المائدة، ثمّ العظة، وهو ما يدفع السامعين إلى التعليق بتعجّب: «لم نسمع أبدًا شرحًا مماثلاً للتوراة. لقد كشفت لنا عن أسرارٍ مقدّسة». وعند المساء فُرشت الطاولات بشراشف العيد، ووضع رغيف العيد وسطها، وإلى جانبها إبريق النبيذ، وكأس القدّوش (Kidduschbecher). في هذه اللحظات، شعر الحاضرون بأنّ الخيمة المبنيّة من الأغصان تحوّل إلى أحد بيوت الله. بينما عندنا، نجد أنّ اللقاءات المسيحيّة تتحوّل إلى أعيادٍ ترافقها الجعة واللحم المقدّد.

بالطبع، نعود هنا من جديد إلى موضوع اندماج المسيحيّة والمجتمع، وإلى تمازج المسيحيّة في التقاليد لتتبلور وتظهر في الأعياد الاجتماعيّة، وهو ما سبق أن بحثناه. لكنّني أودّ التطرّق إلى موضوع آخر يتفرّع ممّا ذكرت. بالطبع الرابّيّ لم يقل أيّ جديد. إنّما التقليد الاحتفاليّ، والمؤدّى بإيمان يكفي ليوحي لنا بهذا الشعور وليحوّل الاحتفال دائمًا إلى حاضرٍ جديدٍ.

على ما أعتقد، هناك نزعة خاطئة في محاولاتنا الإصلاحيّة للّيتورجيّا، وأعني بهذا الميل إلى تكييف الليتورجيّا بشكل يجعلها تتماشى تمامًا مع العالم الحديث. وهو ما يدفعنا إلى أن نختصرها، وإلى أن نقوم بحذف كلّ ما يتوهّم أنّه صعب للفهم. في واقع الأمر، هذا لا يعني سوى استعمال لغة مسطّحة أكثر ومبتذلة. لكن بهذه الطريقة يكون قد أُسيء فهم جوهر الليتورجيّا والاحتفالات الليتورجيّة بشكل جذريّ. إذ إنّ الفهم في الليتورجيّا لا يتمّ بشكل عقلانيّ فقط، عل النحو الذي أفهم به محاضرة مثلاً، إنّما وبطرائق متنوعّة، وبوساطة الحواسّ كلّها، وباصطحابنا داخل احتفال لم

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

تبتدعه لجنة ما. بل إنّه يأتي إليّ وكأنّه خارج من أعماق آلاف السنين، ومن ثمّ، من الأزل.

عندما خسر اليهود المعبد، ظلّوا محافظين على الطقوس والأعياد، لأنّها شعائر بيت المؤمنين، ليتمّ ممارستها قبل شعائر العيد الكبير. إذ إنّ الشعائر تحتضن ما يشابه نموذجًا لحياة مشتركة، حيث لا تتوقّف الأمور على الفهم السطحيّ المجرّد، إنّما فيها تتبلور استمراريّة لتاريخ الإيمان وتتوضّح وتتجسّد قوّة مستقلّة عن الأفراد. فالكاهن هو بعيد عن أن يكون ساحرًا يؤلّف شيئًا ما، ويقنعنا به بمهارة. على العكس، يحقّ له أن يكون غير موهوب بوصفه ممثّلاً ينوب عن شيء آخر وليس عن ذاته.

من الطبيعيّ أن يُشكّل الفهم جزءًا من الليتورجيّا، ولذلك يجب تلاوة كلام الله بصوت جهوريّ، وتحليله وفهمه، وإنّما لفهم الكلام المقدّس، يتمّ استخدام طرقٍ أخرى. وبالأخصّ، إنّ فهم الليتورجيّة لا يستلزم إعادة ابتداع مُستمرّ من قبل لجان جديدة. فبهذه الطريقة، قد تتحوّل الليتورجيّا إلى إنتاج محلّيّ، وفق ما يكون مركز اللجنة روما، ترير، أو باريس. وعوضًا من ذلك، عليها أن تُحافظ، حقيقة، على استمراريّتها البعيدة، وحتّى على آخر تفاصيلها المملّة، حيث ألتقي، في الواقع، بآلاف السنين، وعبرها بالأزل، وحيث أرتفع في احتفال جماعيّ مختلف كلّ الاختلاف عن حفلٍ اختلقته لجان، أو جمعيّات مُخصّصة للمناسبة.

وقد تولّد هنا شكل من الإكليروسيّة، التي تسمح لنا بفهم السرّ الكامن وراء المطالبة بسيامة النساء كاهنات. حين يُصبح لشخص الكاهن أهمّيّة، بمعنى أن يُصبح هو نقطة ارتكاز الحفل، حيث يُفترض به أن يعرض الأمور بشكلٍ جيّد ومشوّق عندها، يظهر السؤال: لماذا نحصر هذا الدور بصنفٍ معيّن من الناس؟ في حين أنّه، عندما نقلّل من الأهمّيّة المعطاة لشخص الكاهن، ليؤدّي في الواقع دور الوكالة، وعندما يُنجز ما أُنيط به من خلال إيمانه فقط، عندئذٍ، لن يدور الاهتمام حول شخصه، بل ينحاز إلى الظلّ، ليظهر ما هو أهمّ وأكبر. لهذا أعتقد أنّه علينا أن نعترف بأنّ للتقاليد قوّة دافعة تستمدّها من موروثاتها الثابتة، وأنّ جمالها وعظمتها يُحرّكان مشاعر حتّى من لا يستطيع أن يحلّل ويفهم عقلانيًّا كلّ تفاصيلها. أمّا المركز الأساسيّ، فهو الكلام المقدّس الذي يجب أن يُتلى ويُفسّر.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أليس من الممكن أن نُعيد استعمال الطقس القديم، بهدف مواجهة كلّ محاولات نزع السحر والتفريغ (من المضمون)؟

ليس هذا وحده الحلّ، بالرغم من أنّني مقتنع بأنّه بإمكاننا أن نؤمّن بشكل أوسع الطقس القديم لمن يرغب. من الصعب جدًّا فهم ما هو خطِر، أو حتّى غير مقبول به. إنّ جماعة تبادر فجأة إلى إعلان الرفض لما كان بالنسبة إليها، وحتّى زمن غير بعيد، أقدس المقدّسات، وحتّى إنّها تحكم على مجرّد الرغبة بالمحافظة عليه هي جماعة تطرح ذاتها للتساؤل. ويا ترى، هل يمكن أن تصدّقها بعد الآن؟ لكنّ الحلّ لا يكمن بالعودة إلى القديم. لقد شهدت حضارتنا تبدّلاً جذريًّا في السنوات الثلاثين الأخيرة ما يجعل الليتورجيّا، المحتفَلة باللغة اللاتينيّة، مستغربة بشكل يستحيل على الكثيرين تخطّيه. إنّ ما نحتاج إليه هو تنشئة جديدة بما يختصّ بالليتورجيّا، وخاصّة لدى الكهنة. يجب أن نوضح من جديد أنّ وظيفة علم الليتورجيّا ليست إيجاد حلول مبتكرة وموديلات جديدة، كما تفعل شركات السيّارات. الليتورجيّا ضروريّة لتدخلنا في العيد والاحتفالات، ولتخلق لدى الإنسان إمكانيّة التجاوب مع السرّ الإلهيّ. بإمكاننا هنا أن نتعلّم، ليس فقط من الكنائس الشرقيّة، بل من ديانات الأرض كلّها، التي تدرك أنّ الليتورجيّا تختلف كلّ الاختلاف عن كونها اختراعًا للنصوص والتقاليد، وأنّها تستمدّ الحياة من كونها غير قابلة للتحويل. إنّ الشباب يشعر بذلك بشكل قويٍّ جدًّا. فالمراكز، التي تحتفل بالليتورجيّا بشكل كبير وباعث للاحترام، ومن دون خزعبلات، تجذب الكثيرين. إنّنا نحتاج إلى مراكز مثاليّة من هذا النوع. ولكن، للأسف، نجد عندنا تساهلاً لا حدود له تجاه مغامرات وألعاب جديدة وخطرة، لكنّ هذا التسامح يبقى غير موجود تجاه الليتورجيّا القديمة. لذلك نكون بالتأكيد على الطريق الخاطىء، إذا ما اعتمدنا الحلّ المطروح في السؤال.

أزمة الكنيسة – هل باستطاعتنا تحديد متى ابتدأت؟ وهل أتت هذه الأزمة كنتيجة لأخطاء من الماضي؟ أو إنّها نتيجة آثام كثيرة وأثقال لا قيمة لها، كدّستها الكنيسة على مرّ الزمن، وهي تُحاسب الآن عليها؟

هناك بالطبع، من جهة، استمراريّة التاريخ، والتي يستحيل علينا أن ننأى بأنفسنا عنها. وكما التاريخ الألمانيّ، المحمّل بكثير من الحسنات والسيّئات، يعنينا في كلّ أجيالنا، كذلك هو بالطبع تاريخ الكنيسة. علينا طرح الأسئلة التالية: ما هي الأشياء التي تثقّل

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

على عاتقنا في هذا التاريخ؟ ما هي المغالطات التي علينا أن نعترف ونجهر بها؟ لكن، بالإضافة إلى ذلك هناك الجديد الذي يميّز الأجيال الحاضرة.

لذلك، قد لا أحدّد الأزمة، التي لها بالتأكيد جذور وأسباب في الماضي، وأعود بها إلى أسباب تاريخيّة قديمة. فمن المعروف أنّ توافق حالات تاريخيّة جديدة قد يؤدّي إلى تفاقم الأزمة، أو إلى زوالها. وكمثل أذكر دائمًا التالي: عندما راجت تيّارات الليبراليّة السياسيّة، دار أيضًا داخل الكنيسة نقاش حادّ، حول الحداثة، قاده البابا بيّوس العاشر بحدّة وذكاء. لكنّ هذا النقاش انتهى فجأة مع انتهاء الحرب العالميّة الأولى، وهو ما يدفع العديدين اليوم للقول إنّه كان من الأفضل لو نوقشت المشاكل آنذاك بشكل أعمق، عوض أن تقمع. لكنّ الحقيقة هي أنّ نهاية الحرب العالميّة الأولى صُنّفت على أنّها فشل الليبراليّة، والتي كانت ردّة فعلها الأولى الانكفاء عن تأدية دور القوّة الفكريّة الرائدة. الأمر الذي أدّى، في ذلك الوقت، إلى خلق حالة وعي جديدة وغير منتظرة، تخطّت الكنيسة الكاثوليكيّة، وطالت أيضًا الكنيسة الإنجيليّة. هارناك، المعلّم الكبير للاّهوت الليبراليّ، انسحب وحلّ مكانه كارل بارت بإيمانه الراديكاليّ. إريك بيترسون عالم التفسير الإنجيليّ، والمؤرّخ الكبير، ارتدّ إلى الكاثوليكيّة. كما نشهد ظهور تيّارات ليتورجيّة جديدة في الكنيسة الإنجيليّة، التي كانت معارضة لما هو من مظاهر أعمال العبادة. وهو ما يعني أنّ التغيّر في حلّة الأجيال يؤدّي حتمًا إلى تغيير في الاهتمام الذي نعيره لمشاكل الحداثة. نرى هذا بوضوح في حياة رومانو غواردیني الذي درس في عصر ليبراليّ، والذي توصّل إلى قناعات واعية معادية لليبراليّة.

استمرّت هذه الحالة بعد الحرب العالميّة الثانية لفترة ما، لكن، سرعان ما ظهر عالم ترف تخطّى بمسافات عالم الحقبة الجميلة، وكانت نتيجته نوعًا من الليبراليّة، ظهرت معها المسيحيّة فجأة، وكأنّها رجعيّة في غير مكانها، وأكثر ما كانت عليه خلال الحرب العالميّة الأولى.

وهذا يعني أنّه علينا دائمًا الربط بين ظهور الأزمات، والحقبة الزمنيّة التي تقع فيها. هنا أعطي كارل ماركس الحقّ في قوله: إنّ إيديولوجيّة حقبة ما هي دائمًا نتيجة وضعِها الاقتصاديّ وتركيبتها الاجتماعيّة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هل من المعقول أن تكون عمليّة انهيار الكنيسة الحاليّة نوعًا من التنقية الذاتيّة المكثّفة؟

أنا مقتنع بأنّ هناك قوى تنقية ذاتيّة مشتركة في العمل. لكن، علينا بالطبع أن لا نعتبر بسذاجة، أنّ فقدان الإيمان أو التعب منه، هما، وبكلّ بساطة، تعبير عن التنقية الذاتيّة. الحالة الراهنة هي عرض يقترح تنقية الذات، لكن لا ننسَ أنّه قد يصار إلى استعماله على أشكال مختلفة. هنا، نعود إلى السؤال حول التشابك مع الأملاك والمؤسّسات. قد يقودنا هذا إلى التنقية الذاتيّة. لكنّ التنقية لن تكون النتيجة التلقائيّة لمجرّد الانهيار فقط.

من الصعب أن نقيس الكنيسة وفق نجاحاتها. لنقل بالأحرى إنّه من الصعب أن نحدّد نجاحها بحسب مقاييس سياسيّة أو اقتصاديّة، كأن نقدّره نسبةً إلى عدد المشتركين فيها، أو إلى مدخولها الماديّ. على الرغم من ذلك، تكلّم المسيح عن «المدبّرين» وأوكل إليهم إدارة أملاكه. عليهم أن يعتنوا بها، وأن يضاعفوها- حتّى من خلال وسائل غير مستقيمة.

السؤال الأوّل في البداية هو: كيف يجب أن نفسّر حقيقةً الأمثال؟ أن يستعمل يسوع هنا رواية المصرف، أو الأعمال التي من خلالها يتضاعف المال، لا يعني أنّه علينا أن نعتبرها الطريقة المثلى. كذلك حال المثل المتعلّق بالمدير المسؤول غير العادل، وهو تشبيه صعب بشكل خاصّ، حيث يقول: على كلّ حال، بهذه الطريقة أوجد حلاً، فكونوا أذكياء، كما كان هو، لكنّ هذا لا يعني، أنّه علينا أن نستعمل طرائق غير عادلة. إنّما الأصحّ، أنّ هذا يعني أنّه علينا أن نكون أذكياء ومتيقّظين لإدراك الحظوظ وانتهازها؛ هذا يعني أن نتّكل على قوّة الإبداع لدينا، وعلى قوّة الخيال. إنّما بالتأكيد، هذا المثل يدلّ على أنّه علينا ألاّ نكتفي بالإيمان بوداعة والقول إنّني متديّن، وسوف ألقى الخلاص وفاق طريقتي، أمّا ما يفعله الآخرون، فلا علاقة لي به. الإيمان هو بالفعل هديّة نتلقّاها لنعطيها لغيرنا، وعندما نريد الاحتفاظ بها لنا وحدنا، نفقدها في الحقيقة. إنّ إيمانًا مسيحيًّا اعتنقته داخليًّا، موصوم بديناميكيّة، تجبرني على تقاسمه مع الآخرين. إنّه، وكأنّني وجدت الطريقة الصحيحة، وهنا لا يمكنني القول: هذا يكفيني. فأنا، في اللحظة ذاتها، أقضي على لقيتي. هذا يشابه تمامًا حالات الفرح الكبيرة، فهي عندما تمتلكني، عليّ أن أخبر عنها وأتقاسمها مع آخر، وخلاف ذلك، تبقى بعيدة عن أن تكون حالات فرح حقيقيّة. إذًا، ديناميكيّة العطاء هي جزء واقعيّ من البشارة التي

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أعطاها المسيح لجماعته؛ كذلك التشجيع على الاعتماد على الذكاء، والإبداع، وإن يكن هناك مخاطرة. بهذا المعنى، من الخطأ أن نرتاح ونقول: إنّنا فعلنا ما علينا. هذا القلق الداخليّ، أي أنّ ما لدينا نعمة مخصّصة للبشريّة جمعاء، عليه أن يبقى دائمًا موجودًا في الكنيسة.

من جهة أخرى، هناك الكلمات: «أرسلكم كالخراف بين الذئاب»؛ و«سوف تُضطهَدون». وهو ما يعني إذًا، أنّه قد تنبّأ لنا سلفًا، أنّ عملنا سوف يبقى مرتبطًا بقدر المسيح. على ما أعتقد، إنّ على المسيحيّة أن تعيش وسط هذا التوتّر الذهنيّ. بهذا المعنى، من غير المسموح أن نصل إلى الرضى عن النفس: كأن نعتقد بأنّنا وصلنا إلى مستوًى معيّن، لا يمكننا أن نفعل أكثر – إنّما المهمّة مطروحة دائمًا، وبشكل جديد، أن نحسن الإدارة، أي كهؤلاء التجّار المرابين، كما يعبّر المسيح، على الرغم من ذلك، فإنّ النجاح ليس رهن عملنا فقط.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لازمات النقد

في سياق عرض الانتقادات الموجّهة إلى الكنيسة، تحدّثت مرّة عن «لائحة أسئلة كلاسيكيّة»: السماح للنساء برتبة الكهنوت، منع الحمل، التبتّل، زواج المطلّقين. ذكرت هذه النقاط سنة ١٩٨٤، لكنّ «حركة العودة إلى الكنيسة» التي تمّت في ألمانيا، سويسرا، النمسا، سنة ١٩٩٥، أظهرت أنّ لائحة التساؤلات هذه لم تتغيّر قيد أنملة. ويبدو، وكأنّ النقاش قد أُنهك من كثرة الدوران ضمن دوائر مغلقة. قد تساعد هنا بعض التوضيحات. يبدو لي، وكأنّ الكثيرين لا يعرفون تمامًا عمّا يتحدّثون، عندما يتكلّمون عن البابويّة أو الكهنوت، إنّهم لا يعرفون المعنى الحقيقيّ لهذه المفاهيم.

عليّ أن أؤكّد مرّة جديدة، أنّ هذه الموضوعات كلّها، تطرح بالتأكيد علامات استفهام حقيقيّة، لكنّني مقتنع أيضًا بأنّنا نضلّ السبيل، عندما نرفعها لنجعل منها المعيار والموضوع الوحيد للمسيحيّة. هناك اعتبار بسيط ومضادّ (حتّى إنّ يوهان بابتيست ميتس ذكره في مقالة له بمناسبة حركة الارتداد الشعبيّ للكنيسة): وهو أنّ الكنيسة الإنجيليّة حلّت الأسئلة المتعلّقة بهذه النقاط عينها، وهي اتّبعت الطريق المعاكس تمامًا، لكنّه واضح جدًّا، أنّها، على الرغم من ذلك، لم تستطع أن تحلّ مشكلة أن تكون مسيحيًّا في عالم اليوم؛ وتعقيد المسيحيّة، والجهد الذي تتطلّبه من أتباعها لا يزالان يُشكّلان مشكلة أيضًا، بالنسبة إليها. إذا ما كنت أتذكّر جيّدًا، حتّى «ميتس» تساءل: لماذا علينا أن نكون نسخة ثانية للكنيسة الإنجيليّة؟ في الخلاصة، من الإيجابيّ أن تكون التجربة قد أُجريت، لأنّ ذلك يوضح أنّ سبب إخفاق تجربة الوجود المسيحيّ، ليس مردّه هذه الأسئلة، وأن حلّ هذه الأسئلة لا يزيد من جاذبيّة الإنجيل، ولا يجعل الوجود المسيحيّ أسهل، أو أنّه على الأقلّ سوف يزيد من تماسك الكنيسة. أعتقد بأنّه علينا أن نكون أكيدين من أنّ هذه الأسئلة ليست المسبّب لأمراض الكنيسة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

العصمة

أرجو أن تسمح لنا بأن نبدأ بنقطة، تخلّص منها البروتستانت في بداياتهم، وهي عقيدة العصمة عن الخطأ. عمَّ يُعبّر هذا المبدأ بالتحديد؟ وهل تصحّ ترجمته بالقول: إنّ كلّ ما يقوله البابا هو تلقائيًّا مقدّس وصحيح؟ أودّ أن أضع هذا السؤال في لائحة الأسئلة النقديّة، لأنّه، لسبب أو لآخر، يثير ردّات فعل عديدة بين الناس.

ما ذكرته هو خطأ. إنّ هذه العقيدة لا تعني في الواقع أبدًا أنّ كلّ ما يقوله البابا معصوم عن الخطأ. هي تعني فقط، أنّ هناك في المسيحيّة، أو بالأحرى، وفق الإيمان الكاثوليكيّ، مؤسّسات مسؤولة عن القرار النهائيّ. وأنّه، في نهاية المطاف، وفيما يتعلّق بالأسئلة الأساسيّة، من الممكن اتّخاذ قرار رابط ومقيّد، وأنّنا بإمكاننا أن نكون أكيدين من أنّ إرث المسيح مفسَّر بشكلٍ صحيح. في كلّ جماعة مسيحيّة مؤمنة، نجد شرط الارتباط، إنّما هي ليست بالضرورة مرتبطة بالبابا.

كما أنّه، بالنسبة إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة واضح، أنّ مقرّرات المجامع بهذا المعنى هي معصومة عن الخطأ، حيث يمكنني أن أكون أكيدًا أنّ إرث المسيح يُفسّر بالطريقة الصحيحة، وأنّ هنا يكمن إيماننا المشترك. بمعنًى آخر، يجب على كلّ فرد ألاّ يُعيد استخلاصه من جديد، انطلاقًا من الكتاب المقدّس، إنّما الكنيسة تضمن إمكانيّة التأكّد المشتركة. ما يميّزنا عن الكنيسة الأرثوذكسيّة، هو أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة تعرف مؤسّسة أخرى، وهي خلف بطرس، والتي بإمكانها إعطاء الضمانة. إنّما علينا أن نعرف أنّ البابا مرتبط أيضًا، وبالطبع بشروطٍ تسمح له – لكنّها أيضًا تقيّده، تربطه بالعمق – أن لا يقرّر انطلاقًا من قراره الشخصيّ، بل تبعًا للإرث الكبير الجماعيّ.

إنّما لا يمكننا أن ننكر أنّ الوصول إلى هذا الحلّ استغرق الكثير من الوقت.

لقد تمّ أيضًا انعقاد العديد من المجامع، قبل أن يكون هناك نظريّة تُفسّر ما هي المجامع بشكلٍ مُطلق. إنّ آباء مجمع نيقيا سنة٣٢٥، أوّل مجمع تمّ عقده، لم يعرفوا ما هو

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

المجمع، لقد دعا إليه القيصر. على الرغم من ذلك، كانوا على ثقة، ومنذ البدء، من أنّ بإمكانهم القول: «الروح القدس ونحن» (أعمال الرسل، ٢٨/١٥). ما يقوله أيضًا (مجمع الرسل)، ما معناه أنّ الروح القدس قرّر معنا، ومن خلالنا. إنّ مجمع نيقيا يتكلّم عن ثلاث أسقفيّات رئيسيّة (Primate)، موجودة في الكنيسة، وهي: روما، أنطاكية والإسكندريّة. هو يذكر بذلك ثلاثًا (Vergewisserungsinstanzen) مرتبطة بتقليد بطرس. روما، وأنطاكية كانتا مركزي أسقفيّة اعتلاهما القدّيس بطرس؛ والإسكندريّة، كونها مركزًا لمرقس جعلها من خطّ بطرس، وهي بذلك إحدى هذه الدعائم الثلاث.

لقد أدرك أساقفة روما، منذ البداية، أنّهم جزء من خطّ بطرس. هذا وإنّهم يتّمتعون بالنعمة. بالإضافة إلى المسؤوليّة التي تساعدهم، لكي يأخذوا على عاتقهم ما ظهر بوضوح، خلال الأزمة الأريوسيّة، حين كانت روما المؤسّسة الوحيدة التي تحدّت القيصر. إنّ أسقف روما، الذي عليه بالطبع أن يستمع إلى الكنيسة جمعاء، وألاّ ينفرد بخلق إيمان جديد، لديه مهمّة تقع في خطّ الوعد المعطى لبطرس. أمّا في الواقع، فإنّ هذا المفهوم قد حُدّد بشكل نهائيّ سنة ١٨٧٠.

في هذا السياق، قد يكون من المهمّ أن نلحظ أنّه، في هذه الأثناء، وخارج نطاق الكنيسة الكاثوليكيّة، يزداد التفهّم لضرورة وجود مؤسّسة موحّدة ومسؤولة. هذا ما توضّح مثلاً في الحوار مع الأنجليكانيّين. إنّ الأنجليكانيّين مستعدّون للاعتراف لروما بما يشابه دور العناية بالقيادة، مع ربطها بتقليد الأسقفيّة الأولى (Primatstradition)، دون أن يستمدّوا كلام بطرس من البابا مباشرة. كذلك، في أقسام أخرى من الكنيسة الإنجيليّة، نجد الاعتراف بضرورة وجود ما يشابه ناطقًا باسم المسيحيّة، أن يعبّروا بشخصه. كما هي الحال داخل الكنيسة الأرثوذكسيّة، حيث تعلو أصوات تنتقد تفتّت الكنيسة إلى كنائس محلّيّة، وتجد أنّ التمسّك بمبدأ خليفة لبطرس، هو مبدأ منطقيّ. يبقى هذا بعيدًا عن أن يكون اعترافًا بدوغما روما؛ لكنّ التقارب في وجهات النظر هو على ازدياد.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

البشارة السارّة عوضًا من الوعيد

وفق أحد الانتقادات، تعتمد التعاليم الأخلاقيّة للكنيسة الكاثوليكيّة، في الواقع، على إثارة الشعور بالذنب. هي سلبيّة بشكل خاصّ، عندما تتعلّق الأمور بتقويم أهمّيّة الجنس. أضف إلى ذلك، أنّ الكنيسة حمّلت الناس الكثير من الأثقال التي لا علاقة لها بالوحي الإلهيّ. في النهاية، هناك التصوّر الذي يقضي بالتوقّف عن بناء اللاهوت المسيحيّ، على أرضيّة الخطيئة والندم. علينا، وبإمكاننا إعادة اكتشاف الحدث الدينيّ، بعيدًا عن وحدة المعايير المصبوغة بالصباغ الدينيّ.

لم أتمكن يومًا من أن أميّز بين بشارة الفرح (Froh- Botschaft والوعيد (Droh – Botschaft) وكأنّها إعلانات ملصقة لمواقف متناقضة، لأنّ من يقرأ الإنجيل، يرى أنّ المسيح يبشّر بالبشارة السارّة، ولكنّه يُلحقها بخبر الدينونة. هناك تعابير دراماتيكيّة، في الأناجيل، بالأخصّ في ما يتعلّق بالدينونة، يجب ألاّ نحاول إخفاءها. إنّ السيّد نفسه، لا يجد أيّ تناقض بين ذكر الدينونة (Gerichts-Botschaft) والبشارة السارّة، بل على العكس، إنّ الدينونة موجودة، وإنّ هناك عدالة للمظلومين والمغلوبين، وهو أمل أخير لهم، وبهذا المعنى، هو بشارة سارّة. إنّما الظلم يضرّ بمن يعتبر نفسه من القامعين والظالمين.

لقد قال أدورنو ما معناه: من غير الممكن أن تتحقّق العدالة، إن لم يكن هناك من قيامة للأموات، حتّى يصار بشكل ما إلى غسل الضيم، ولو بشكل متأخّر؛ يجب أن يكون بمكان ما غسل للآثام، ونصر للعدل، هذا ما ننتظره في كلّ الأحوال. المسيح ودينونته ليسا نصرًا للباطل، إنّما نصر للحقّ، بمعنى أنّ القاضي هو الإله العادل، هو في العمق بشارة سارّة. طبيعيّ أن تأخذني هذه البشارة السارّة إلى الواجب. لكنّني، عندما أرى في البشارة فقط تأكيدًا لذاتي، تكون في نهاية المطاف، من دون معنًى، نوعًا من التخدير. لذلك، علينا أن ننظر إلى خصائص الدينونة من وجهة نظر المعذّبين،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الذين لم يعرفوا العدالة، لكنّهم يملكون حقًّا فيها وأملاً. كما أنّ هذا يقتضي منّا أن نضع ذاتنا تحت مقاييسها، وأن نحاول ألاّ نكون في عداد الظالمين.

بالطبع، إنّ بشارة الدينونة فيها من العناصر ما يقلق، وهذا هو المطلوب أيضًا. أعني أنّنا، إذا عدنا إلى المتسلّطين في القرون الوسطى وأعمالهم الظالمة، عندما كانوا يفكّرون أنّ الدينونة تقترب، ويحاولون من خلال أعمالهم الطيّبة وعطاءاتهم الحسنة، إصلاح ما سبق، رأينا أنّ وعي الدينونة هو عنصر سياسيّ واجتماعيّ أيضًا. إنّ إدراكي أنّني لا يمكنني أن أودّع هذه الدنيا بهذه الحالة، وعليّ، بشكل أو بآخر، أن أصلح إساءتي، وأنّه حتّى فوق أقوياء هذا العالم، هناك وعيد مسلّط على الأقويان، فهذا نافع جدًّا. هذا في الواقع مفيد لكلّ إنسان.

لكن، علينا أن نقرّ بأنّنا نعرف، من خلال المسيح، أنّ هذا القاضي لا يطبّق القوانين بغلظة، بل إنّه يعرف الرحمة، وبإمكاننا التقرّب إليه من دون خوف. لكنّني أعتقد، أنّ على كلٍّ منّا أن يجد هذا التوازن الداخليّ، الذي يقضي بأن أحسّ بالدينونة، وأقرّ بأنّه من غير الممكن لي أن أخدع، كما أريد. هناك دينونة تنتظرني، لكنّني، من جهة أخرى، لست متروكًا للخوف وتأنيب الضمير.

يبدو لي، أنّه، بما سبق، يرتسم لدينا خطّ لرسالة الكنيسة وللرسالة الرعويّة. عليها بالتحديد أن تكون قادرة على تأنيب الأقوياء. كما عليها أن تواجه بما يشبه حركة التأنيب للّذين يخرّبون حياتهم، يهملونها، وذلك لسعادتهم الخاصّة، للحقّ وللعدل. لكن، لا يحقّ لها أن تتحوّل إلى قوّة باعثة للخوف، فعليها دائمًا أن تعرف إلى من تتوجّه. هناك الحسّاسون، ذوو النفوس الضعيفة إلى حدّ المرض، الذين يندفعون بسرعة إلى حدّ الخوف. علينا أن ننتشلهم من مناطق الخوف، ويجب أن نضيء نفوسهم بكلمة الرحمة. وهناك غليظو الجلد، حيث علينا أن نكون قساة معهم. كما أعتقد، كلّ هذه الأجزاء تتكامل بشكل يحوّل البشارة إلى سارّة، لانّه يجعلنا أكيدين من أنّ العالم صحيح، والحقّ سوف يغلب.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

نحن شعب الله

إنّ مفهوم «شعب الله» يُفسّر اليوم، وكأنّه تحرّر من مؤسّسة الكنيسة وفق الشعار: «نحن الشعب»، وما يقوله الشعب يجب أن ينفّذ. من ناحية أخرى، هناك القول: «صوت الشعب من صوت الله». ما رأيك بهذا المفهوم؟

بصفتنا لاهوتيّين ومؤمنين، علينا أن نسمع أوّلاً ماذا يقول لنا الكتاب المقدّس. لا يمكننا أن نعيد اختراع المفاهيم الكبيرة: «من هو الله»، «ما هي الكنيسة»، «الرحمة» وغيرها. إنّ نعمة الإيمان هي ميزة، أمّا مفهوم «شعب الله»، فهو مفهوم بيبليّ. وإنّ تداوله، كما جاء في الكتاب المقدّس، هو المعيار الذي يحدّد لنا كيفيّة فهمه. إنّه أوّلاً وأساسًا مفهوم وُجد في الكتاب المقدّس، العهد القديم، بالرغم من أنّ مفهوم «الشعب» يعود زمنيًّا إلى ما قبل مفهوم الأمم، فهو مشابه نوعًا ما للقبيلة أو العائلة.

لكنّه، قبل كلّ شيء، هو مفهوم لعلاقة ما. وهذا ما أظهره علم التفسير الحديث، بشكل واضح جدًّا. إنّ إسرائيل، حين تتصرّف سياسيًّا، هي ليست شعب الله. هي تتحوّل إلى شعب الله، عندما تتوجّه إلى الله. هي فقط من خلال اتّجاهها إلى الله وعلاقتها به، تصبح شعب الله، وهذا يتمّ في إسرائيل، من خلال الاستسلام للتوراة. بهذا المعنى، يردّ العهد القديم مفهوم «شعب الله» إلى اختيار الله لإسرائيل، لمجرّد محبّته لها، رغم كونها غير مهمّة، وصغيرة، حتّى إنّها كانت من أصغر الشعوب، ودون أيّ فضل لها. إنّه اختارها، ليغدق عليها محبّته. لكن، من جهة أخرى، هذا المفهوم يقتضي قبول هذه المحبّة، وهذا يعني في الواقع الخضوع للتوراة. من خلال هذا الاستسلام، الذي يضعه في علاقة بالله، يصبح هو شعب الله.

أمّا في العهد الجديد، فيصار إلى استعمال مفهوم «شعب الله» دائمًا (باستثناء مرّة أو مرّتين) وكأنّه صفة لشعب إسرائيل، إذًا، صفة لشعب العهد القديم. إنّه ليس مفهومًا كنسيًّا مباشرًا لكنّ الكنيسة تُفسّر في كلّ الأحوال، وكأنّها استمرار لإسرائيل، على الرغم من أنّ المسيحيّين لا يتحدّرون من إبراهيم. وبهذا المعنى، هم لا ينتمون إلى هذا

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الشعب. لكنّ العهد الجديد يقول لنا: إنّهم يتحدّرون من المسيح، وبذلك أصبحوا من أحفاد إبراهيم. أي، من ينتمِ إلى المسيح، ينتمِ أيضًا إلى شعب الله. بإمكاننا القول: إنّ مفهوم التوراة استُبدل بشخص المسيح. وبهذا المعنى، فإنّ فئة «شعب الله»، التي لا يتمّ استعمالها أبدًا للشعب الجديد، هي مرتبطة بالحياة، على نسق المسيح، ومعه، وفي رعيّته، أو كما يقول بولس: «ليكن فيكم من الأفكار والأخلاق ما هو في المسيح يسوع» (فيل٢، ٥) وهو يشرح ما يقصد: لقد كان مطيعًا حتّى الموت على الصليب. عندما نتمسّك فقط بمفهوم شعب الله، باستعماله الكتابيّ، نستعمله بشكل مسيحيّ. وكلّ ما تبقّى، هو تركيبات خارجة عن المسيحيّة، وبعيدة عن الصواب. وهي في رأيي إنتاج لكبرياء. فمن يمكنه القول: نحن شعب الله، كأنّه يحرم الآخرين أن يكونوا كذلك مختارين.

لكنّني أودّ أن أضيف ملاحظة عمليّة، تتعلّق بالقول: «نحن شعب الله». فانطلاقًا من القول: «نحن الشعب»، يُستخلص ما يلي: «نحن نقرّر. «لنأخذ مثلاً على ذلك أيّ نادٍ في ألمانيا الآن. يجتمع أعضاء النادي ويقولون: «نحن الشعب»، ولذلك سوف نقرّر كيف تجري الأمور. إنّها مدعاة للسخريّة. فلكلّ شعب مؤسّساته، ومن الواضح أنّه لا يتمّ مناقشة الدستور في المجلس البلديّ، بل في مجلس النوّاب، أي من خلال مؤسّسة تُمثّل بالفعل الجميع.

كذلك الحال في الكنيسة، حيث من غير الصحيح أن تشكّل مجموعة ما القوّة الخلاّقة للكنيسة والمقرّرة، إنّما المجموعة وحدها لها هذه الصلاحيّة، كما الجماعات الصغيرة، التي تعيش بوصفها جزءًا ضمن هذه المجموعة. حتّى من حيث المفهوم الشعبيّ الديموقراطيّ البحت، تُعَدّ فكرة أن تتمتّع مجموعة صغيرة بصلاحيّة التقرير، حول كلّ ما يجري، فكرة مرفوضة. فإنّ مجلسًا راعويًّا أو مجلسًا أبرشيًّا عليه أن يدير شؤونها. أمّا شؤون الكنيسة الجامعة، فلا يمكن تقريرها بهذا الشكل. بالإضافة إلى ما يرسمه أمامنا قانون الدولة، من مثل ما له الكثير من المعاني داخل الكنيسة، للكنيسة خاصّة تميّزها، وهي أنّها لا تعيش متّفقة مع الزمن (synchron) الحاضر فقط، إنّما أيضًا (diachron) بما معناه، أنّ الجميع – وحتّى الموتى – هم جميعًا – حاضرون، وأنّهم جميعًا يشكّلون الكنيسة. في حكومة ما، لدينا مثلاً بالأمس إدارة ريغان، وغدًا إدارة كلينتون، وكلّ إدارة جديدة تبدأ من جديد، وترمي في القمامة ما فعلت سابقتها. الأمر

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

يختلف في الكنيسة، التي تستمدّ حياتها من هويّة كلّ الأجيال، من هويّتها التي هي فوق الزمن. وغالبيّتها الواقعيّة يشكّلها القدّيسيون؛ كلّ جيل فيها يحاول السير على خطى القدّيسين، ويقدّم قسطه من المشاركة. لكنّ الكنيسة تبقى عاجزة عن ذلك، إذا لم تقبل استمراريّتها الطويلة، وتعش في وسطها.

لكن، بالطبع هناك استمرار في حياة الدول، بمعزل عن الرؤساء، مهما كانوا.

صحيح، لقد خرجنا الآن قليلاً عن المقصود. كذلك في الدولة، لا تبدأ كلّ حكومة من جديد، عند نقطة الصفر. كلّ إدارة، هي حقبة من التقليد الإداريّ الطويل، وبالتزامها بالدستور، هي لا تعيد دائمًا بناء الدولة من نقطة الصفر. إذًا، ما هو صحيح في الدولة، يصحّ أيضًا في الكنيسة، لكن بطريقة أعمق وأكثر التزامًا.

هناك تيّارات انطلقت من «نحن الشعب»، قفزت فوق كلّ المعايير، ولم تعد تتقيّد بأيّة أصول، أو قواعد، أو مجالس.

تعني في الدولة؟ نعم، نعم. ليس لهذه الظاهرة، في هذا المجال، أيّ شيء استثنائيّ، عندما يتعلّق الأمر بالكنيسة. أمّا في الدولة، فما يُثبت لنا أنّ ذلك لا يطول، فهو التيّارات المبنيّة على الديموقراطيّة. قام الاتّحاد السوفياتيّ على فكرة مماثلة. كان الهدف أن تقرّر «القاعدة»، من خلال المجالس، والهدف المطلوب كان أن يشارك الجميع بفعاليّة في الحكم. هذه الديموقراطيّة المباشرة، التي نُصبت في مجابهة الديموقراطيّة التمثيليّة (البرلمانيّة)، تحوّلت في الواقع إلى كذبة. لن يكون الحلّ مختلفًا في كنيسة مجالس.

إنّ الشعار «نحن الشعب» هو شعار جذّاب، لأنّه في الماضي القريب، ومن خلال حركات المعارضة في ألمانيا الشرقيّة، أثبت نجاحه.

هذا صحيح. في المثل السابق، يبدو أنّ الشعب بأكمله اصطفّ وراء هذا الشعار. لكن، منذ ذلك الوقت، نرى أيضًا كيف تفتّت هذا الاصطفاف. لقد كان كافيًا لقيادة احتجاج كبير، لكنّه لم يكف لقيادة إيجابيّة لحياة مشتركة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

السلطة المقدّسة والأخوّة

لماذا يجب أن تعمل الكنيسة وفق طرق سلطويّة حتّى في أيّامنا هذه، وأن تنظّم مؤسّساتها بهذا الشكل التوتاليتاريّ؟ إنّ فكرة الشكل الديموقراطيّ تراود العديدين. من غير المقبول أن ننتقد في المجتمع فقدان الديموقراطيّة، وحقوق الإنسان بينما نحن في دارنا الخاصّة لا نترك مجالاً لها. لا نستطيع أن نساند الشعور بالأخوّة الإنسانيّة، بينما نحن نعمل تحت ضغط الشعور بالذنب والقوانين الصارمة.

أوّلاً، لنعد إلى كلمة «تراتبيّة سلطويّة». إنّ ترجمتها الصحيحة قد لا تكون «السلطة المقدّسة»، بل «المصدر المقدّس». إنّ لفظة (archaé) تدلّ على المعنيَين، مصدر، وسلطة، ولكنّ المعنى المحتمل هو «المصدر المقدّس»، إذ إنّ قوّة المصدر تنتقل تباعًا، وقوّة المنشأ المقدّسة هذه، تشكّل بطريقة ما دائمًا ومن جديد بداية كلّ جيل في الكنيسة. هذه القوّة لا تستمدّ حياتها من استمراريّة الأجيال فقط، بل من النبع نفسه المتجدّد بشكل دائم وحاضر، والذي ينتقل إلينا من خلال الأسرار المقدّسة. باعتقادي، ينبغي إذًا، قبل كلّ شيء، إجراء تفسير مهمّ في وجهة نظرنا، فلا نعود نصنّف رجال الكهنوت في خانة أصحاب السلطة. وعلى العكس من ذلك، يجب أن يكون الكهنوت مسلكًا واسترجاعًا لبداءة وموضوعة لخدمة، وإنّه من الخطأ والمحال ألاّ نرى فيه إلاّ السلطة فحسب، والرتبة الأسقفيّة والحبريّة.

ومن الإنجيل نعرف أنّ خلافات وقعت بين تلاميذ المسيح، تتعلّق بتبوّؤ الصدارة، وأنّ نزعة اعتبار التلمذة علامة للسلطة، ظهرت منذ اللحظة الأولى، وهي مستمرّة أيضًا. ولا مجال للشكّ في أنّ هذه النزعة وُجدت في كلّ الأجيال، كما في أيّامنا الحاضرة. ولكن، في الوقت عينه، تقدر التفاتة السيّد المسيح، الذي غسل أقدام تلاميذه، وجعلهم أهلاً للجلوس معه ومع الربّ إلى المائدة المشتركة. وقد أراد القول

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

بعمله هذا: هذا هو الكهنوت. فإذا كان ذلك لا يعجبكم، فلستم إذًا كهنة. وكما قال لوالدة ابني زبدى: إنّ الشرط المسبّق يكمن في شرب الكأس، ويعني بذلك الاشتراك معه في آلامه. وإذا جلسا إلى اليمين أو إلى اليسار، أو في أيّ مكانٍ آخر، فهذا نقاش مختلف. انطلاقًا ممّا سبق، يمكن القول أن تكون من التلاميذ، يعني أن تشرب الكأس، أن تنخرط وتنضوي تحت قدر الجماعة مع السيّد، أن تتحوّل إلى غاسل أقدام، إلى متألّم مع وعن الآخرين. فالنقطة الأولى، إذًا، هي أنّ معنى التراتبيّة لا يكون بتأسيس بنية مجرّدة من الصلاحيّة والسلطة، بل بصيانة شيء ما، لا يتعلّق بفرد واحد. ليس بإمكان أحد أن يغفر الخطايا بقدرته الخاصّة، أو أن يتشارك مع الروح القدس، أو أن يحوّل الخبز إلى جسد يسوع المسيح. لذلك، علينا أن نقدّم خدمة لا تحصر الكنيسة في دور شركة للإدارة الذاتيّة، بل أن نساعدها لتستمدّ حياتها دائمًا وأبدًا من المصدر الأوّل.

ملاحظة ثانية عامّة: إنّ كلمة «أخوّة» كلمة جميلة، لكن، يجب أن لا ننسى، في أيّ حال، أنّ معناها مزدوج. الأخوان الأوّلان في التاريخ كانا، وفق الكتاب المقدّس، قايين وهابيل، وأحدهما قتل الآخر. في تاريخ الديانات، نجد هذا التصوّر في أماكن عديدة. إنّ الأسطورة الميتولوجيّة، التي تشرح أصل روما، فيها ما يشابه: رمولوس وروموس. هي تبدأ مع أخوين، أحدهما يقتل الآخر. إذًا، الأخوّة لا تعني بالضرورة صورة للمحبّة وللمساواة. كما أنّ الأبوّة قد تتحوّل إلى استبداد. هكذا عندنا في التاريخ أمثال عديدة للشعور الأخويّ السلبيّ.

لنعد الآن إلى الأسئلة العمليّة. من الممكن أن تتّخذ الكنيسة حاليًّا العديد من القرارات والأحكام. على الرغم من أنّه وفق جوهر هذه المؤسّسة، عليها أن تقوم بالخدمة، أن يُصار إلى الاحتفال بالأسرار، حتّى يتمكّن يسوع من الدخول، وأن يُصار إلى التبشير بكلمة الله. كلّ ما تبقّى، هو مبنيّ (على هذه الشروط الأساسيّة)، عليها خاصّة أن لا تمارس مهمّة الحكم الدائم، بل أن ترتبط بالحياة مع المصدر وتخضع له. وعلى حامل المسؤوليّة، أن لا يبشّر بذاته، ويعيد انتاج نفسه، ولكن أن يتنحّى بشخصه جانبًا، ليشكّل مدخلاً للآخرين، وهذا ما ذكرناه سابقًا. لذلك، يجب عليه أوّلاً أن يكون مستمعًا جيّدًا، أن لا يباشر إلى الإدلاء بقولٍ ما، قبل أن يتساءل ما قد يقوله المسيح وإيماننا، وثانيًا، عليه أن يكون خادمًا، يضع نفسه في تصرّف الناس، ووفق مثل المسيح، حاضرًا لغسل أقدام الآخرين، وهو ما نراه في حياة القدّيس أوغسطينوس، بشكلٍ جميل

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

جدًّا. لقد ذكرنا سابقًا أنّه كان دائمًا منشغلاً بالهموم اليوميّة، وهو ما أقصد به غسل أقدام الآخرين، وأنّه كان مستعدًّا للتضحية بحياته العظيمة، والقبول بالحياة العاديّة، قد نظنّ أنّها كانت حياة فاشلة، ولكنّه كان واثقًا من أنّه لا يقدّمها هباءً. هنا، تكمن الصورة الحقيقيّة للحياة الكهنوتيّة. عندما نتبنّى الحياة الكهنوتيّة بالعمق، هذا لا يعني أبدًا لأنّنا سنصل إلى مراكز القوّة، إنّما يعني التضحية بالمشاريع الحياتيّة الخاصّة، ووضع أنفسنا في الخدمة.

وهذا يفترض بالطبع، وهنا أستشهد بأوغسطينوس، التنبيه، التأنيب، حتّى لو جررنا المشاكل على أنفسنا. يتحدّث أوغسطينوس في إحدى عظاته، قائلاً: أنت تريد أن تعيش في السوء، تريد أن تحطّم نفسك. ثمّ يتابع: ما لا يحقّ لي أن أسمح لك به. حتّى لو اعترضت، عليّ أن أنبّهك. ويذكر هنا مثل الوالد المريض بالنوم، الذي يوقظه ولده باستمرار، لأنّها الطريقة الوحيدة لخلاصه. لكنّ الوالد يقول: دعني أنام، إنّني تعب حتّى الموت. فيجيب الابن: لا يحق لي أن أتركك تنام. ويضيف أوغسطينوس، قائلاً: إنّها بالتحديد وظيفة الأسقف. لا يحقّ لي أن أترككم تنامون. إنّني أعلم أنّكم تودّون النوم، لكن، هذا بالضبط ما يجب ألاّ أسمح به. فبهذا المعنى، على الكنيسة أن ترفع يدها معترضة ولو أزعجت. لكن، من المهمّ أن يبقى واضحًا، أنّها لا ترغب بمضايقة الناس، أو بإزعاجهم، لا يحقّ لها أن تسلّمنا إلى النوم، لأنّ النوم قاتل. وعليها في تحمّلها لهذه المسؤوليّة، أن تحمل معها آلام المسيح. فنحن، بوصفنا بشرًا، أعطانا المسيح مصداقيّته من خلال آلامه، وهذا هو حال الكنيسة، التي هي أكثر إقناعًا حيث قدّمت الشهداء والمناضلين، ونراها تفقد من فعاليّتها، حيث الأجواء مريحة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

التبتّل

من المستغرب، أنّه ما من موضوع يثير الحماس، لدى الناس، أكثر من موضوع التبتّل، على الرغم من أنّه لا يطال إلاّ عددًا بسيطًا جدًّا من الناس، فلماذا التبتّل؟

إنّه مرتكز على كلام المسيح. فهو يقول: هناك الذين، وبهدف الوصول إلى ملكوت الله، يزهدون بالزواج ليعطوا بوجودهم الكامل الشهادة على ملكوت الله. لقد توصّلت الكنيسة، ومنذ بداياتها، إلى القناعة بأنّ الحياة الكهنوتيّة تعني إعطاء الشهادة على وجود ملكوت الله. كان بإمكانها، وبشكلٍ علميّ، أن ترتكز على تشبيه من طبيعة أخرى، في العهد القديم. إنّ القبائل الإحدى عشرة حصلت كلّ منها على أرضٍ خاصّة بها. وحدها سلالة ليفي، وهي سلالة الكهنة، لم تحصل على أيّة أرض. لم يكن لها أيّ إرث. إرثها كان الله وحده. ما معناه عمليًّا، أنّ أفراد هذه السلالة، كان عليهم الاعتماد على القرابين التي تقدّم، خلال الشعائر الدينيّة. خلافًا للقبائل الأخرى، التي كان بإمكانها الاعتماد على استغلال الأرض. النقطة الأساسيّة هي: لم تكن لهم أيّة ملكيّة. فكما يقول لنا المزمور السادس عشر: «أنت حصّتي من الكأس، أنت نصيبي، الله هو أرضي». إنّ الصورة، التي تظهر لنا في العهد القديم، هي أنّ سلالة الكهنة لا ملك لها، وأنّها تعيش بمعنًى ما، معتمدة على الله ـ وبالطبع، ومن خلال حياتها، تشهد له ـ وهو ما تُرجم فيما بعد، وعقب كلام المسيح، بما معناه: إنّ الموطن الذي يعيش فيه ومنه الكهنة هو الله.

في أيّامنا هذه، نجد صعوبة كبيرة في فهم هذا الزهد، وذلك لأنّ العلاقة انحرفت لصالح الزواج والأولاد. أن تموت دون أولاد، كان يعني في السابق أنّك عشت حياةً لا معنى لها، فهكذا تختفي من الحياة، دون أن تترك أيّ أثر. أمّا أن تخلّف وراءك أولادًا، فهذا نوع من الخلود، حصلت عليه من خلال الأحفاد. لذلك، كان الواجب الأوّل أن تترك وراءك أحفادًا يوفّرون لك البقاء في دنيا الأحياء.

إذًا، علينا أن نفهم، أنّ الاستغناء عن الزواج وعن العائلة، ينبع من هذا المنطلق:

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أنا أزهد بإرادتي عمّا هو طبيعيّ ومهمّ لكلّ بشريّ. أنا أمتنع بإرادتي عن أن يكون لي مشاركتي الخاصّة في شجرة الحياة، وأعيش في الإيمان أنّ موطني هو الله. أرسم بذلك صورة مقنعة للآخرين، بأنّ ملكوت السماوات موجود، وبأنّني بطريقة الوجود المميّزة هذه، أضع شهادة في يسوع المسيح وفي الإنجيل، شهادة بعيدة عن أن تكون شهادة كلاميّة فقط، كما أضع حياتي وفق هذا الشكل الخاصّ في تصرّفه.

من هذه الناحية، للتبتّل معنًى مسيحيّ ورسوليّ، في الوقت ذاته. إنّ الأمر لا يعني وببساطة توفير الوقت – لديّ المزيد من الوقت لأنّني لست ربّ عائلة – الأمر بعيد عن أن يكون بهذه البدائيّة والبرغماتيّة. في الواقع، المسألة مسألة وجود، يراهن بشكل تامّ على الله، ويهمل جانبًا ما يحوّل الوجود الإنسانيّ عامّة إلى وجود ناضج وواعد.

من ناحية أخرى، لا يتعلّق الأمر بدوغما. هل من الممكن أن يتحوّل النقاش يومًا ما باتّجاه الخيار الحرّ، بين التبتّل أو الزواج؟

بالطبع، الأمر بعيد عن أن يكون دوغما. إنّه نموذج حياة، بني في الكنيسة، ومنذ بداياتها، على أرضيّة بيبليّة. حتّى إنّ أبحاثًا جديدةً تُظهر أنّ العزوبة تعود تاريخيًّا إلى القرن الثاني، أي إلى أقدم بكثير ممّا نعرفه، من خلال المصادر القانونيّة. كما أنّه كان منتشرًا في مناطق الشرق، بشكل أوسع بكثير ممّا اعتقدناه حتّى الآن. وهنا تفرّقت الطرقات في القرن السابع. حتّى الآن، ما زالت الرهبنة في الشرق هي الفئة الأساسيّة في الكهنوت وفي التدرّج في الرتب. بمعنى أنّ العزوبة لا تزال تحافظ على معنًى كبير.

الأمر بعيد عن أن يشكّل دوغما، إنّها طريقة حياة، نمت داخل الكنيسة، وهي بالطبع تحمل دائمًا في ذاتها خطر الانجراف. عندما نراهن على العلى، هناك دائمًا خطر السقوط. أعتقد بأنّ مواقف الناس السلبيّة من العزوبة هي نتيجة لمراقبتهم للعديد من الرهبان، الذين يعانون التشتّت الداخليّ حول هذه النقطة، والذين يعيشون العزوبة في عذاب دائم، أو بشكلٍ كاذب، أو سيّئ، فهم يقولون...

... *إنّ العزوبة تحطّم الإنسان*...

كلّما كان الزمن فقيرًا بالإيمان، تكاثرت أخطار السقوط. وهنا، تفقد العزوبة قدرة مصداقيّتها، ولا يتّضح معناها الحقيقيّ. لكن، علينا أن نتنبّه إلى أنّ أزمات العزوبة تقع دائمًا في مراحل يمرّ فيها الزواج بمحن. ما نعيشه اليوم، لا يقتصر على تصدّع مفهوم

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

العزوبة. إنّ مؤسّسة الزواج بذاتها تزداد تصدّعًا، بينما هي تشكّل حجر الأساس في مجتمعاتنا الغربيّة المحكومة بالقوانين، حيث نرى أنّ الزواج أصبح يعادل، من حيث المستوى، الأشكال الأخرى، وكيف يصيبها التحلّل، حتّى في أشكالها القانونيّة. إنّ الجهد المطلوب، خلال الحياة الزوجيّة، ليس بالتافه، ما معناه، عمليًّا أنّنا، وإذا قمنا بإلغاء العزوبة، سوف نكون أمام مشكلة من نوع آخر، وهي الكهنة المطلّقون. إنّ الكنيسة الإنجيليّة تعرف هذا تمامًا. وهو ما يدفعنا إلى القول إنّ الأشكال السامية من الوجود الإنسانيّ، تحمل في ذاتها الأخطار الكبيرة.

ما أودّ استنتاجه، هو أنّه لا يجوز أن نعلن العجز التامّ، بل علينا أن نتعلّم الإيمان أكثر. كما أنّه علينا أن نزيد من الحرص على اختيار المرشّحين للكهنوت. جوهر الموضوع، هو أن يكون قرار الاختيار حرًّا تمامًا، وعلى أن لا يعلّل القبول بالعزوبة على أنّه فرض واجب اضطُرّ للقبول به من يريد الكهنوت. أو أنّ فردًا ما يعلّل سبب القبول به لأنّه، في كلّ الأحوال، لا يهتمّ للنساء. إنّها ليست قاعدة جيّدة للانطلاق. إنّ المرشّح لسرّ الكهنوت، عليه أن يعترف أنّ الإيمان قوّة في حياته، وعليه أن يدرك أنّه لا يمكنه النجاح بما سيُقدم عليه من دون الإيمان. عندها، تعود العزوبة لتؤدّي دور الشاهد، أو لتعطيهم الشجاعة على الزواج. إنّ المؤسّستين متداخلتان في العمق، إذا لم يعد الوفاء والإخلاص ممكنًا في إحداهما، كذلك يكون مصيره في الأخرى.

ما تقوله عن الارتباط بين أزمة العزوبة وأزمة الزواج، هل هذا نوع من الافتراض؟

إنّ الموضوع يبدو لي بشكل واضح. في كلتا الحالتين، يتمركز وسط الذات سؤال قرار مصيريّ نهائيّ: هل بإمكاني، منذ الآن، وأنا في الخامسة والعشرين، أن أتصرّف بحياتي كلّها؟ بالمطلق، هل هذا ممكن للإنسان؟ هل هناك من إمكانيّة لتحمّل ذلك ومتابعة النموّ بشكلٍ حيّ، والنضوج – وأليس من الأفضل أن أبقى منفتحًا على كلّ الاحتمالات؟ إنّ السؤال في العمق، هو التالي: هل يمتلك الإنسان إمكانيّة القرار النهائيّ، في ما يتعلّق بكلّ ما هو مركزيّ في وجوده؟ وهل بإمكانه أن يحتمل، خصوصًا في قراره حول طريقة حياته، عقدًا يربطه نهائيًّا؟ ما سوف أقوله، هو ذو وجهين: نعم، هو يستطيع، عندما يكون واقفًا مترسّخًا فعلاً في الإيمان. وثانيًا، عندما يكون بوسعه أن يتوصّل إلى محبّة إنسانيّة مكتملة الشكل، وإلى نضج إنسانيّ. كلّ ما هو دون الزواج الأحاديّ، يبقى قليلاً بالنسبة إلى الإنسان.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لكن، إذا صدقت الأرقام التي تحصي حالات عدم التزام قسم العزوبة، عندئذٍ، يكون نذر العزوبة منهارًا منذ زمن. وهنا أعاود السؤال: هل من الممكن أن يطرح يومًا هذا السؤال، ليتّجه نحو القرار الحرّ؟

في كلّ الأحوال، يجب أن يكون القرار حرًّا. إنّ الأمور تجري على النحو التالي: قبل السيامة الكهنوتيّة يجب التأكّد من جديد، من أنّ الإنسان يأخذ قراره بحرّيّة، وبإرادته، لذلك، ينتابني شعور رديء، عندما يُقال فيما بعد، إنّها عزوبيّة أُلزمنا بها. إنّ هذا الكلام يعاكس القول الذي أعطي في البدء. لذلك، وخلال تنشئة الرهبان، يجب الانتباه بشكلٍ أساسيّ إلى أن تُؤخذ هذه الكلمة بجدّيّة. هذه هي النقطة الأولى. أمّا النقطة الثانية، فهي: حيث يعيش الإيمان، وبالعمق الذي تعيش فيه الكنيسة للإيمان، فلا بدّ من أن تتكوّن فيه القوّة المساندة.

إنّني أعتقد بأنّنا، وبإلغائنا لهذا الشرط، لن نُحسن شيئًا، إنّما نحاول بالعكس التحايل على أزمة يمرّ بها الإيمان. بالطبع، إنّها تراجيديا للكنيسة، عندما يعيش الكثيرون حياة مزدوجة. لكن، وللأسف، ليست هذه المرّة الأولى التي تكون فيها الأحوال على هذا النحو. لقد مررنا، في أواخر القرون الوسطى، بوضع مشابه، كان أيضًا أحد الدوافع التي أدّت إلى الحركة الإصلاحيّة اللوثريّة. إنّه بالطبع حادث تراجيديّ، يجب علينا التأمّل به جيّدًا، وإن يكن فقط من أجل الناس الذين يتألّمون في العمق. لكنّني أعتقد، وبعد نتائج مجمع الأساقفة، بأنّ قناعة غالبيّة الأساقفة تتمثّل في أنّ المشكلة الأساسيّة تكمن في أزمة الإيمان، أنّنا، إذا حاولنا الفصل بين المسارين، فلن نحصل على كهنة من نوعيّة أفضل، ولا بأعداد أكثر، إنّما نحن بذلك نتحايل على أزمة إيمانيّة، ونهرب بالحلول باتّجاه طريق مكشوف وواضح سلفًا.

سوف أعود إلى سؤالي من جديد: هل تعتقد بأنّه سوف يكون للكهنة، في يوم ما، الاختيار بين حياة العزوبة وعدمها؟

لقد فهمت تمامًا ما تقصد: كان عليّ أن أوضّح، أنّه، في كلّ حال، فإنّ قسَم العزوبة قبل السيامة الكهنوتيّة هو اختيار حرّ. ومن يتمّ قبوله ككاهن، هو فقط من وافق بملء إرادته. هنا، بالطبع يُطرح السؤال: ما هو عمق العلاقة بين الكهنوت والعزوبة؟ ألا تنمّ إرادة الفصل بينهما عن رؤية ضعيفة لسرّ الكهنوت؟ أعتقد بأنّه بإمكاننا هنا، وبدون أيّة مشكلة، أن نشير إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة، وإلى الكنيسة البروتستانتيّة. إنّ المسيحيّة

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

البروتستانتيّة تنظر إلى الكهنوت بطريقة مختلفة تمامًا: إنّه وظيفة، إنّه مركز للخدمة ينبع من الجماعة، وهي بهذا المعنى بعيدة عن أن تكون سرًّا مقدّسًا أمّا في الكنيسة الأرثوذكسيّة، فلدينا من جهة الشكل الكامل للكهنوت، فالرهبان الكهنة وحدهم بإمكانهم الترقّي إلى الأسقفيّة. إلى جانبهم هناك «خدّام الناس» والذين إذا أرادوا الزواج بإمكانهم ذلك، شريطة أن يقدموا عليه قبل أن يرتسموا كهنة، والذين هم بمثابة خدمة للشعائر، وقليلاً ما يمارسون وظيفة الرعاة والقساوسة. بهذا المعنى، يكون للواحدة مفهوم مختلف نوعًا ما عن مفهوم الكهنوت. أمّا نحن، فنعتقد بأنّ كلّ من يودّ أن يكون كاهنًا، عليه أن يكون بالطريقة التي تسمح له، أن يصبح أسقفًا، وأيّ تصنيف آخر غير ممكن.

لكن يجب ألاّ نعلن أيّ تقليد حياتيّ، ضمن الكنيسة، مهما كان راسخًا في العمق، على أنّه حقيقة مطلقة. بالتأكيد، سوف تعيد الكنيسة دائمًا، ومن جديد، طرح هذا السؤال على نفسها. لكنّني أظنّ، وانطلاقًا من مجمل تاريخ المسيحيّة الغربيّة، ومن نظرة داخليّة شموليّة، أنّه يجب على الكنيسة ألاّ تعتقد بأنّها سوف تربح الكثير، إذا انتقلت إلى مرحلة الفصل بين العزوبة والكهنوت؛ إنّها بكلّ تأكيد سوف تخسر، إذا ما أقرّت هذا.

باستطاعتنا، إذًا القول: إنّك لا تعتقد، بأنّه ذات يوم سوف يكون هناك في الكنيسة الكاثوليكيّة كهنة متزوّجون؟

على كلّ حال ليس في وقت منظور. والآن، حتّى أكون صادقًا، يجب أن أضيف، أنّه لدينا كهنة متزوّجون، وهم أتوا إلينا، إمّا من الكنيسة الأنجليكانيّة، أو من كنائس إنجيليّة مختلفة، بوصفهم مرتدّين. إذًا، في حالات استثنائيّة. وكما أعتقد، سوف يبقى الأمر أيضًا في المستقبل محصورًا في خانة الاستثناء.

ألا يجب أن تلغى العزوبة لسبب بسيط، وهو أنّه بغير هذه الخطوة، لن تحصل الكنيسة على كهنة بشكل كافٍ؟

لا أظنّ أن هذا سبب مقنع. إنّ مشكلة الناشئة بين الكهنة لها أوجه عديدة: أوّلاً، هي مرتبطة بشكل مبدئيّ بعدد الأولاد. وعندما نرى أنّ المعدّل العامّ لعدد الأولاد اليوم هو١,٥ نفهم أنّه علينا أن نطرح السؤال حول احتمال وجود كهنة بينهم، بشكل يختلف

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

تمامًا عن الزمن الماضي، حيث كانت العائلات أكبر بشكلٍ ملحوظ، كما أنّ توقّعات العائلة هي مختلفة تمامًا. إنّنا نعيش دائمًا تجارب، حيث العائق الأساسيّ في وجه العودة إلى الكهنوت، هو الأهل لأنّهم غالبا ما يتعلّقون دائمًا بأولادهم. هذه هي النقطة الأولى. أمّا النقطة الثانية، فهي أنّ عدد المسيحيّين الملتزمين قد قلّ جدًّا، ما معناه أنّ المجموعة، التي يمكن أن ترد في الحسبان، هي أيضًا قد تضاءلت. بالنسبة إلى عدد الأولاد المتناقص، وإلى عدد الملتزمين بالحياة الكنسيّة، قد لا يكون عدد الكهنة متضائلاً. السؤال الأوّل هو، إذًا: هل هناك مؤمنون؟ وثمّ يليه السؤال الثاني: وهل من الممكن أن ينمو بينهم كهنة في المستقبل؟

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

منع الحبل

سيّدي الكاردينال، الكثير من المؤمنين لا يفهمون موقف الكنيسة من منع الحبل. هل بإمكانك أن تتفهّم تساؤلاتهم؟

نعم، أنا أفهم جيّدًا، وأرى أنّ المسألة معقّدة في الواقع. إنّه أمر مفهوم، وسط ارتباك عالم اليوم، حيث من غير الممكن أن يكون عدد الأولاد مرتفعًا، لأسباب سكنيّة، كما لأسباب عديدة أخرى. وهنا، علينا التقليل من التركيز على الحكم، في القضايا الخاصّة، وعوضًا من ذلك، محاولة رؤية المراد السامي، الذي تضعه الكنيسة نصب عينيها.

كما أرى أنّ الأمور تدور حول ثلاثة اختيارات أساسيّة. الخيار الأوّل هو، بشكلٍ أساسيّ، اتّخاذ موقف إيجابيّ من الطفل في الإنسانيّة. هناك تحوّلٌ غريب في هذا المجال، بينما، في المجتمعات البسيطة، وحتّى القرن التاسع عشر، كانت نعمة الأطفال هي البركة بامتياز، أمّا اليوم فيُنظر إليهم وكأنّهم خطر وتهديد. نظنّ أنّهم يسلبوننا مكاننا في المستقبل، يهدّدوننا في مجالات حياتنا الخاصّة وإلخ. فموقف الكنيسة موحًى أوّلاً من قصد الرجوع إلى الرؤية الحقيقيّة، وهي أنّ الطفل، المولود الجديد، هو بركة، وأنّنا من خلال إهدائنا الحياة، ننعم نحن أيضًا بحياة جديدة، وأنّ هذا الخروج عن الذات بالتحديد، وقبول بركة الخلق بنوعٍ خاصّ، هما مفيدان للإنسان بنوعٍ أساسيّ.

أمّا الخيار الثاني، فهو أنّنا نقف اليوم أمام ما لم نعرف مثيلاً له في السابق، وهو الفصل بين الجنس والتناسل، وهذا بالذات ما يزيد من ضرورة التركيز على المحافظة على الترابط الداخليّ بينهما.

في خلال ذلك نسمع، وخاصّة من دعاة الجيل ال ٦٨، والذين طبّقوا مبادئ تعليقات مذهلة. بواسطة «حبوب منع الحمل» يبشّر مثلاً راينر لانغهانس، الذي كان يدعو سابقًا إلى الجنس المتّوج بالأورغاسم، ويرى اليوم أنّ الجنس غالبًا ما تُبتر عنه الناحية الروحيّة،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

فيرمي بممارسيه في مأزق مسدود. لانغهانس يشكو من «فقدان العطاء، فقدان الولاء». هو يدّعي أنّ أسمى ما يصبو إليه الجنس إنّما هو «الأبّوة»، ويسمّي هذا «العمل في مخطّط الله».

إنّ الأمور تتطوّر، وفي الأساس، باتّجاه واقعَين منفصلَين تمام الانفصال. نجد في رواية هوكسلي المشهورة، التي تتحدّث عن مستقبل «العالم الحديث الجميل» رؤية مميّزة ومبنيّة على أسس قويّة للتراجيديا الإنسانيّة، حيث الحياة الجنسيّة منفصلة تمامًا عن التناسل. هنا يُصار إلى تصنيع الأولاد في المختبرات، ووفق مخطّط مدروس. إنّ هذا بالطبع كاريكاتور واعٍ، لكنّه وككلّ رسمٍ كاريكاتوريّ، يُظهر ملامح شيء ما: إنّ الطفل يجب أن يكون وليد تخطيطٍ وعملٍ، أي أنّ عليه أن يخضع لرقابة العقل. وبهذا يُسيء الإنسان إلى ذاته. بهذا نحوّل الأولاد إلى مُنتَج، نحاول من خلاله إعادة إظهار ذاتنا، ونسلبهم مسبّقًا مشاريع حياتهم الخاصّة. أمّا الجنس، فيصبح بضاعة يُمكن استبدالها. وبالطبع، يختفي هنا الترابط بين الرجل والمرأة. إنّنا نرى التطوّرات منذ الآن.

إذًا، السؤال حول منع الحمل يتضمّن الخيار الأساسيّ، الذي هو أنّ الكنيسة تريد المحافظة على الإنسان في حالة واحدة مع ذاته. أمّا الخيار الثالث، المتعلّق بالموضوع، فهو أنّه على الإنسان، وبهدف حلّ المشاكل الأخلاقيّة الكبيرة، أن لا يحاول حلّها بواسطة التقنيّة أو الكيمياء، إنّما أن يحلّها أخلاقيًّا، من خلال طريقة حياة. إنّني أعتقد – وبعيدًا عن موضوعنا الذي يدور حول منع الحمل – بأنّ هذا يشكّل أحد أكبر المخاطر التي تعترضنا. إنّنا نحاول قمع إنسانيّتنا بواسطة التقنيّة، متناسين أنّ هناك مشاكل إنسانيّة أوّليّة، لا يمكن حلّها بواسطة التقنيّات المتطوّرة، بل إنّها تفترض قرارات معيّنة، وأسلوب حياة. قد أفضّل أن يصير هنا التركيز على هذه الاتّجاهات الأساسيّة، حيث تقود الكنيسة المعركة لأجل الإنسان بأكمله، عندما يدور الحديث حول منع الحمل. ولنستخلص، أنّ معنى الاعتراضات الكنسيّة، تكون متعثّرة أحيانًا في طريقة تعبيرها، لكنّ الموضوع يدور حول اتّجاهات سماويّة كبيرة تهمّ الوجود الإنسانيّ.

يبقى السؤال: هل يصحّ اتّهام أهل رزقوا بعددٍ من الأولاد، بأنّ موقفهم من الأولاد سلبيّ؟

لا، بالتأكيد لا. هذا لا ينبغي أن يحدث.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هل على هؤلاء الناس أن يتصوّروا أنّهم يعيشون في حالة الخطيئة إذا...

أعتقد بأنّه من الأفضل بحث هذا النوع من الاسئلة مع المرشد الروحيّ، أي مع الكاهن، لأنّها أسئلة لا يمكن طرحها بشكلٍ مطلق وبعيد عن الواقع.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الإجهاض

وفق ما يراه البابا، سوف تستمرّ الكنيسة في المعارضة القويّة لكلّ ما يشجّع، بشكلٍ أو بآخر الإجهاض، العقم، أو حتّى منع الحبل. إنّ خطوات كهذه خدشت كرامة الإنسان، بصفته صورة لخالقه، وزعزعت بذلك أسس المجتمع. إنّ الموضوع يدور بشكلٍ أساسيّ حول حماية الحياة. من جهة أخرى، نتساءل: لماذا عقوبة الإعدام بصفتها «حقًّا للدولة»، كما يقول التعليم المسيحيّ، «لم تُستبعد»؟

إنّ عقوبة الإعدام تعاقب، عندما يتمّ استعمالها وفق القوانين، من أقدم على القيام بأعمال إجراميّة كبيرة ثابتة عليه، ومن يُشكّلُ خطرًا على السلام الاجتماعيّ. إذًا، تعاقب من هو خاطىء. أمّا في حال الإجهاض، فإنّ عقوبة الإعدام تطال البريء. إنّهما حالتان مختلفتان، لا يمكن مقارنتهما ببعضهما.

الصحيح هو أنّ الجنين يُعدّ، من قبل البعض، وكأنّه معتدٍ، يُضيّق عليّ الفسحات في الحياة، وهو يزجّ بذاته في حياتي، فيضطرّني إلى قهره، وكأنّه معتدٍ غدّار. لكنّها وجهة النظر التي سبق وتحدّثنا عنها سابقًا، وهي أنّ الطفل لم يعد يُنظر إليه على أنّه صورة لخالقه الله، وعلى أنّه مخلوق من الله، إنّما، وما دام هو لم يولد بعد، يصنّف فجأة على أنّه العدوّ، أو على أنّه حاجز معيق، ولي كلّ الصلاحيّات بالتصرّف به. إنّني أعتقد، بأنّ المسألة تنحصر في تصفية الضمير للاعتراف بأنّ الجنين هو إنسان، هو فرد.

إنّه فرد مستقلّ عن الأمّ – وإن كان بحاجة إلى حمايتها، داخل رحمها – لكنّه يبقى فردًا مختلفًا عنها، ولأنّه إنسان، يجب معاملته كإنسان. إنّني أعتقد بأنّنا، عندما نتهاون بالمبدأ الذي يقول: إنّ كلّ إنسان هو إنسان، يقف في ظلّ حماية الله، وهو إنسان يمكن إخضاعه لتحكّمنا المتعسّف، عندها، نكون فعلاً نضحّي بالقواعد الأساسيّة لحقوق الإنسان.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لكن، هل بإمكاننا تصنيف من قرّر الحمل، انطلاقًا من حاجة ملحّة، أنّه متآمر على الحياة؟

مسألة كيف يتوزّع الذنب على كلٍّ من الأفراد، هي مسألة لا يمكن تقريرها بشكلٍ مطلق. لكن، ولنقل إنّ الحدث بحدّ ذاته – قد يكون سبب هذه الحالة ضغط من الرجل – هدفه إيجاد حلٍّ لحالة خلافيّة، إنّما نتيجته هي قتل إنسان. إنّ هذا لن يُشكّل أبدًا الحلّ لموقف خلافيّ، فنحن نعرف من المحلّلين النفسيّين كيف تؤثّر حالة مماثلة في المرأة، فهي تُدرك أنّ جنينها إنسان، وأنّه طفلها، وأنّه من الممكن أن يكون يومًا شخصًا تفتخر به. من الطبيعيّ أن يحاول المجتمع مساعدتها، وأن يضع في تصرّفها إمكانيّات أخرى للحلّ، فيخفّف الضغط على الأمّ الحامل، ويوقظ محبّة جديدة للأولاد.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

إعادة زواج المطلّقين

إنّ الحرم الكنسيّ، الذي يطال المطلّقين، الذين يعيشون في زواج مدنيّ جديد، لا يفهمه اليوم إلاّ بعض الكاثوليكيّين المخلصين: إنّه حرم غير عادل، ومُذلّ، وهو بعيد عن أن يكون مسيحيًّا. أنت قلت سنة ١٩٧٢: إنّ الزواج هو سرّ مقدّس... لكنّه لا يمنع أن تتّسع جماعة القربان في الكنيسة، لتشمل أفرادًا يعترفون بتعاليمها، أي مبادىء حياتها، لكنّهم يعيشون حالة مُلحّة من نوعٍ مختلف، حيث هم بحاجة إلى الاتّحاد الكامل بجسد المسيح.

عليّ أن أحدّد أوّلاً، ومن الناحية القانونيّة البحت، أنّ هولاء المتزوّجين لا يطالهم حرم كنسيّ، بالمعنى الضيّق للكلمة. الحرم هو مجموعة من الجزيات الكنسيّة، هو تقييد للعضويّة في الكنيسة. هذا العقاب الكنسيّ لا يهدّدهم؛ حتّى لو أنّ الجوهر، الذي يظهر فورًا للنظر، في حالة عدم تمكّنهم من المشاركة في المناولة، يطالهم. لكن، وكما سبق القول، هم ليسوا محرومين بالمعنى القانونيّ. إنّهم بالأحرى أعضاء في الكنيسة، لا يمكنهم المشاركة في المناولة، بسبب ظرف حياتيّ معيّن. إنّه حمل ثقيل بلا شكّ، وبالتحديد، في عالمنا اليوم، حيث تزداد نسبة الزيجات المحطّمة باستمرار.

إنّي أعتقد بأنّ هذا الثقل يسهل حمله، عندما يتوضّح للفرد، أنّ هناك أشخاصًا آخرين، لا يحقّ لهم أيضًا المناولة. إنّ هذه المشكلة أخذت منحًى دراماتيكيًّا؛ لأنّ المناولة هي في الوقت نفسه تقليد اجتماعيّ؛ وعندها، في الواقع، يوسم الفرد بعدم المشاركة فيها. لكنّ الأمر سوف يبدو في شكل مختلف تمامًا، عندما يتمكّن العديد من الأشخاص من أن يعترفوا لأنفسهم، بأنّ أخطاءهم كثرت، وأنّهم، وهم على هذه الحالة، لا يمكنهم التقدّم إلى المناولة، وعندئذٍ، وكما يقول القدّيس بولس، بهذه الطريقة، يصار إلى إعادة تميز جسد المسيح. إنّ هذا هو الشرط الأوّل. والثاني، هو أنّ عليهم ان يشعروا بأنّ الكنيسة تقبل بهم وبأنّها تعاني معهم.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

وكأنّ كلامك مجرّد أمنية متظاهرة بالتديّن

بالطبع، وهذا يجب أيضًا أن يتوضّح في حياة الرعيّة. كما يصحّ العكس، فنحن بتقبّلنا لهذا الحرمان، نعمل للكنيسة وللإنسانيّة بشكلٍ أو بآخر، لأنّنا نشهد لأحاديّة الزواج. كما أعتقد، هناك أيضًا ما هو مهمّ جدًّا وأساسيّ هنا: وهو الاكتشاف، أنّه بإمكان الألم والحرمان أن يكونا إيجابيّين، وأنّه علينا خلق علاقة جديدة بهما. وأخيرًا، يتوضّح لنا من جديد أنّه بإمكاننا المشاركة بالإفخارستيّا بشكلٍ عميق ومعطاء، دون المشاركة في المناولة كلّ مرّة. إذًا، يبقى الوضع صعبًا، لكنّني أعتقد بأنّه سوف يكون من الأسهل التحمّل، عندما تعود العناصر المختلفة، والمترابطة فيما بينها، إلى استقرارها بشكل أفضل.

لكنّ الكاهن يقول، وبشكل دائم: «مبارك الذين يُدعَون إلى مائدة الربّ». وهو ما يجعل الباقين يشعرون بأنّهم بعيدون عن البركة.

للأسف، تبدو الأمور مبهمة هنا، وذلك بسبب الترجمة. إنّ هذه الجملة لا تستند إلى الإفخارستيّا، بل إنّها تعود إلى الرؤيا، وتشير إلى الدعوة إلى مائدة العرس الأخير التي تجد في الإفخارستيّا تصويرًا لها. من لا يستطيع المشاركة وقتيًّا في المناولة، يجب أن لا يشعر بأنّه مُبعد عن مائدة العرس الأبديّة. بمعنًى آخر، إنّ هذه الجملة هي دعوة دائمة إلى فحصٍ للضمير بشكلٍ مستمرّ، حتّى اللحظة التي أعتقد فيها بأنّني حاضر للمائدة الأبديّة، وعندها، بإمكاني المشاركة في المناولة بشكلٍ قابل للاستمرار. من خلال هذا النداء، يُنَبَّه من لا يمكنه المشاركة في المناولة الآن، كما يُنبَّه الآخرون، أنّ عليهم التفكير، خلال الطريق، بأنّهم، ذات يوم، سوف يُدعَون إلى المائدة الأبديّة. ومن الممكن أنّ من تعذّب أكثر من غيره، سوف يُقبل أكثر.

هل سيُطرح من جديد هذا السؤال للنقاش، أو إنّ القرار الأخير قد اتُّخذ بشكلٍ نهائيّ؟

إنّ هذا السؤال قُرّر بشكلٍ مبدئيّ، لكن من الطبيعيّ أن يبقى هناك أسئلة فرديّة وواقعيّة. مثلاً، ربّما قد نكتشف شرعًا، في المستقبل، أنّ الزواج الأوّل كان باطلاً. وهكذا ما يمكن أن تبرهنه لاحقًا الرعيّة المحلّيّة، إذا كانت ذات خبرة وتمرّس. ويبدو هذا التطوير القانونيّ، الذي ينزع التعقيد عن هذه المسألة، مقبولاً. لكن، يبقى المبدأ

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الذي يقول إنّ الزواج غير قابل للحلّ، وإنّ من يترك زواجه، هذا السرّ، ليدخل في زواجٍ ثانٍ، لا يمكنه المشاركة في المناولة؛ وهذه القاعدة تبقى نهائيّة.

إنّ الأمور تدور دائمًا حول هذه النقطة: ما يجب على الكنيسة أن تصون من إرثها وماذا يجب عليها أن تهمل؟ وكيف يتمّ الفصل في هذا السؤال؟ وهل هناك لائحة مع عمودين؟ حيث من اليمين: ما هو ساري المفعول دائمًا، ومن اليسار ماذا نستطيع أن نُجدّد؟

لا، إنّ الامور ليست بهذه السهولة. لكنّ في الإرث أوزانًا مختلفة الأهمّيّة. في السابق، كان يُصار إلى التكلّم عن درجات اليقين، ما لم يكن بعيدًا عن الصحّة. يقول العديدون إنّ علينا العودة إلى هذا المفهوم. لكنّ مفهوم تراتبيّة الحقائق يدلّ على الاتّجاه عينه: أن لا تتمتّع كلّ الموروثات بالأهمّيّة نفسها، وأنّ هناك أمورًا جوهريّة، كمقرّرات المجامع الكبيرة، وكلّ ما جاء في فعل الإيمان هو الذي يرسم الطريق ويشكّل جزءًا من حياة الكنيسة، ومن هويّتها الخاصّة. ثمّ هناك التشعّبات التابعة لها، التي هي بالطبع جزء من الشجرة كلّها، حيث تختلف درجة الأهمّيّة. إنّ لهويّة الكنيسة علامات معرفة واضحة، إذًا هي ليست متحجّرة، إنّما هي ذات هويّة حيّة، تبقى مخلصة لذاتها في تطوّرها.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

سرّ الكهنوت للمرأة

كذلك وفي سؤال آخر، وهو سرّ الكهنوت للمرأة، نجد ال «لا المطلقة» من الدوائر المتخصّصة، هي «لا» غير قابلة للتنازل. كما أعاد البابا التأكيد على هذا القرار، في خريف ١٩٩٥، حيث قال: «لا نملك الحقّ في تغييره». إذا فكّرنا جدّيًّا، نجد أنّه من غير المقبول إذًا أن يكون بولس قد حدّد ذلك، لأنّ كلّ ما هو جديد يحلّ محلّ أمور كانت قبله تُعتبر مقدّسة. لقد قام بولس بأفعال جديدة. السؤال هو: متى يحقّ وضع حدٍّ لترتيب قديم؟ وماذا نفعل بالجديد؟ وأليس تقصير التاريخ خدمة للوثنيّة وعجزًا عن مواكبة حرّيّة الإنسان المسيحيّ؟

أعتقد بأنّ هناك حاجة لبعض التوضيحات. التوضيح الأوّل هو أنّ بولس لم يقدم على الجديد باسمه، إنّما باسم المسيح. كما أنّه شرح بشكلٍ واضح جدًّا أنّ من يعترف بالتجلّي، الذي ظهر في العهد القديم، لكنّه من ناحية أخرى، ووفق مزاجه، يقدم على تغيير بعض الأمور، إنّما هو يخطىء. كان بإمكان الجديد أن يأتي، لأنّ الله وضع الجديد في يسوع. وبصفته خادمًا لهذا الجديد، عرف أنّه ليس هو من أوجده، ولكنّه كان نابعًا من جديد المسيح ذاته. وهذه الجدّة مرتبطة بما سبقها: وهنا بقي حازمًا جدًّا. عندما تفكّر مثلاً بحديث بولس عن العشاء السرّيّ، حيث يقول بوضوح: «لقد بلّغتُ ما بُلّغتُ»، ويتابع الشرح بوضوح، أنّه متمسّك بما فعل المسيح في ليلته الأخيرة، وما وصل إليه بالتناقل. أو في بشارة القيامة، حيث يقول مجدّدًا: لقد تلقّيته، كما التقيته بنفسي. وهكذا نعلّم جميعًا؛ ومن يفعل غير ذلك، فهو يبتعد عن المسيح. إنّ بولس يميّز بشكلٍ واضح جدًّا، بين جديد يأتي من المسيح، والارتباط به، الذي وحده يشرّع له، أن يقدم على الجديد. هذه هي النقطة الأولى.

أمّا النقطة الثانية، فهي أنّ، كلّ المجالات التي لا يحدّدها السيّد أو التقليد الرسوليّ، كلّها خضعت لتحوّلات – متلاحقة – حتّى يومنا. السؤال هو التالي: هل تأتي من السيّد أو لا؟ إنّ الجواب، الذي أكّد عليه البابا، والذي أعطيناه نحن، أي مجمع

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الإيمان، حول موضوع الكهنوت للمرأة، لا يقول إنّ البابا أعطى تعليمًا معصومًا عن الخطأ. إنّما معناه الأصحّ، هو أنّ البابا وجد أنّ الكنيسة والمطارنة في كلّ مكان، وكلّ زمان، علّموا وتصرّفوا على هذا النحو. إنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني يقول: حيث يحدث أنّ المطارنة، وعلى مدى حقبة زمنيّة طويلة، علّموا وتصرّفوا بالطريقة نفسها، فهذا معصوم عن الخطأ، وهذا تعبير عن ارتباط ليسوا هم الذين أوجدوه. إنّ جواب البابا يرتكز على المقطع الخامس والعشرين من «نور الأمم» (Lumen gentium). فالأمر لا يتعلّق، إذًا، بعصمة أثبتها البابا، لأنّ الفرض مبنيّ هنا على استمرار التقليد، الذي يُعدّ مهمًّا بأصالته، ولم يكن يومًا من المسلّمات. وكان للديانات الوثنيّة القديمة كاهنات، وكذلك الأمر، بالنسبة إلى الحركات الغنوصيّة، في ما بعد. وقد اكتشف باحث إيطاليّ، مؤخّرًا، أنّه في القرنين الخامس والسادس، كانت هناك مجموعات من الكاهنات، في جنوبيّ إيطاليا، وأنّ الأساقفة والبابا تصدّوا، آنذاك، لهذا الأمر. فالتقليد لم يولد في البيئة، وإنّما نشأ في داخل المسيحيّة.

وأضيف أخيرًا: يبدو لي مفيدًا، عن التشخيص الذي أصدرتْه، حول هذا الموضوع، إحدى الكاثوليكيّات الأنثويّات الأكثر أهمّيّة، وهي «إليزابيت شوسلر - فيورنزا» (E. Schüssler – Fiorenza). و«إليزابيت» امرأة ألمانيّة، اشتهرت بتفسير الإنجيل وتأويله، وكانت قد درست التأويل في «مونستر» (Münster)، حيث تزوّجت من رجل إيطاليّ – أميركيّ، من فلورنسا، كان يدرس آنذاك في أميركا. وساهمت «إليزابيت»، في البدء، بقوّة في معركة سيامة النساء كاهنات؛ غير أنّها رأت لاحقًا أنّها أخطأت الهدف. وقد اعترفت، بنتيجة تجربتها مع النساء، في الكنيسة الأنجليكانيّة، بأنّ «سيامة النساء ليست حلاًّ»، وليست القصد والهدف المطلوبين. وبرهنت ذلك بالشرح، وقالت: «السيامة تبعيّة وطاعة، مع ما يعني ذلك من وقوف في الصفّ، وخضوع؛ وهذا بالضبط ما لم يكن مرغوبًا. وكان التشخيص الذي أصدرته حول هذا الموضوع، صحيحًا.

والسيامة تعني دائمًا علاقة نظام وخضوع. وتقول السيّدة «إليزابيت»: نحن لا نريد الانضواء إلى سيامة تُعدّ تبعيّة، بل نرغب في تخطّي هذه الظاهرة. وتضيف: لا يجوز أن يكون هدف معركتنا الحصول على قبول بسيامة النساء، ولكن، نريد إلغاء السيامة بعامّة، لتصبح الكنيسة شركة بين متساوين، بقيادة داهية، في وجهة متبدّلة. وإذا ما أُخذت الأسباب والدوافع الداخليّة، التي يجري النضال باسمها، من أجل سيامة

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

النساء، بعين الاعتبار، فإنّ الأمر يبدو، في الواقع، ذا صلة وعلاقة بالمشاركة في السلطة، وبالتحرّر من التبعيّة والخضوع. وكانت نظرتها هنا صائبة. ولكن، ينبغي أن يُطرح السؤال الصحيح، الذي يتناول طرفي الصراع، كما الآتي: ما هي القُسوسة؟ هل هي سرّ، أو وجهة متبدّلة، لا تسمح لأيّ كان بمقاربتها، أو الوصول إلى السلطة؟ وأعتقد بأنّ النقاش، ينبغي أن يسير في هذا الاتّجاه، مستقبلاً.

إنّ كلّ المسائل التي تمّ التطرّق إليها، كانت منذ سنوات، مدار تجاذب جديد، وأحيانًا، بقليل أو كثير من الصخب، في الأوساط الشعبيّة. ولكن، كيف يكون الحكم على محاولات كالاستفتاءات حول موضوعات دينيّة، مثل التي أجريت في ألمانيا؟

لقد سبق لنا أن تحدّثنا عن ذلك، في أثناء تداولنا بوضع الكنيسة في ألمانيا وفي بلدان أخرى. وإنّي أجد ما قاله «ماتس» (Metz) موضوعيًّا، في كثير من النقاط. وفي رأيه، أنّ بعضهم يداوي الأعراض، فحسب، في حين أنّ جوهر الموضوع الذي يتسبّب بأزمة الكنيسة، ويدعوه «أزمة الله» ـ وهي عبارة غير مستحبّة ـ يبقى منسيًّا، ومن دون علاج. ويبدو أنّه وضع إصبعه على الجرح في هذه المسألة. وعندما تحدّثنا عن التوافق العامّ المعاصر الذي وُجد حول الإيمان مؤخّرًا، قلت فيه: لا أهمّيّة لله، حتّى ولو وُجد. وعندما نعيش بهذه الطريقة، فإنّ الكنيسة تتحوّل إلى نادٍ، لا همّ له إلاّ البحث عن غايات وأهداف. وإنّنا نواجه صعوبات، في كلّ ما يصبح غير قابل للشرح بدون الله. وهكذا، نضع جانبًا جوهر الموضوع. ثمّ لحظ ماتس ـ على ما أذكر ـ أنّ مسلّمات، أو فرضيّات الاستفتاءات حول الموضوعات الدينيّة، قد تحقّقت إجمالاً في الكنيسة البروتستانتيّة، التي لم توفّرها الأزمة، كما بات معلومًا. وهكذا نعود إلى التساؤل، بحسب رأيه: لماذا نريد أن نجعل من نفوسنا صورًا مزدوجة عن المسيحيّة البروتستانتيّة؟ ولا أستطيع أنا إلاّ أن أوافق على ذلك.

لقد تشكّل عندنا نوع من المسيحيّة، الملائمة لحضارة الغرب المتحرّرة، بل نوع من الإيمان الدنيويّ، الذي لا يكترث لكثير من الأمور. وهذه الثقافة، التي لا تمتّ غالبًا بصلة إلى جوهر المسيحيّة ـ أو الكاثوليكيّة ـ تبدو شديدة الجاذبيّة. ويخالجنا شعور على الأقلّ من الناحية اللاهوتيّة، بأنّ عقيدة الكنيسة لا تعترض على هذه الفلسفة التي يمثّلها «أويجين درفرمان» (Eugen Drewermann) بوجه خاصّ.

وعلى كلّ حال، فإنّ موجة «درفرمان» قد انحسرت لأنّه تكلّم فقط عن بديل لتلك

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الثقافة العامّة التي سبق الحديث عنها، وهي مستوحاة من إيمان دنيويّ. ولم يكن الأمر يتعلّق بالاستغناء عن الدين، بل هو أبقى عليه، شرط ألاّ يفرض الدين على الإنسان التزامات. ونحن نحبّ أسرار الدين، شرط أن نوفّر علينا ما يفرضه الإيمان من كدّ وعناء. وإنّ أشكال هذا الدين الجديد المتعدّدة، بورعها المفرط، وبفلسفتها، تجمّعت من جديد، اليوم، تحت اسم: العصر الجديد. والهدف الذي ينبغي أن تؤدّي إليه مختلف المباهج، هو نوع من الاتّحاد السرّيّ بمبدأ العالم الإلهيّ. ويُخيَّل، عندئذٍ، أنّ العيش في الإيمان ممكن، بأساليب راقية، من دون الخروج عن المفهوم العلميّ للعالم؛ وأنّ محاربة ذلك أو مجابهته، تبدو أمرًا معقّدًا، بالنسبة إلى الإيمان المسيحيّ. وبفضل الربّ، لم يخلُ عصرنا من مفكّرين مسيحيّين كبار، ومن شخصيّات عظيمة، عاشت حياة مسيحيّة مثاليّة. ولقد تجلّى واقع الإيمان المسيحيّ في هؤلاء، وفي العون الذي يقدّمونه بكمالهم. ويمكن أن نلاحظ في النشء الجديد، انطلاقات جديدة، نموّ حياة مسيحيّة وطيدة، حتّى ولو لم تتحوّل إلى حركة ذات ثقل.

إنّ اللازمة، التي تتردّد في النقد، وقد سبق الحديث عنها، لا يمكن أن تزول وتختفي بسرعة. ولكن، كيف التعامل معها؟ وهل بالمستطاع إهمال مثل هذه المسائل، أو الخلاص منها؟

إذا لم تكن الكنيسة هدفًا نهائيًّا، ومكانًا لفرض السلطة، منذ لحظة شعور المتبتّل فيها بأنّه يستند على إيمان قويّ، ويستطيع العيش بطريقة تقنعه بأنّ هدف المسيحيّة هو الحياة الأبديّة، وليس الانضواء في جماعة، لممارسة النفوذ والسلطة، إذا لم يتمّ كلّ ذلك، فإنّ هذه الأمور جميعًا، تفقد واقعها المهمّ والملحّ. وإنّي لعلى يقين من أنّ هذه المسائل ستفقد لجاجتها وإلحاحها فجأة، تمامًا كما ظهرت، في أثناء أيّ تطوّر روحيّ، قد يظهر في أيّ وقت. وما ذلك، إلاّ لكونها لا تمثّل اهتمامات الإنسان الحقيقيّة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الفصل الثالث

على أعتاب الزمن الجديد

ألفا سنة تاريخ الخلاص - ولا خلاص؟

مضى ألفا سنة على التبشير بالخلاص، وعلى وعد الكنيسة بخلق إنسان جديد، يعمل من أجل السلام والعدالة وحبّ القريب. وفي نهاية الألفيّة الثانية، بعد المسيح، بدا الحساب هزيلاً، كما لم يكن من قبل. ويصف الكاتب الأميركيّ «لويس بيغلي» (Louis Begley) القرن العشرين ب «الجنازة الشيطانيّة» (Satanisches Requiem)، إذ رأى فيه جحيمًا من القتل والمجازر والعنف، وأنواع الرعب. لقد قُتلت، في هذا القرن، أعداد من البشر، كما لم يحصل من قبل. وفيه حدثت المحرقة (Holocaust)، وطُوّرت القنبلة الذريّة. وساد الاعتقاد بانبلاج فجر السلام، بعد الحرب العالميّة الثانية. ولكن، أعقب تلك الحقبة – بعد ١٩٤٥ – حروب، لم يشهدها عصر. وفي التسعينات، وقعت حروب في أوروبّا، ومنها ما كان دينيًّا، وتفاقم الجوع في العالم أجمع، إلى جانب التهجير، وتنامي العنصريّة، والإجرام، وانتصار سلطان الشرّ. ولكن، أمكن تسجيل بعض المتغيّرات الإيجابيّة الأكيدة، قبيل انصرام القرن، كانهيار الأنظمة الشيوعيّة، في بعض الدول الشيوعيّة سابقًا، وسقوط الستار الحديديّ، في أوروبّا الوسطى، وظهور استعداد للحوار، في مناطق الأزمات، وميل إلى المصالحة، في الشرق الأدنى. وانتاب كثيرين الشكّ، لدى مقارنتهم القصد الإلهيّ بما يفعله البشر على الأرض، فطرحوا السؤال التالي: هل تمّ فعلاً خلاص الإنسان؟ أَونستطيع تسمية الزمن، الذي أعقب مجيء المسيح، زمن خلاص؟

ونسوق، هنا، مجموعة من الملاحظات والأسئلة المهمّة. إلاّ أنّ السؤال الجوهريّ،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

هو: هل جاءت المسيحيّة بالسلام، حقيقة؟ هل حملت معها الخلاص، أو بقيت فارغة الوفاض؟ ثمّ، ألم تضع قواها، مذ ذاك؟

وأجيب، أوّلاً، بأنّ الخلاص، كما أعتقد، الخلاص الذي يأتي من الله، ليس كما تنطبق عليه العمليّة الحسابيّة. وبحسب المعارف التقنيّة، فإنّ تنامي البشريّة قد يتوقّف، أو يتباطأ؛ ولكنّه يتواصل، بطريقة أو بأخرى، وما يمكن قياسه، هو الكمّ المجرّد، للتأكّد من زيادته أو نقصه. وفي المقابل، لا يمكن أن تنطبق مقاييس الكمّ على تطوّر الكائن البشريّ؛ لأنّ كلّ فرد هو إنسان جديد، ولأنّ التاريخ يبدأ ثانية مع كلّ واحد منّا.

ومن المهمّ أن نعي هذا الفرق؛ فجودة الإنسان لا تُقاس بمعايير الكمّ. إذًا، لا تُقوَّم المسيحيّة، من عصر إلى عصر، وكأنّها حبّة خردل، نمت واستحالت شجرة عظيمة يراها الجميع. ولكنّ هذه الشجرة قد تسقط وتتكسّر، لأنّ الخلاص مناط دائمًا بحرّيّة الإنسان، ولا يرغب الله في أن تُنتزع منه هذه الحرّيّة.

ولقد طوّر عصر التنوير الفكرة التي تقول: من واجب مسيرة الحضارة، أن توصل البشريّة إلى مفهوم الحقيقة، والجمال، والخير. وبنتيجة ذلك، تزول الأعمال البربريّة، مستقبلاً.

إنّ خلاص البشر مرتبط دائمًا بالحرّيّة، وهذا ما يجعل منه مغامرة. وهو لا يتأتّى من الخارج، ولا يترسّخ بقواعد ثابتة، ولكنّه موجود في داخل «قارورة» الحرّيّة البشريّة الهشّة. وعندما يرتقي المرء مرتبة عليا، ينبغي أن نتوقّع احتمال سقوطه من جديد. وهذا هو النزاع بالضبط، أو الحوار الذي نجده في تجربة إبليس ليسوع. فهل يجب أن يكون الخلاص بناءً متماسكًا ومدعّمًا في العالم؛ مهمّته تأمين الخبز للجميع، حتّى لا يبقى جوع، من بعد، في أيّ مكان؟ أو هو شيء مختلف ومغاير؟ إنّه قابل للتفاوض، لأنّه مرتبط بالحرّيّة، وغير مفروض على الإنسان.

ومن واجبنا أن نقرّ بأنّ المسيحيّة حرّرت دائمًا قوى الحبّ العظيمة. وإذا تأمّلنا في ما سجلّه التاريخ، بفضل المسيح، أدركنا أنّه شيء عظيم. وقد قال «غوتيه» (Goethe): أوجبت المسيحيّة احترام من هم دوننا. وبفضل المسيحيّة فقط، كان الاعتناء بالمرضى، والاهتمام بالضعفاء، وإنشاء مؤسّسات المحبّة. وبفضل المسيحيّة أيضًا، تطوّر الاحترام بين الناس، وانتشر في الأوساط جميعًا. وما تجدر الإشارة إليه، هو أنّ الإمبراطور

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

«قسطنطين» (Kostantin)، بعد اطّلاعه على المسيحيّة، شعر بأنّه ملزم، بالدرجة الأولى، بتطوير القوانين، للتعطيل أيّام الآحاد، وإعطاء بعض الحقوق للعبيد.

ويحضرني الآن، ما عاينه وكتبه أسقف الإسكندريّة الكبير، «أثناسيوس» (Athanasius)، في القرن الرابع الميلاديّ، عن تقاتل القبائل بالسكاكين، إلى أن جاء المسيحيّون، فظهر معهم شيء من الاستعداد للسلام. وهذه الأشياء لا تأتي تلقائيًّا، وببناء مملكة سياسيّة متماسكة؛ لأنّها قد تنهار ثانية كما نشهده اليوم.

وعندما يتخلّى الإنسان عن الإيمان، ترجع أهوال الوثنيّة بقوّة. وأعتقد بأنّ الله قد دخل التاريخ بطريقة أشدّ هشاشة ممّا كنّا نريد. غير أنّ ذلك كان جوابه على الحرّيّة. وإذا كنّا نؤكّد أنّ الله يحترم حرّيّتنا، حينئذٍ ينبغي أن نتعلّم احترام رهافة فعله، وحبّه.

لم يكن انتشار المسيحيّة، يومًا، في العالم كلّه، كما هو عليه اليوم. ولكنّ هذا الانتشار لم يؤدِّ إلى خلاص العالم.

لم يكن انتشار المسيحيّة الكمّيّ قياسًا على عدد المؤمنين، ليوصل آليًّا إلى إصلاح العالم، لأنّه ليس كلّ من يدّعي أنّه مسيحيّ، يكون كذلك في الواقع. فالمسيحيّة تؤثّر بطريقة غير مباشرة في تنشئة العالم، من خلال البشر، وعبر حرّيّتهم. وهي ليست مؤسّسة ذات نظام سياسيّ واجتماعيّ، تستطيع أن تلغي الشرّ.

ولكن، ما معنى وجود الشرّ، وما علاقته بالخلاص، أو بعدمه؟

إنّ الشرّ في سيره، يمارس سلطانه على حرّيّة الإنسان، ويبتدع لنفسه قواعد وتحصينات تضغط على الإنسان، تقيّد حرّيّته، وتبني سدًّا بوجه دخول الله إلى العالم. ولم يقهر الله الشرّ بالمسيح، بمعنًى لا تعود فيه حرّيّة الإنسان سهلة الوقوع في التجربة، ولكنّه مدّ لنا يده ليقودنا، من دون أن يجبرنا على الانقياد له.

وهل يعني ذلك أنّ سلطان الله ضعيف جدًّا على العالم؟

لم يشإ الله، على كلّ حال، ممارسة سلطانه علينا، بالطريقة التي نتخيّلها، وطبيعيّ أن يكون هذا السؤال، هو عينه الذي طرحته، في البدء، على روح العالم: لماذا يستمرّ الله في عجزه؟ لماذا لا يملك ويسيطر، إلاّ بهذه الطريقة الغريبة من الضعف، فعُدّ شخصًا فاشلاً وصلبوه؟ ولكن، هذه هي الترجمة الإلهيّة للسلطان، وليست الطريقة الأخرى، القائمة على الفرض، والقهر، والعنف.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

وأعود إلى سؤالي الأوّل: ألا تهزّنا حالة هذا العالم، إذ تصف العبارة القرن العشرين ب «الجنازة الشيطانيّة»؟

كوننا مسيحيّين، نعرف أنّ الله يمسك بالعالم، حتّى ولو ابتعد الإنسان عنه، وسار إلى حتفه، فإنّه (الله) ينشئ من نهاية العالم بداءة جديدة. وأمّا نحن، المؤمنين به، فإنّنا نعمل لكي لا ينفصل الإنسان عنه، فيستمرّ العالم في الحياة، وكذلك الإنسان، جبلته.

ولكن هناك تشخيص المتشائمين أيضًا، وكان «ماتس» (Metz) قد تحدّث بعبارات غريبة عن «أزمة الله». وقال أيضًا: إنّ غياب الله، آنذاك، يصبح ذا تأثير قويّ، فتتردّى الأخلاق في هاوية، ويجد الإنسان نفسه أمام دمار الكون. لذا، ينبغي أن ندقّق في حسابنا، ولا نستثني التشخيص المنذر بالنهاية. لكنّ الله، عندئذٍ، يحيي خاصّته. والحبّ، في النهاية، أقوى من الحقد.

«وفي نهاية القرن الثاني أصبحت الكنيسة، بحسب البابا يوحنّا بولس الثاني، كنيسة شهداء، وكنتم، أنتم، سيّدي الكاردينال، قد استخلصتم درسًا مماثلاً، حين قلتم: «إذا لم نستعد جزءًا من هويّتنا المسيحيّة، فإنّنا لن نتخطّى تحدّيات الساعة».

وكما سبق قوله، فإنّ الكنيسة ستتّخذ، هي أيضًا، أشكالاً مختلفة. سوف تكون أقلّ تشبّهًا بالمجتمعات الكبيرة، فتتحوّل إلى كنيسة للأقلّيّات، فتضمّ مجموعات صغيرة من المؤمنين والمثقّفين، الذين يتصرّفون بإيمان. ولكنّها ستصبح بالتأكيد، كما جاء في العهد القديم، ملح الأرض. ويكمن، في هذا التحوّل، المبدأ الثابت القائل: إنّ الإنسان لا يُهدم في جوهره، ويحتاج عندئذٍ، إلى قوىً تعضده، وتكون جدّ ضروريّة له.

ولهذا، فإنّ الكنيسة تحتاج، من جهة، إلى المرونة، لتستطيع أن تتأقلم مع المتغيّرات الفكريّة والنظاميّة التي تضرب المجتمعات، وتجد الحلول للتدخّلات المتشابكة، كما تحتاج، من جهة أخرى، إلى الوفاء، لتحافظ على الجوهر الذي يجعل من المرء إنسانًا، فيجيبه ويصون كرامته. عليها أن تتشبّث بكلّ ذلك، وتسمو بالإنسان إلى خالقه، فيبقى منفتحًا عليه؛ لأنّه، من عَلُ فقط، يمكن لقوّة السلام أن تهبط على هذا العالم.

يرى كثيرون أنّ الكنيسة سارت طوال قرون بخلاف ما يمليه الوحي. ونضرب مثلاً، على «الأخطاء الجسيمة»، التي حفل بها تاريخ المسيحيّة، بتعصّب البابا باسم الدين،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

وبشراكته في الجرائم ضدّ حقوق الإنسان. واليوم، تقرّ الكنيسة بالأخطاء التي ارتكبتها، من قبل، في علاقتها باليهود، وفي سلوكها مع النساء. وكان يُعدُّ اعترافها هذا، في الماضي، انتقاصًا من سلطانها. ترى، ألا ينبغي الكلام بصراحة لا تعرف الهوادة عن هذه الأخطاء، داخل الكنيسة؟

إنّي أعتقد بأنّ الاستقامة فضيلة أساسيّة، تساعدنا في معرفة ما كان عليه وضع الكنيسة من الناحيتين: السلبيّة، والإيجابيّة. وإنّ الموضوعيّة الجديدة، وإن كانت لا تمحو الصفات السوداء من تاريخها، فهي دليل مهمّ جدًّا على الصدق والاستقامة. وإذا كان الاعتراف، والإقرار بالذنب، من صلب الجوهر المسيحيّ – ويقومان على الصدق مع الذات والعدل– فحريٌّ بالكنيسة أن تقوم بمثل هذا العمل. وربّما تحتاج إلى «مزمور توبة»، لتمثل بصدق في حضرة الله والناس.

ولكن، لا يجوز، في كلّ حال، أن ننسى – على الرغم من الأخطاء المرتكَبة والنقائص – أنّ التبشير بكلمة الله لم يتوقّف، والأسرار لم تُهمَل، وقوى الخلاص لم تُجمَّد، وهي التي أقامت سدودًا بوجه الشرّ. ويمكن القول إنّ قوّة الربّ تتدخّل وتُحدث انبعاثًا، في اللحظة التي تكاد فيها نار المسيحيّة أن تنطفئ وتتحوّل إلى رماد. وتعود بي الذاكرة إلى القرن العاشر، حين كانت كرسيّ روما في أضعف حالها، حتّى ظنّ بعضهم أنّ إشعاع المسيحيّة في انطفاء. في تلك الفترة، انطلقت المؤسّسات الرهبانيّة مجدّدًا، ومنها شعّ نور الإيمان بقوّة. إنّ انحلال المسيحيّة قد يحدث في داخل الكنيسة، وبالشكل فحسب؛ ولكنّ حضور المسيح الفاعل يتدخّل ويبعث التجديد، حيث لا ننتظر.

إنّ الكنيسة ترزح تحت عبء التاريخ الثقيل. وبمناسبة الاحتفال بمرور خمس مئة سنة، على اكتشاف «كريستوف كولومبوس» لأميركا، تعالت الأصوات المنفعلة بوجه العمل الرسوليّ المسيحيّ، حتّى خيّل للناس، أنّ أخطاء الكنيسة وقعت في الأمس القريب.

وأصدر الناس أحكامًا عامّة، تستند إلى الحقيقة التاريخيّة، بل إلى الانفعالات الآنيّة. وأنا، لا أريد إنكار الخطإ الجسيم المرتكب. ولكن، جرت أبحاث معمّقة، حول هذه النقطة، تشهد أنّ الإيمان المسيحيّ والكنيسة قاما بدور عظيم، لمناهضة المستكشفين الطامعين بالثروات، الذين كانوا يدوسون الثقافات ويسحقون الناس. وإنّ البابا بولس

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الثالث، ومن أعقبه على الكرسيّ الرسوليّ، قد دافعوا عن حقوق السكّان الأصليّين، وقاموا بإجراءات في هذا الشأن. وإنّ العرش الإسبانيّ، ولاسيّما الملك، «شارل الخامس»، قد أصدرا قوانين – وإن لم تكن بمعظمها قابلة للتطبيق – عُدّت وسام شرف على صدر المملكة، لأنّها احترمت حقوق السكّان الأصليّين، وأحلّتها في صميم حقوق الإنسان. وفي عصر إسبانيا الذهبيّ، آنذاك، أبصرت فكرة حقوق الإنسان النور، لدى لاهوتيّين وحقوقيّين من إسبانيا. ولئن تلقّنها آخرون، لاحقًا، فإنّ الفضل يرجع إلى هذه الدولة، في عهد الملكة «فيكتوريا» (Victoria).

وكان محامو حقوق الإنسان الفعليّون من الحركات الرسوليّة الكبرى، أي من الفرنسيسكان والدومينيكان. والأمر لا يتعلّق، هنا، بـ «برتلماوس دي لاس كازس» (Bartholomé de Las Casas)، وإنّما بكثيرين أمثاله. وإنّ الرهبان الأوائل، في الحركة الرسوليّة الفرنسيسكانيّة، الذين حملوا البشارة إلى بلاد المكسيك، كانوا قد استوحوا في عملهم روح اللاهوت، الذي اتّصف به القرن الثالث عشر، فبشّروا بالمسيحيّة التي تنذر الفقر والاستقامة. ولو لم يكن للإيمان قوّة محرِّرة، شعر بها الناس، لما كان ذلك كافيًا لاعتناق المكسيكيّين المسيحيّة، وتخلّيهم عن دياناتهم السابقة. ولم تتمّ السيطرة على المكسيك، إلاّ بفضل المكسيكيّين نفسهم، الذين تحالفوا مع الإسبان، لكي يتحرّروا من العبوديّة. وتبدو الصورة مختلفة الآن، عمّا كانت عليه، من قبل، ولكنّها لا تكفي لمحو الأخطاء. ولو لم تكن هناك قوّة منقذة وحامية، لما بقي اليوم، في أميركا الوسطى والجنوبيّة، هنود كثيرون، بل، لكان الوضع مختلفًا.

ولكن، لماذا تأخّروا في إعادة الاعتبار إلى «غاليلي» (Galilei) عدّة قرون؟

لقد تركوا للزمن – بحسب اعتقادي – أن يحلّ المشكلة؛ لأنّه لم يكن هناك من أحد لملاحقة الموضوع. وكان ينبغي انتظار عصر التنوير، حتّى تصبح قضيّة «غاليلي» محور الخلاف الرئيسيّ، بين الكنيسة والعلم. ومع أنّه كان لهذا الخلاف ثقله التاريخيّ، إلاّ أنّه لم يظهر، في البدء، على هذا النحو من التوتّر العصبيّ شبه الأسطوريّ. ورأى الناس، في عصر التنوير، أنّ الطريقة، التي تتعامل بها الكنيسة مع العلم، سقيمة. وهكذا، تطوّرت قضيّة «غاليلي»، وشكّلت رمزًا لتأخّر الكنيسة وعدائها للعلم. ثمّ كان الاعتقاد بأنّ هذه القضيّة حدثٌ بسيط، طمس الماضي معالمه، بل هو مستمرّ، يحفر في العقول. ولذا، يجب جلاؤه ووضع حدّ له.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لا أحد يعلم المنحى، الذي كان يمكن للعالم أن يسلكه، من دون الكنيسة. ومن الصعب، بالمقابل، تجاهل دور الإيمان في تحرّر العالم وتثقيفه، من خلال تطوير حقوق الإنسان، والفنّ، والعلم، والتربية الأخلاقيّة. ولولا هذا التلاقح، لما تطوّرت أوروبّا. وكان الناشر اليهوديّ «فرانز أوبنهيمر» (Franz Oppenheimer) قد كتب: «إنّ الأنظمة الديمقراطيّة وُلدت في العالم اليهوديّ – المسيحيّ. وتاريخ هذه الولادة شرط مسبّق وأساسيّ لعالمنا المتنوّع. وإنّنا ندين لهذا التاريخ بالمقاييس المعتمدة لنقد الديمقراطيّات وتصحيحها». وكنتم، أنتم، قد أشرتم إلى أنّ قيم الدليمقراطيّة ذات علاقة بالقيم المسيحيّة.

لا يسعني إلاّ الموافقة على ما قاله «أوبنهيمر». وكلّنا يعلم، اليوم، أنّ الأنموذج الديمقراطيّ يدين بتطوّره للقوانين الرهبانيّة، ولاسيّما في ما يتعلّق بالنصوص والتصويت. ومن هنا، وجدت الفكرة، القائلة بتساوي الناس في الحقوق، طريقها إلى الحقل السياسيّ. وممّا لا شكّ فيه، أنّ الديمقراطيّة الإغريقيّة كانت ذات شأن وأهمّيّة، في القديم، غير أنّها، بعد سقوط زمن الآلهة، أضحت بحاجة إلى إعادة بعث وترشيد. وما تجدر الإشارة إليه، هو أنّ الديمقراطيّات الأولى: الأميركيّة والإنكليزيّة، ترتكزان على مجموعة من القيم النابعة من الإيمان المسيحيّ. وهذا ما سهّل سيرورتهما، وإلاّ لكانتا تفكّكتا وانهارتا. وإذا أجرينا جردة حساب، في هذا المجال، اعترفنا بأنّه كان للمسيحيّة وجه إيجابيّ، إذ سمحت بمصالحة الإنسان مع نفسه، ومع الإنسانيّة جمعاء. وإذا كانت الديمقراطيّة الإغريقيّة القديمة، قد ارتكزت على ضمانة الآلهة لها، فإنّ الديمقراطيّة المسيحيّة الحديثة ترتكز على ضمانة القيم، التي يمنحها القانون، وقد حمتها من تعسّف الأكثريّة. وفي موضوع جردة حساب القرن العشرين، يدلّ ما سبق قوله على أنّه، في كلّ مرّة كان يضعف دور المسيحيّة، كانت قوى الشرّ القديمة تستيقظ فجأة من جديد. ويمكن القول، من وجهة نظر تاريخيّة صرف: لا ديمقراطيّة، من دون مرتكزات دينيّة «مقدّسة».

وذات مرّة، قال الكاردينال الإنكليزيّ «نيومان» (Newman) متناولاً رسالة الكنيسة في العالم: «بفضل وجودنا هنا، نحن المسيحيّين، وبفضل شبكة الكنائس المنتشرة في كلّ المسكونة، نجا العالم من السقوط والزوال. إنّ وجود العالم رهن بوجود الكنيسة؛ فإذا أصابها المرض، فإنّ العالم سيتحسّر على ذاته.

ورُبّ قائل: إنّ هذا الكلام مُفعم بالحيويّة المفرطة. إلاّ أنّني أجد، أنّ تاريخ

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الديكتاتوريّات الملحدة، في عصرنا، كالنازيّة والشيوعيّة، يُظهر أنّ سقوط الكنيسة، وغياب الإيمان، يتسبّبان بدفع العالم نحو الهاوية. وكان للوثنيّة، قبل مجيء المسيحيّة، بعض من الإيجابيّة. وكانت العلاقة بالآلهة تولّد قيمًا أساسيّة تقف بوجه الشرّ. ولكن، إذا سقطت القوى التي تحارب الشرّ، اليوم، فإنّ الإنهيار سيكون عظيمًا.

ونستطيع التأكيد أنّنا، إذا جرّدنا الإيمان المسيحيّ من قواه الأخلاقيّة، فإنّ الإنسانيّة ستترنّح، تمامًا كما السفينة التي تصطدم بجبل الجليد وتتحطّم؛ وتكون النجاة، عندئذٍ، عسيرة الحصول.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

تطهير النفس - تحوّل العصر - محنة التمزّق

كأنّما الزمن يسرع خطوة، في نهاية الألفيّة، تحت تأثير ضربات خفيّة، كذرّات الرمل المتطايرة من النوافذ. واقتنع كثيرون بأنّنا على وشك أن نشهد ولادة مجتمع عالميّ، يختلف في جوهره عن كلّ المجتمعات التي سبقت، عبر العصور. وهذا شبيه بما حدث للعالم، بعد أن أعقب المجتمع الصناعيّ المجتمع الزراعيّ، الذي طال زمنه، فتغيّر كلّ شيء واختلف.

وهذا ما يدعوه علماء الاجتماع بـ «ظاهرة اقتسام المياه» عند تقاطع مجرى نهر. مع هذا التغيير، لا يبقى إلاّ القليل من القيم العالية في المجتمع الجديد؛ ولا يعود من وجود للحاضر بالمعنى الحصريّ، وينحصر الزمن، بين الأمس الذي لن يرجع، والغد الذي لم يأتِ بعد. فهل سنكون بإزاء تغيير جوهريّ؟

وإنّي لعلى يقين من تسارع التاريخ. فعندما تحصل بعض الاكتشافات، أو الاختراعات، تجري الأمور المتعلّقة بها، من بعد، بوتيرة فائقة السرعة. وعندما أفكّر بالمدى الذي قطعه العالم في التغيير، في ثلاثين السنة الأخيرة، أستطيع أن أتلمّس باليدين، تقريبًا، تسارع التاريخ، والمتغيّرات التي حصلت فيه، وتغلغل هذا العالم المتبدّل في حاضرنا، إلى حدّ ما. ونقدر أن نستنتج أنّ هذا التطوّر في تقدّم مستمرّ، من دون أن تكون لنا المقدرة على تكوين رؤية شاملة عن وجهته، وعمّا سينتج عنها.

ويبدو أنّ التشييع، أو التحزّب، تتّسع رقعته، فهناك الاتّحاد الأوروبّيّ، ورابطة الدول الإسلاميّة، ومحاولة خلق نوع من ضمير عالميّ، من خلال مؤتمرات الأمم المتّحدة (UN). وفي الوقت عينه، نلاحظ أنّ الفرديّة تحاول أن تثبّت ذاتها أكثر، وبعنادٍ متنامٍ. وهكذا يظهر التوحيد والانقسام متلازمين؛ فيثور بعضهم على بعضهم الآخر، ضمن النظام الواحد، ويتّسع الخلاف. ولا أحد يستطيع أن يتكهّن بالنتائج التي ستسفر عن ذلك. وأظنّ، في هذه الحال، وسط عالم يتغيّر على مدى النظر، أنّ استقرار العناصر الإنسانيّة الأصيلة هو أكثر أهمّيّة من سواه.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

إنّ مقوّمات البقاء تسوء، كما يبدو، على كوكب الأرض. ومنذ ثمانينات القرن العشرين، تتزايد باستمرار الكوارث في العالم أجمع. ويتّضح، أكثر فأكثر، أنّ الإنسان – وليس الطبيعة – هو من يتسبّب بمعظم الكوارث، سواء أكان ذلك من خلال تدّخله في أنظمة الطبيعة، أم بسوء إدارته ومراقبته لأعماله ومخترعاته الخاصّة. ويرى كثيرون في هذا دلائل على غضب الله. ومن المحتمل أن يحدث نوع من التنظيف والتطهير. وربّما كان ينبغي أن يزول العالم القديم، أوّلاً، حتّى يحلّ محلّه العالم الجديد. وربّما، لا بدّ من الرقص على فوّهة بركان، في العيد الصاخب الأخير، ومن التفكّك والغليان اللذين يسمان نهاية الزمن، أو تاريخ العالم الحرج، حتّى تكون بداءة جديدة. وهل هذه هي رؤيا القدّيس يوحنّا؟

إنّه لمن الصعب قول ذلك. وعلى كلّ حال، علينا أن نجهد لنجعل البداءة الجديدة ممكنة، انطلاقًا من قوى الخلق والخلاص، ومن تحرير القوى التي تعلّم الإنسان أن يعرف قدر نفسه؛ وهذا هو بيت القصيد؛ فيقلع هذا المخلوق عن ممارسة كامل سلطانه، حتّى لا يُهلك ذاته والعالم، فيفهم – بالتالي – أنّ هناك ما يجب فعله، وما ليس له الحقّ في فعله، وليعلم أيضًا أنّ الاستحالات ليست جسديّة فحسب، بل هي بالتحديد ما تحرّمه الأخلاق؛ والجنس البشريّ بحاجة، في الدرجة الأولى، إلى تثقيف، حتّى يستطيع مقاومة تجربة الشجرة المحرّمة.

ويقع على عاتق الكنيسة مسؤوليّة رفع الإنسان إلى مستواه الذي يليق به، كي يجابه معرفته الجسديّة بمعرفة أخلاقيّة. ونعلم، في الوقت عينه، أنّ هذا لا يتأتّى من الخلوقيّة البسيطة، بل من العلاقة الداخليّة بالإله الحيّ. وتستمدّ الأخلاق قوّة وجودها، فقط من وجود الله، القوّة العاملة فينا، وليس من حساباتنا الخاصّة، لأنّ ذلك لن يفي بالغرض أبدًا.

ربّما يكون الشفاء الخارجيّ ممكنًا؛ ولكنّ السلام يأتي فقط من الداخل، من الضمير الذي لا يقيم في ذاتنا. وأمّا، في ما خصّ الحذر، الذي كان يبديه الناس، من متغيّرات الحياة المشؤومة، فربّما كان الكتاب المقدّس يريد القول بصدده: إنّ الحالة الروحيّة هي التي تؤثّر في الطبيعة.

يخيّل إليّ، بما يشبه اليقين، أنّ الإنسان هو الذي يخمد أنفاس الطبيعة، في الواقع، وأنّ تلوّث الجوّ الخارجيّ، الذي نعاني تأثيراته، هو صورة عن التلوّث الداخليّ، الذي

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

نعيره اهتمامًا. وأظنّ أيضًا، أنّ هذا ما تحتاج إلى معرفته المنظّمات البيئيّة، التي ينطلق أعضاؤها إلى الريف بشغف، يناضلون ضدّ تلوّث المحيط؛ بينما يرى بعضهم، بالمقابل، أنّ تلوّث الإنسان الروحيّ هو حقّ من حقوقه في الحرّيّة. ونحن نريد أن نتخلّص من التلوّث، ولكنّنا لا نهتمّ للتلوّث الروحيّ، الذي أصبح من صلب الإنسان. ونحن، من جهة أخرى، ندافع عن فكرة خاطئة، تكوّنت لدينا عن الحرّيّة، التي كان من نتائجها التعسّف الإنسانيّ.

وطالما نحن نحفظ هذه الصورة المشوّهة عن الحرّيّة، أعني الحرّيّة التي تدمّرنا روحيًّا من الداخل، فإنّ مفاعيلها ستستمرّ بهدوء على العالم الخارجيّ. لذا، علينا أن نفكّر في هذا. وليست الطبيعة وحدها، هي التي تملك نظام عيش وأشكال حياة ينبغي احترامها، إذا شئنا أن نعيش منها وفيها، بل إنّ الإنسان أيضًا مخلوق وفق نظام معيّن، ولا يستطيع أن يتصرّف بكلّ شيء، تبعًا لمزاجه. فلكي يحيا من الداخل، عليه أن يتعلّم معرفة نفسه، ويتذكّر دائمًا أنّه مخلوق، ويتحلّى بالطهر اللازم لكيانه، أو لبيئته الروحيّة، إذا صحّ التعبير. أمّا إذا كنّا لا ندرك هذا العنصر الجوهريّ، فإنّ كلّ شيء سيتردّى وينحدر إلى الأسوأ.

إنّ رسالة بولس الرسول إلى الرومانيّين، تشير إلى هذا الأمر بوضوح، في الفصل الثامن. فالإنسان الملوّث من الداخل، يعامل الخلق معاملته للعبيد، فيئنّون تحت وطأة ظلمه. واليوم، نسمع أنين الخليقة، كما لم نسمعها من قبل، قطّ. ويضيف القدّيس بولس: إنّ الخليقة تنتظر مجيء ابن الله، وتتنفّس الصعداء، عندما يأتي أناس يحملون نور الله، وتشعر بالفرج، عندئذٍ.

وعلينا أن ننتظر صدمة جديدة في المستقبل، ونقاومها بشدّة، لأنّنا سنجد صعوبة في التكيّف مع المتغيّرات الأساسيّة الغربيّة، التي ستضرب العالم. وستكون تكلفة التكيّف باهظة. وتكمن المسألة، اليوم، في معرفة ما إذا كان بمقدورنا، واستنادًا إلى المعرفة التي تزوّدنا بها الكنيسة، إيجاد الحلول، أو الأجوبة على تلك المتغيّرات، والتحدّيات، والأمور المبهمة.

بالطبع، ينبغي استعمال هذه المعرفة في المجالات جميعًا. ولن يحصل ذلك من دون جهد، أو من دون نضال مشترك، وتبادل للمعارف والخبرات. ولكنّ الرؤية العظيمة، الخاصّة بالمسيحيّة، تحدّد لنا فعلاً الوجهة الواجب سلوكها، بحثًا عن الحلول؛ ومن ثمّ،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

نجسّد العمل، ليتماشى ومعطيات الحقيقة. وتبقى المسيحيّة عملاً متواصلاً في الفكر والحياة، ولا تنحصر في طريقة، أو أسلوب، يكون تطبيقه ببساطة كافيًا. إنّها توجّه وتنوّر، فيتمكّن المرء بها من أن يرى بوضوح، فيعمل ويجد الجواب على كلّ شيء، وإذا كنت أعرف أنّ الإنسان هو صورة الله، وإذا كنت أعرف المبادئ الواردة في الوصايا العشر، فإنّني، حينئذٍ، أكتشف وجهتي الأساسيّة الصحيحة، وأجسّدها في التعاطي مع أنواع المسائل الجديدة. ويتطلّب هذا الكثير من التعاون، والبحث المشترك عن وسائل تطبيقيّة، تكون جدّ صحيحة وقليلة الأخطاء.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

«ربيع جديد للروح الإنسانيّة»
من أجل الألفيّة الثالثة

إنّ عددًا من الأنظمة الاجتماعيّة، التي كانت من قبل واعدة، قد انهارت في نهاية القرن العشرين، كالماركسيّة، التي قال واضع فلسفتها، «كارل ماركس» (Marx): «الدين هو أفيون الشعب»، وكمدرسة التحليل النفسيّ، لصاحبها، «سيغموند فرويد» (S. Freud) القائل: «الدين هو عُصاب البشريّة»، وكذلك حصل لمبادئ علماء الاجتماع الأخلاقيّة، وللفكرة القائلة بوجود أخلاق، من دون تعليم. ويُضاف إلى ذلك، الفرضيّات الإصلاحيّة التي تطالب بإذابة العلاقات كلّيًا بين الجنسين، والأفكار العصريّة حول مفهوم التربية البعيد عن السلطة. وسبق لكم أن أطلقتم، قبل عشر سنين، الإنذار الآتي: «ها إنّ الأزمنة الجديدة قد حلّت». فما هي الفكرة التي كانت لديكم عن هذه الأزمنة الجديدة، وعن خاصّيّتها؟ وهل كنتم ترغبون في القول: إنّ الثقافة المولّدة بدأت، وهي التي حدّدتموها، ذات يوم، فقلتم عنها: «ثقافة البعد عن ذكرى الإنسان الأوّل» التي هي «ذكرى الله»؟

ما كنت أريد قوله، هنا، هو أنّ السلوك والتناقضات الداخليّة، وأكاذيب تلك النظريّات، بدأت تظهر. ونستنتج ذلك من الإيديولوجيّات التي ثبت دجلها. والشرح الاقتصاديّ العالميّ، الذي جاء به «ماركس»، والذي بدا منطقيًّا جدًّا، في البدء، وحازمًا بقوّة، وذا قوّة جذب كبيرة – ولاسيّما وهو لا يرتبط بأدبيّة أخلاقيّة – فإنّه، بكلّ بساطة، لا يجسّد الواقع والحقيقة. وليس الإنسان، في الأساس، على هذه الصورة، لأنّ الدين عنده حقيقة جوهريّة. والتحرّر من السلطة لا ينطبق عليه، لأنّ الحاجة إليها ملازمة لشخصيّته. وهذا هو الأمل، الذي طالما أردت التعبير عنه، وعملت من أجله، حتّى يأتي يوم، تقوم الإيديولوجيّات بنقد ذاتيّ لها، انطلاقًا من تجاربها التاريخيّة. وعندئذٍ، يتولّد تفكير جديد، ونظرة جديدة إلى المسيحيّة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

ونرى أنّ الفشل والسقوط – سبق الحديث عنهما – لا يؤدّيان بالضرورة إلى انطلاقة جديدة. وفي البلدان الشيوعيّة سابقًا، وعلى سبيل المثال، إذا كان تفاقم الوضع الاقتصاديّ لم يؤدِّ إلى تجديد النظام، فما كان منتظرًا أن تنتج عنه حركة قويّة، تدفع باتّجاه العودة إلى القيم المسيحيّة. وكلّ ما نتج عنه، هو التعب النفسيّ، والتقزّز، والخضوع، واليأس المتنامي. إنّ عجز الإيديولوجيّات السابقة لا يؤدّي، بالضرورة، إلى انبعاث المسيحيّة مجدّدًا، ولا إلى إعطائها دفعًا جدّيًّا قويًّا؛ إلاّ أنّ اتّساع فسحات الخيبة قد يدفع إلى سقطات أخرى، تكون بمثابة فرجات لبعض الذين أدركتهم المسيحيّة، فينتقل الإيمان منهم إلى الأجيال اللاحقة. ولكن، كما ذكرت من قبل، فإنّ هذا لا يتمّ بالنواميس الطبيعيّة.

وفي تلك اللحظة، يُلاحظ أنّ صورة العالم، التي تأسّست على العلم الصرف، والعقل، والمادّة، فطبعت العصر بطابعها، قد تغضّنت، وحلّ محلّها أخرى. فهل ينبغي على إنسان الألفيّة الثالثة، أن يدخل الأسطورة، من جديد، في حياته؟ وهل يمكن الرجوع إلى خرافات، بحثًا عن حقائق أعمق، وعن اتّصالات أوسع، وهي التي اتّهمت بطمس الحقائق، من قبل؟ هكذا، كان يجري في القرون الوسطى، عندما كان الإنسان يعيش في عالم مفعم بالدلائل والاستشارات، وكانوا يرجعون إلى أمر ذي دلالة ماورائيّة. «وكان الإنسان يعيش في الوهم، بحسب المؤرّخ الفيلسوف «يوهان هويزينغا» (Johann Huizinga). ولأنّ كلّ شيء كان وهمًا، فإنّه رأى في الظلمة، عالمًا ماورائيًّا».

وهناك من يبحث من جديد، وفي كلّ مكان، عن الخرافات، وربّما يرجع في تنقيبه إلى ما قبل المسيحيّة، إلى الميثولوجيّات القديمة، أملاً في إيجاد أنماط حياة جديدة، وقوًى أصيلة. ولكنّ في ذلك الكثير من الرومانسيّة والخيال. ولا يستطيع أحد تخطّي مجرى التاريخ بسهولة، أو القبض على ما فات، عندما لا يعود يجد في الحاضر ما يكفيه. وفي خزعبلات الأساطير القديمة تلك، التي تبدو عقلانيّة ومنهوكة في آن، نقطع كلّ صلة لنا بالمسيحيّة، في محاولة بعضهم، ليغرف ما يقدر عليه من القوى الروحيّة، مقابل قدر ضئيل يعطيه، وارتباط واهٍ بالدين. ولا أقول إنّ هذه الأساطير، لا تخفي الكثير من الأشياء الخفيّة، التي يمكن الرجوع إليها؛ فالإنسانيّة تستشفّ منها حقيقة وسبل حياة. ولكن، إذا انتقينا هذه الأساطير بنفسنا، ومارسناها، فإنّها تفقد قواها. ولا يوجد دين من دون التزام. فإذا انتفى الاستعداد لتقبّل هذا الالتزام، والتسليم

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

بالحقيقة، عندئذٍ، لا يكون كلّ ذلك، في النهاية، سوى ألعوبة، كألعوبة «لآلئ البلّور»، التي تحدّثت عنها آنفًا. وقد يبدو البحث الجديد مجازفة لا تؤدّي إلى الأمر الجوهريّ، فيخيب الأمل في ترقّب قوًى لن تأتي، ويستحيل الأمر نوعًا من الحلم النهاريّ، الذي لا يساعد في استنباط حلول للمسائل الفعليّة، ولمواجهة قوى العالم المعاصرة العظمى، بغية وضعها على الطريق السليم. إنّ الحنين إلى الدين، والأمل في أن نغرف من قواه، موجود هنا؛ وكذلك اليقين من أنّنا بحاجة إليه، ومن أنّ حياتنا تعاني نقصًا، أو فراغًا. إنّ الشعور بهذا أمر إيجابيّ؛ ولكن، يدخل في ذلك الكثير من سلطان المرء على ذاته؛ وإنّ الخضوع في معرفة الحقيقة، الذي يفرض عليّ أمرًا لا أختاره بنفسي، غائب تمامًا.

هل تستطيع أن تتخيّل البشريّة، وهي تعيش في عصر جديد من التنوير، قادر على تأمين المبادرات الجيّدة المتحرّرة، وعلى وصل طرَفي الحلقة المكسورة، في الوقت عينه، وإدخال أبعاد الإيمان ثانية في الحياة والفكر؟ فإذا حصل هذا، تُردم الهوّة، أو ما يعرف بـ «شقّ أندراوس» المفتوح في ضمير الناس، وينتهي الانشطار الذي يعانونه. وقد تكون هذه رؤية جماعة جديدة، لا تستطيع، بالتأكيد، رفض الله.

يأمل الإنسان المؤمن دائمًا في إمكانيّة عودة الجماعة، بعد اختفائهم في الحقب المظلمة. وتكون العودة دائمًا إلى الأمام، وإلى الأعلى، كما سبق قوله، لأنّنا لا نستطيع الانتقال إلى الحقب القديمة. وإنّكم تتكلّمون أيضًا عن جماعة جديدة، وعن عصر تنوير جديد، يسمح بالعثور على ما هو أساسيّ، فيصهره في ما هو عصريّ. إنّ هذا الأمل لن يتحقّق – في رأيي – في المدى القريب؛ لأنّ التيّار، الذي يباعد ما بين القوى الروحيّة، قويّ، هو أيضًا. فمن جهة أولى، نجد الجاذبيّة التي تفرضها معرفة الجماعة، ومن جهة ثانية، نجد الاستسلام للنقص والفراغ. وخوف الالتزام الناتج عن هذه الحالة كبير جدًّا. وأعتقد بأنّنا نجتاز مرحلة طويلة من الاضطرابات الدائمة. ولكنّ المسيح – بعيدًا عن تشظّي هذه المعلومات، التي تفكّك الحياة أكثر فأكثر – يعمل كي ترجع الجماعة، ووحدة الكائن الإنسانيّ، التي هي هبة من الله، بجلاء ووضوح، وتلتحم الحلقات المكسورة. يجب أن نسير في هذا الاتّجاه، أوّلاً. ولكن، تستحيل معرفة ما إذا كان هذا يحصل بسرعة.

لقد أثار البابا، في خطابه، سنة ١٩٩٥، في الأمم المتّحدة بنيويورك، قضيّة أسس النظام العالميّ الجديد، فتكلّم أيضًا عن أمل جديد في الألفيّة الثالثة، قال: «سنرى أنّ

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

دموع هذا القرن، قد حضّرت التربة لإطلالة ربيع جديد للروح الإنسانيّة». فماذا يعني هذا «الربيع الجديد»؟ هل هو هويّة جديدة للإنسان؟

هذا فصل مستقلّ. فالبابا يأمل كثيرًا، ويرى أنّ ألفيّة الوحدة، ستعقب ألفيّة الفرقة والانفصال. وفي رأيه، أنّ الألفيّة الأولى، كانت ألفيّة الوحدة المسيحيّة. وقد حصلت انشقاقات أيضًا، كما نعلم، ولكنّ الشرق والغرب ظلاّ متّحدين. وأمّا في الألفيّة الثانية، فقد حصلت انقسامات عظيمة. والآن، وفي نهاية هذه الألفيّة، فباستطاعتنا إيجاد وحدة جديدة، بعد تأمّل مشترك عميق. إنّ كلّ جهده المسكونيّ يصبّ في هذا المنظور المستند على فلسفة التاريخ. والبابا مقتنع بأنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني، الذي قال: نعم للوحدة المسكونيّة، وأطلق نداء في هذا الشأن، يصبّ في منحى فلسفة التاريخ.

وإنّ طغيان القضيّة المسكونيّة على المجمع الفاتيكانيّ الثاني، هو إشارة إلى العمل من أجل الوحدة. فهل يعني هذا أنّ الأمل يحدو الحبر الأعظم، في أنّ الأزمنة تحمل سماتها في الظاهر، وفي أنّ سقطات القرن العشرين، وما خلّفه من دموع، كما يقول، ستنقلب وتتحوّل إلى بداءة جديدة، وتكفكف للدموع؟ ينبغي أن نتطلّع إلى وحدة البشريّة والأديان والمسيحيّين، والعمل مجدّدًا من أجل ذلك، حتّى يبدأ زمن أكثر إيجابيّة. ويجب أن تكون لنا رؤيا تستلهم، وتدفعنا إلى السير في هذا الاتّجاه. وإنّ حماس البابا الذي لا يكلّ، يستمدّ قواه من حدسه ورؤاه. وإنّه لشؤم قاتل، أن نسلس انقيادنا فقط للحسابات السلبيّة، وليس للرؤى المشحونة بالإيجابيّة المفيدة، التي بمقدورها تحديد الوجهة المطلوب سلوكها، وإعطاؤنا الشجاعة في العمل. أمّا، في ما خصّ صحّة هذه الرؤية وصوابيّتها، فالأفضل أن نضع الأمر بين يدي الله. وحتّى الآن، لا أرى أنّ هذا الحدث قريب منّا.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

النقاط الأساس لنموّ الكنيسة وتطوّرها

الكنيسة، والدولة، والمجتمع

بنتيجة الفصل بين الكنيسة والدولة، قالت نظريّة القرن التاسع عشر، إنّ الإيمان شأن ذاتيّ، وعمل خاصّ. ورأى كثيرون أنّ استمرار الانشغاف بالأمور الدنيويّة يهدّد الإيمان والكنيسة في بقائهما. ولكن، ألا يكون هناك من فرصة جديدة، إذا ولّى زمن تنظيم الدولة للدين؟ قلت: «حتّى لا تفرض الدولة الإيمان، ولكي يبقى هناك قناعة حرّة مكتسبة، يبدو أنّ الانفصال عن الدولة يلائم جوهر الكنيسة».

لقد عرف العالم فكرة فصل الكنيسة عن الدولة بفضل المسيحيّة، وحتّى زمن مضى، كان التلازم قائمًا بينهما. وكان يرى الجميع في الدولة طابعًا مقدّسًا، وكانت الحارس الأعلى لكلّ ما هو مقدّس. وعلى هذا المنوال، سارت الأمور في إسرائيل، فكان الدين والدولة متّحدين. ولكن، بالتحديد، عندما خرج الإيمان الإسرائيليّ، وأصبح إيمان جميع الشعوب، انفصل عن الكيان السياسيّ، وبرز كأنّه أرفع مستوًى من الانقسامات والفوارق السياسيّة. وهذه هي بالضبط نقطة المواجهة بين المسيحيّة والأمبراطوريّة الرومانيّة. ولقد تسامحت الدولة كلّيًّا مع الديانات الخاصّة، شريطة اعتراف هذه بدين الدولة، وبارتباط السماء والآلهة بحماية روما، والعيش في كنفها. وشكّل دين الدولة الرسميّ خيمة لكلّ الديانات الخاصّة.

إلاّ أنّ المسيحيّة لم ترضَ بهذا، ونزعت عن الدولة حصريّة اعتبارها «العالم المقدّس»، ووضعت موضع تساؤل المفهوم الأساسيّ للأمبراطوريّة الرومانيّة، وللعالم القديم، بشكل عامّ. فهذا الفصل، بين الكنيسة والدولة، هو، في النهاية، وصيّة موروثة عن المسيحيّة، من الأصل، وهو عامل حاسم في الحرّيّة. وليست الدولة، في ذاتها، السلطة المقدّسة؛ ولكنّها نظام يجد أبعاده وحدوده في إيمان لا يقوم على عبادة الدولة، بل على عبادة

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

اللّه الذي يواجهه ويحاكمه، وهذه هي الجدّة. ويمكن لهذا، بالطبع، أن يتّخذ أشكالاً مختلفة، بحسب تكوين المجتمعات. لقد كان التطوّر بهذا المعنى إيجابيًّا، من جهة، منذ عصر التنوير، الذي كان له السبق في فصل الكنيسة عن الدولة. وأمّا الوجه السلبيّ في ذلك، فهو أنّ العصريّة تقود إلى تقليص حجم الدين، ليصبح ذاتيًّا، وتعطي الدولة ميزة مطلقة، بحسب ما قال الفيلسوف «هيغل» (Hegel).

وقد رفضت المسيحيّة دائمًا أن تكون دين الدولة، على الأقلّ، في بداءتها، وشاءت أن تبقى متمايزة. كانت مستعدّة للصلاة من أجل الأباطرة، وليس لتقديم الأضاحي لهم. ومن جهة ثانية، فقد حرصت رسميًّا ودائمًا ألاّ تكون شعورًا فرديًّا – قال «فاوست» (Faust): «الشعور هو كلّ شيء» – بل أرادت أن تكون حقيقة منتشرة في قلب الرأي العامّ، الذي يكسبها معايير قيّمة، تطوّع الدولة وأصحاب النفوذ، إلى حدّ ما. وأعتقد، من هذه الناحية، أنّ تطوّر العصريّة يحمل جانبًا سلبيًّا، وهو عودة الذاتيّة. أمّا الجانب الإيجابيّ، فيتمثّل في وجود كنيسة حرّة، ضمن دولة حرّة، إذا جاز التعبير. وهنا تكمن الحظوظ لإيمان أكثر حيويّة، يكون عميقًا ومؤسّسًا بحرّيّة، فيدافع ضدّ العودة إلى الفرديّة، بالتأكيد، ويعمل على إسماع صوته للرأي العامّ.

كان «بيار باولو بازوليني» (Pier Paolo Pasolini) يرى نجاح الكنيسة في تفاضلها، وفي قيامها بدور معارض راديكاليّ. وقد كتب في رسالة له إلى البابا، في صيف ١٩٧٧: «من وجهة نظر راديكاليّة، وربّما وهميّة تتعلّق بنهاية الأزمنة، أرى أنّ الدور، الذي كان يتوجّب على الكنيسة القيام به، واضح، وذلك لتفادي نهاية غير مجيدة. ففي المعركة، التي ترجع إلى تقليد بعيد، يمتدّ إلى زمن صراع البابويّة مع الأمبراطوريّة العلمانيّة، كان باستطاعة الكنيسة تجميع كلّ القوى التي رفضت أن تطأطىء رأسها للتسلّط، وأن تكون رمزًا للرفض، وذلك بالعودة إلى أصالتها في المعارضة والثورة».

في هذا القول، الكثير من الصحّة. وإنّ سلوك الكنيسة غير الفاعل، الذي يتسبّب بضعفها – لأنّها مبعدة – يقدر أن يتحوّل إلى قوّة. ويستطيع الناس، بدون شكّ، أن يتصدّوا للإيديولوجيّا التافهة التي تسيطر على العالم، إذا شاءوا. وتستطيع الكنيسة أيضًا، أن تقوم بدور متناقض، فتكون عصريّة، من جهة، وتتصدّى للرأي العامّ، من

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

جهة ثانية. وعليها القيام بدور نبويّ متناقض أيضًا، وتكون شجاعة في قول الحقيقة؛ وهنا تكمن قوّتها؛ حتّى ولو أثّر ذلك في تقليص شعبيّتها، وفي عزلها.

ما كنت أرغب، بتحجيم رسالة الكنيسة، وحصرها في موقف بسيط معارض؛ فهي تساهم دائمًا، وبشكل رئيسيّ، في البناء الإيجابيّ، وتعمل باستمرار كي تتّخذ الأمور شكلها الحقيقيّ. لذلك، لا يحقّ لها أن تنحدر إلى موقف من المعارضة العامّة، بل أن تختار بدقّة المواقف التي تتطلّب مقاومة، والأشخاص الذين يتوجّب دعمهم، فتعرف أن تقول: نعم ولا، بحسب الموقف، ويكون ذلك من أجل الدفاع عن جوهرها.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الحركة المسكونيّة والوحدة

لقد سبق لكم أن قلتم: إنّ وحدة المسيحيّين، بالنسبة إلى البابا، يوحنّا بولس الثاني، كانت الرؤيا، في نهاية الألفيّة، وقدّمت الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة، حول هذا الموضوع، اقتراحات للانفتاح، ونظّمت حوارات لاهوتيّة. وفي رسالته الحبريّة «ليكونوا واحدًا» (Ut unum sint) المنشورة في آيّار ١٩٩٥، حول مسائل وحدة الكنائس، يعبّر الحبر الأعظم عن أمله في أن تتطوّر الوحدة بين جميع المسيحيّين، حتّى تكون الجماعة جسمًا واحدًا، في مطلع الألفيّة الجديدة، لأنّ «الانقسام، الذي هو فضيحة، يناقض جليًّا إرادة المسيح...» ولكن، هل وحدة المسيحيّين ممكنة؟ علمًا بأنّه ورد في الرسالة الحبريّة عينها، أنّه ينبغي بقوّة تجنّب أيّ شكل من أشكال التوافق السطحيّ.

أمّا عن صيغ الوحدة وأشكالها، فالجواب عنها صعب. ويجب أن نتساءل، في البدء، عن الممكن. فما الذي نأمله، وما الذي لا نأمله؟ وثانيًا: ما هو الجيّد، حقيقة؟ إنّي لا أجرؤ على الأمل في وحدة مسيحيّة تامّة، في التاريخ المنظور. ونرى بوضوح، اليوم – في الوقت الذي بدأت فيه محاولات الوحدة – أنّ التشظّيات طفقت في الظهور. ومن تلك التشظّيات، تشكّلٌ مستمرّ لبدع جديدة ملفّقة بأموال وثنيّة، وتفاقم الخلاف في ما بين الكنائس البروتستانتيّة (في ألمانيا، مثلاً)، والأرثوذكسيّة، والكنائس المستقلّة (Autokephalien)، وكذلك في الكنائس الكاثوليكيّة نفسها، حتّى ليتملّكنا شعور بوجود كنيستين تعيشان جنبًا إلى جنب، في داخل واحدة.

ونلاحظ وجود حركتين متزامنتين. فمن جهة أولى، تجهد المسيحيّة المتباعدة إلى التقارب، ومن جهة ثانية، تتشكّل، في الوقت عينه، تصدّعات داخليّة أخرى. لذا، لا يمكن الحديث عن تحقيق أمل طوباويّ. ولكنّ المهمّ هو أنّنا نفكّر في الجوهر. وليحاول كلّ فريق الخروج من قوقعته، والسعي للوصول إلى لبّ الأمور، بالاستناد إلى الإيمان. وسيكون ذلك عظيمًا، إذا لم تحدث انقسامات أخرى، أو إذا فهمنا أنّنا، ولو افترقنا،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

يمكننا البقاء متّحدين في نقاط كثيرة. ولا أظنّ أنّنا نستطيع الاتّفاق بسرعة على نقاط عقائديّة جوهريّة كي نتّحد. ولكن، جيّد ومهمّ أن يقبل بعضنا بعضًا باحترام داخليّ كبير، وبحبّ، مع الاعتراف بأنّنا جميعًا مسيحيّون. ولنحاول أن نشهد معًا، أمام العالم، في الأمور الجوهريّة، من أجل سير النظام العالميّ، والإجابة عن الأسئلة الكبيرة، المتعلّقة بالله وبالإنسان، من مثل: من أين جاء الإنسان؟ وإلى أين يذهب؟

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الإسلام

رسم لنا المستشرقون الرومانطيقيّون صورة عن الإسلام، لا تتطابق والحقائق. ومع ذلك، يستحيل القول إنّ الإسلام لا يتمايز جوهريًّا، وفي الصميم، عن قيم الغرب الاجتماعيّة؛ فمكانة الفرد، ومساواة المرأة بالرجل، أمر مغاير في الشرق، لما هو عليه في الغرب. واليوم، يسيء الإرهابيّون المسلمون المتطرّفون، إلى الإسلام. ويتفاقم الخوف في أوروبّا من هؤلاء المتعصّبين. إنّ التفاهم بين الثقافات ضرورة، لا يعترض عليها أحد. ولكن، على أيّ أساس؟

إنّه سؤال صعب. وأعتقد بأنّ الإسلام ليس كلاًّ متجانسًا وموحّدًا، وبأنّ الحوار معه، حوار مع فرق متعدّدة؛ فلا يقدر أحد أن يتكلّم باسم جميع المسلمين، فالمتغيّرات كثيرة، والانشقاق ظاهر بين السنّة والشيعة، وهناك إسلام معتدل وإسلام متطرّف وإرهابيّ، فلا يجوز أن نساوي بين الاثنين، بوجه عامّ، وإلاّ وقع الظلم.

وكما سبق القول، فالمهمّ هو أنّ الإسلام، بعامّة، ينظّم العلاقات في المجتمع سياسيًّا، ودينيًّا، بطريقة مختلفة. وإذا نوقشت، اليوم، في الغرب، إمكانيّة فتح كلّيّات دينيّة إسلاميّة، أو عدّ الإسلام شخصًا معنويًّا في القانون العامّ، تطلّب ذلك أن تكون الديانات الأخرى مبنيّة ومكوّنة بالطريقة عينها، وأن تنطوي في نظام قانونيّ ديمقراطيّ، مع أنظمتها وحرّيّاتها، التي يكفلها القانون. ولكنّ هذا يناقض بقوّة جوهر الإسلام، الذي لا يفصل أبدًا بين السياسة والدين، بعكس المسيحيّة تمامًا. والقرآن قانون دينيّ شموليّ، ينظّم الحياة السياسيّة والاجتماعيّة، ويوجب أن ينظّم الإسلام شؤون الحياة. فالشريعة تفرض طابعها على المجتمع، من البداءة إلى النهاية. ويستطيع الإسلام أن يفيد من الحرّيّات الجزئيّة، التي يقدّمها دستورنا؛ ولكنّه لا يقدر أن يقول: أنا الآن شخص معنويّ، وموجود كما الكاثوليك والبروتستانت. إنّه لم يصل بعد، في الواقع إلى هذه النقطة، التي هي دائمًا نقطة تباعد.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

إنّ للإسلام تصوّرًا مختلفًا لنظام الحياة، ويشمل الجميع، وتختلف قوانينه عن قوانيننا، ولاسيّما في تبعيّة المرأة للرجل، والقانون الجزائيّ، والشؤون الحياتيّة. وكلّها من صلب تعاليمه، وهي تتعارض وتصوّرنا للمجتمع العصريّ. وما ينبغي فهمه، هو أنّ الإسلام ليس عقيدة فحسب، يتمّ تطبيقها في مجتمع تعدّديّ. وفي هذا السياق، يبدو الحوار معه أكثر تعقيدًا من أيّ حوار يجري داخل المسيحيّة.

ويمكن أن نعكس السؤال، كما يلي: ماذا يمكن أن يقول الإسلام المنتشر في العالم للمسيحيّة؟

لانتشار الإسلام عدّة وجوه. وهناك قدرات ماليّة تدخل في اللعبة؛ فسلطان المال العربيّ يسمح ببناء مساجد عظيمة، في كلّ مكان، وبإنشاء مؤسّسات ثقافيّة إسلاميّة، وأشياء أُخرى مشابهة. ولكن، ليس هذا سوى عامل واحد، بالتأكيد. وأمّا العامل الآخر، فهو الهويّة التي استعادت قوّتها، ووعيها الجديد لذاتها.

وفي ما خصّ الحالة الثقافيّة، في أثناء القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، إلى الستّينات منه، فقد كان التفوّق الكبير حليف البلدان المسيحيّة، في الحقول: الصناعيّة، والثقافيّة، والسياسيّة، والعسكريّة، وكان الإسلام في المركز الثاني؛ كما سيطرت المسيحيّة – بحضارتها المبنيّة على الدين – واعتُبرت القوّة العظمى في العالم. ولكن، بعدئذٍ، انفجرت الأزمة الأخلاقيّة في العالم الغربيّ المسيحيّ، وعمّ القلق الداخليّ المجتمعات. وقد تزامن ذلك مع نهضة الدول العربيّة الاقتصاديّة، فاستيقظت روح الإسلام مجدّدًا، فازداد تعاظم المسلمين، وقالوا إنّ هويّتهم أكثر تحديدًا من سواها، وإنّ دينهم صامد ومستمرّ، في حين، لم يعد للمسيحيّة من دين البتّة.

وأمّا اليوم، فيشعر العالم الإسلاميّ بأنّ البلدان الغربيّة، ما عادت تستطيع أن تحمل رسالة أخلاقيّة، أو أن تقدّم للعالم سوى أنظمة عمل. وقد تنحّت الديانة المسيحيّة، وفقدت وجودها الدينيّ، وخسر المسيحيّون الأخلاق والإيمان، وما عادوا يملكون سوى بقايا أفكار عصريّة، مستلهمة من عصر التنوير، بينما دين الإسلام صامد ومستمرّ.

ولدى المسلمين، اليوم، يقين بأنّ دينهم بقي الأقوى، وبأنّ عندهم ما يقولونه للعالم، وبأنّهم قوّة المستقبل الدينيّة الجوهريّة. ولئن غابت الشريعة عن مسرح الأحداث في

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الماضي، فإنّها عادت وانبثقت بزهو جديد، مع وثبة وقوّة جديدتين، وإرادة في إحياء الدين. وقالوا إنّ قواهم تكمن في أنّ لديهم رسالة أخلاقيّة، لم تنقطع منذ زمن الأنبياء، وفي أنّهم يرشدون العالم إلى طريقة العيش الصحيحة، في حين يعجز عن ذلك المسيحيّون. وينبغي علينا أن نجابه ونحاور قوّة الإسلام الداخليّة، التي تفتن الأوساط الجامعيّة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

اليهوديّة

ونصل، في هذا النقاش، إلى النقطة الأكثر أهمّيّة، وهي علاقة المسيحيّة باليهوديّة. والمعروف أنّه، منذ زمن بعيد، كان الصراع بين الديانتين مبرمجًا، وفي أعماق الدين. وقد لاحظ رئيس مجمع الإيمان أنّ النجم يشير إلى أورشليم، وهو ينطفئ ويظهر مجدّدًا في كلمة الله، وفي كتاب إسرائيل المقدّس. فماذا يعني هذا؟ أيعني علاقة جذريّة جديدة باليهوديّة؟

علينا، من دون شكّ، أن نحيي علاقتنا باليهوديّة، وقد بدأ العمل بذلك. والاختلاف بيننا ما زال قائمًا، ونحن نشعر به، وكأنّه يزداد بطريقة ما. ولكنّ العلاقة ينبغي أن تقوم على أساس الاحترام المتبادل، والقبول الداخليّ. ونحن نسير في اتّجاه هذه الغاية. وما أريد قوله هو أنّه، بفضل العهد القديم، الذي هو جزء من كتاب المسيحيّين المقدّس، كان هناك دائمًا قرابة داخليّة عميقة، بين المسيحيّة واليهوديّة. ولكنّ هذا الإرث المشترك، كان سببًا للفتنة بيننا، فشعر اليهود بأنّنا سرقنا كتابهم – وهم أصحابه الحقيقيّون – من دون أن نعيش في هديه. وشعر المسيحيّون، من جهتهم، بأنّ اليهود يقرؤون العهد القديم قراءة خاطئة؛ لأنّ القراءة الصحيحة لا تكون إلاّ من منظور الانفتاح على المسيح. وكأنّما اليهود أوصدوا باب الكتاب وراءهم، وغيّروا وجهته الداخليّة. ولعلّ هذا ما دفع المسيحيّين إلى أن يقولوا لليهود: أنتم تملكون الكتاب، بالتأكيد، ولكنّكم لا تقرؤونه كما يجب. وعليكم أن تفعلوا، لأنّ هذه هي الخطوة الأهمّ.

ولقد نشأت، منذ القرن الثاني للمسيحيّة، حركات رافضة للعهد القديم، أو، على الأقلّ، كانت تقلّل من أهمّيّته. وعلى الرغم من أنّ حركة الرفض تلك، كانت واسعة الانتشار، إلاّ أنّها لم تتحوّل إلى عقيدة رسميّة للكنيسة. وإذا ما قرأنا نصوصه الشرعيّة، أو بعض القصص الغريبة، وأخذناها بمعناها الحرفيّ، انتهى بنا الأمر إلى القول: «أيعقل أن يكون هذا كتابًا مقدّسًا لنا»؟ ومن هنا يتأتّى رفض المسيحيّة لليهوديّة. وعندما تخلّى

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

المسيحيّون، في العصور الحديثة، عن تأويل النصوص، التي بفضلها نَصَّر آباؤهم العهد القديم، بدأوا يعيدون النظر في قراءتهم له.

يجب أن نحيا من جديد انتماءنا المشترك لقصّة إبراهيم. وفي هذه النقطة، تكمن فرقتنا وقرابتنا، في آن واحد. وعلينا أن نحترم طريقة اليهود في قراءة العهد القديم، إذ لا يركّزون عيونهم على المسيح، بل على ذلك المجهول الذي ينتظرون مجيئه. إنّ إيماننا وإيمانهم لا يسيران في الاتّجاه عينه. ونأمل في أن يتفهّمونا، حتّى ولو قرأنا العهد القديم قراءة مختلفة. ويتفهّموا أنّنا نحاول أن نتقاسم معًا إيمان إبراهيم، كي نقدر على العيش داخليًّا معهم، متقابلين.

لماذا تأخّر الفاتيكان زمنًا طويلاً كي يعترف بإسرائيل؟

إنّ قيام دولة إسرائيل، بعد الحرب العالميّة الثانية، كان بقرار من الأمم المتّحدة، اعترف للشعب الإسرائيليّ بدولة خاصّة به. ولكنّ ترسيم الحدود بقي موضوع نزاع، كما هو معروف. وترك اللاجئون العرب الدولة الجديدة بأعداد كبيرة، مرغمين على العيش مشتّتين في عدّة دول، يعانون حالة صعبة جدًّا ومريبة. وفي هذه الحال، كان الفاتيكان ينتظر قيام علاقات قانونيّة واضحة لحلّ المشكلة؛ كما انتظر حلّ قضيّة حدود ألمانيا الشرقيّة، فلم ينشئ أبرشيّات جديدة فيها، إلاّ بعد تسوية سياسة «برانت» (Brandt) للمسائل المتنازع عليها، بين بولونيا وألمانيا. ولم يكن هناك من علاقات دبلوماسيّة بجمهوريّة ألمانيا الديمقراطيّة، كما هو معروف، كما أنّ موضوع القدس، في إسرائيل، زاد في الطين بلّة. وكان من المريب أن تصبح مدينة الديانات الثلاث المقدّسة، عاصمة لدولة واحدة، ذات صبغة دينيّة. وهنا، كنّا ننتظر توضيحات. وأخيرًا، ظهرت رغبة في عقد اتّفاق دقيق، حول واقع المسيحيّين ومؤسّساتهم، في الدولة الجديدة.

في أثناء ذلك، برز داخل الكنيسة تأكيد أنّ المسيح كان يهوديًّا؛ أفما كان ينبغي القول: «صار الله يهوديًّا»، بدلاً من «صار الله إنسانًا»؟ أليس على الإيمان المسيحيّ، في النهاية، القبول باليهوديّة؟

من المهمّ أن نعي أوّلاً، أنّ يسوع كان يهوديًّا. وأضيف ما يلي: في زمن النازيّة، عندما كنت في المدرسة، كانت النزعة «المسيحيّة – الألمانيّة» تُرجع المسيح إلى الجنس الآريّ. وقيل: إنّه كان جليليًّا، ولم يكن يهوديًّا. ولكن، في أثناء الدروس الدينيّة،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

وفي عظات الأحد، كان رجال الدين يردّدون بإلحاح: هذا الادّعاء ملفّق؛ لأنّ المسيح هو ابن إبراهيم، وابن داود، وكان – بالتالي – يهوديًّا. وهذا هو أحد الوعود في إيماننا.

وهذا عنصر مهمّ، من دون شكّ. فنحن المسيحيّين، مرتبطون باليهود، حول هذه النقطة. ولهذا السبب أيضًا، يبقى مهمًّا الإثبات «صار الله إنسانًا». ولدينا الحظّ، شجرتا نسب ليسوع، في العهد الجديد. فالقدّيس متّى يُرجع نسب المسيح، في إنجيله، إلى إبراهيم الخليل، ويعتبره ابن إبراهيم، وابن داود، وبه يكتمل الوعد المعطى لإسرائيل. ويرجعه القدّيس لوقا إلى آدم، ويبرهن أنّه الكائن البشريّ ذاتًا. ومن المهمّ جدًّا القول إنّ المسيح إنسان، وإنّ حياته وموته يعنيان كلّ البشر. وهذا هو بدقّة إرث إيمان إبراهيم، الذي ينقل إرث الوعد إلى الإنسانيّة جمعاء. وإنّ العبارة الجوهريّة البسيطة «صار إنسانًا» مهمّة من بعد، كما من قبل.

ونضيف، أخيرًا: بصفته يهوديًّا مخلصًا للإيمان، تخطّى يسوع يهوديّته، وقد أراد أن يشرح، من جديد، كامل الإرث، وأن يدخله في إيمان أوسع. وهنا، تكمن نقطة الخلاف. وأشير إلى نقاشات وحوارات جيّدة، حول هذا الموضوع، ومنها، كتاب مشوّق للحاخام الأميركيّ، «يعقوب نويزنر» (Jakob Neusner) الذي ناقش حقيقة «العظة على الجبل»، فأوضح التناقضات بحبّ كبير، وشدّد، في النهاية، على كلمة «نعم» المشتركة للإله الحيّ. إذًا، ليس مطلوبًا منّا إخفاء التناقضات، وإلاّ ضللنا الطريق الصحيح؛ لأنّ الدرب الذي يمرّ بإزاء الحقيقة ولا يراها، ليس أبدًا الدرب الصحيح الموصل إلى السلام. فالتناقضات موجودة، وعلينا أن نجد فيها الحبّ والسلام.

لم تحصل المحرقة (Holocaust) بالتأكيد، في زمن سلطة الكنيسة، وإنّما في فترة، فقدت فيها هذه سلطانها كلّيًّا على قلوب البشر. ويجب أن نناقش مرحلتَيّ قبل ذلك وما بعده، ونناقش الطريقة التي حدثت فيها الكارثة على أرض مسيحيّة. حتّى الآن، لا يبدو بعيدًا الزمن، الذي سيصبح فيه عدد الكاثوليك في أوروبّا، أقلّ ممّا كان عليه، قبل الحرب على اليهود، حين لم يتمكّن هؤلاء الكاثوليكيّون من إيقاف المجزرة أو منعها.

إنّه فصل طويل مظلم، كما سبق القول، ومن المهمّ أن نعرف، أنّ المحرقة لم يقترفها مسيحيّون، باسم المسيح، بل قام بها أعداء المسيحيّة، وكان سيليها خطّة لاستئصال المسيحيّين. وقد عايشتُ تلك الأحداث في طفولتي. وكان الكلام يدور، وبدون انقطاع،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

على اليهوديّة المتنصّرة، وعن تهويد النصرانيّة للألمان، الذين كانت لهم صلات بالكنيسة الكاثوليكيّة. ولقد جرى الهجوم في «ميونيخ» على دار المطرانيّة، في اليوم الذي أعقب «ليلة الكريستال» (Kristllnacht). وكانت كلمة السرّ: «بعد اليهود يحين دور صديق اليهود». ونقرأ في «Stürmer» أنّ المسيحيّة، وبخاصّة الكاثوليكيّة، كانت تُعدّ محاولة يهوديّة للحصول على السلطة، وكانت تدعى «تهويد» العرق الجرمانيّ. وكانت الخطّة تقضي، بعد القضاء على اليهوديّة، بالتخلّص نهائيًّا من المسيحيّة، كما كانت معروفة، آنذاك، لتحلّ محلّها «مسيحيّة هتلر الوضعيّة».

ولا يجوز أن تمرّ قضيّة استئصال هتلر لليهود بصمت وكتمان، وقد اتّخذت طابعًا معاديًا للمسيحيّة. ولا يغيّر هذا في شيء، من أنّ المسؤولين عن هذه القضيّة، كانوا معمّدين. ولئن كانت (س س) (SS) منظّمة للمجرمين الملحدين، ولم يكن بين هؤلاء مسيحيّون مؤمنون، فإنّهم «على كلّ حال، كانوا معمّدين. وكان المسيحيّون المعادون للساميّة قد تولّوا تحضير المجزرة. وإنّ النزعة المعادية للساميّة كانت موجودة في فرنسا، والنمسا، وبروسيا، وفي بلدان كثيرة. وهذا ما يدعو إلى فحص مستمرّ للضمير.

هل اليهود مسألة جوهريّة، في ما خصّ مستقبل العالم، كما جاء في العهد القديم؟

لا أعرف تمامًا إلى أيّ نصّ في التوراة تلمّح. وعلى كلّ حال، بما أنّ اليهود هم حملة الوعد الأوائل، وبما أنّهم الشعب، الذي جرت على أرضه أحداث القصّة التوراتيّة، فإنّهم يبقون في لبّ تاريخ العالم. وكان يسود الاعتقاد، بأنّ هذا الشعب الصغير، لا يشكّل أهمّيّة كبيرة. ولكنّني أرى أنّه يمتاز دائمًا بفرادة خاصّة به، وأنّ القرارات الكبيرة في تاريخ العالم، ذاتَ صلة به، بطريقة أو بأخرى.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

مجمع جديد؟

يبدو أنّ مجمعًا كبيرًا ينعقد، منذ زمن بعيد، خارج الفاتيكان، وتصدر عنه رسائل خاصّة بالسلام، وبتحديد مبادئ الإيمان. فهل تحتاج الكنيسة إلى مجمع فاتيكانيّ ثالث، لتوضيح الطريق ورسم معالمه؟

الجواب، هو: ليس في المستقبل القريب. وأروي لكم قصّة بهذا الشأن، كان قد رواها لي الكاردينال «كوردِيرو» (Cordeiro) من باكستان، بينما كنّا نشارك معًا في سينودس. وكان الكاردينال «دوفنر» (Döpfner) نفسه، هناك أيضًا. فقال أحدهم: إذًا، هناك حاجة إلى مجمع فاتيكانيّ ثالث. عندئذٍ، رفع «دوفنر» يديه، وبعبارة ذعر، قال: «ليس في أيّامي»؛ لأنّ تجربة مجمع واحد كانت كافية جدًّا بالنسبة إليه. وكانت لديه قناعة، بأنّ هذه التجارب تحتاج إلى فسحة زمنيّة مديدة بين مجمع وآخر. والمجمع، في الواقع، حدث عظيم، يقلب الأوضاع في الكنيسة، ويستهلك الكثير من الوقت لإنجاحه. ولقد شقينا كثيرًا، قبل أن نضبط أوضاع المجمع الثاني. لذا، فإنّ ثالثًا لن يكون بهذه السهولة. إنّ ما نقوم به بانتظام، هو عقد سينودس للأساقفة، وأظنّ بأنّه أكثر ملاءمة وواقعيّة. وقد اجتمع هنا مئتا أسقف، أتوا من كلّ أنحاء العالم، ليحاولوا معًا تحليل الوضع الحاليّ. وإنّ عقد مجمع مسكونيّ – على ضخامته – يستحيل ضبطه؛ لأنّه سيضمّ ثلاثة أو أربعة آلاف أسقف؛ ممّا لا يسمح بالنقاش الحقيقيّ والحوار الجدّيّ. ولكي يتمكّن المشاركون من اتّخاذ قرارات بشأن السلام، يجب أن يتمّ التحضير من الداخل. وليس المجمع آلة تصدر القرارات الجيّدة، ومن ثمّ يكمل كلّ شيء دورته العاديّة؛ فهو يقارب ويعالج المعطيات الحيّة المحضّرة، ويعيد صياغتها في قرارات. ومن الضروريّ، قبل كلّ شيء، التحلّي بالصبر، بانتظار بسط الموضوعات، وتحيُّن الوقت المناسب، وتنظيم المسائل المطروحة، قبل أن تُصاغ في نصوص وقرارات.

ولا أظنّ أنّه في المستطاع اكتشاف دواء عجائبيّ ناجع للمسائل، في أيّ مجمع، بل بالعكس، فإنّه على المجمع أن يختلق أزمات، تتحوّل بشكل طبيعيّ، من بعد، إلى أزمات سلميّة. ونحن اليوم منشغلون بتحقيق المجمع الفاتيكانيّ الثاني وتنفيذه.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

مستقبل الكنيسة - كنيسة المستقبل

هل ننتظر، سيّدي الكادرينال، من الكرسيّ الرسوليّ، في هذا القرن، بيانات يمكنها أن تطرح احتمالات وتطوّرات، من أجل مستقبل الكنيسة؟ وربّما كان هذا على صعيد الإصلاح الداخليّ، مثلاً، حتّى لا نتوسّع في الكلام؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب، فإلى أيّ مدًى، برأيكم؟

في اعتقادي، أنّ البابا سيصدر سلسلة من الرسائل، يتطرّق فيها إلى مسألة الوحدة المسيحيّة، وإلى الحوار بين الأديان، وإلى كلّ الأدبيّات، والأخلاقيّات السياسيّة والاجتماعيّة المريبة؛ لأنّها جميعًا من صلب اهتماماته. ويجب، قبل كلّ شيء، أن يحصل تبشير بالإنجيل، بعيدًا عن الكسب السياسيّ، لئلاّ يطال التشويه والتعتيم صورته.

ويُتوقّع عقد سينودس من أجل الأميركيّتين، وآخر من أجل آسيا. وإذا شاء قداسته، ينظّم سينودسًا واحدًا للأميركيّين، على الرغم من عدم التشابه بين أميركا الشماليّة وأميركا الجنوبيّة، فيفسح المجال، أمام هذه القارّة، لتجد بنفسها – على ما فيها من تنوّع – تكاملاً ووسيلة لإصلاح الذات، وقوّة مشتركة للتبشير بالإنجيل. ويتمّ في السينودس مقاربة موضوع الثقافات الأميركيّة المريبة، والفقر، والثقافات القديمة، والهويّة الثقافيّة، والطريقة التي تستطيع بها كلّ هذه، أن تلاقي ثقافة أميركا الشماليّة الأنجلوسكسونيّة في الدين الكاثوليكيّ، ومن ثمّ يُفتح مسار مشترك.

وفي ما خصّ السينودس الآسيوي، فإنّه سيعالج الطريقة، التي تستطيع المسيحيّة بها أن تدخل في النصّ الدينيّ الآسيويّ، ووسيلة تعاون الديانات الآسيويّة، والدين المسيحيّ، في المجهود الذي تتطلّبه نهاية القرن، من أجل التقارب. ويبدو لي، أنّ المدّة المتبقّية لقداسته على الكرسيّ ستكرّس بقوّة لهذين المجمعين.

ويتضمّن برنامجنا، فوق ذلك، التحضّر للعام (٢٠٠٠)، وفاق ما أعلنه الحبر الأعظم: سنة لدراسة تعاليم المسيح وإبراز شخصه، أوّلاً، وسنة لاهوتيّة، موضوعها الرئيس:

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الإيمان بالله، وسنة للروح القدس. ويتوازى كلّ ذلك مع تأمّل معمّق في العماد، وفي سرّ القربان المقدّس. وندخل، من ثمّ، في العام (٢٠٠٠)، فيتمّ لقاء بالكنائس المسيحيّة جمعاء، وباليهود والمسلمين، الموحّدين. وأعتقد بأنّ انعقاد سينودس أميركا، وسينودس آسيا، بالإضافة إلى التحضير، طوال ثلاث سنوات لحلول العام (٢٠٠٠)، بشكل منهاج مشترك، سيحمل دلالات مهمّة، تؤثّر في الرأي العامّ العالميّ؛ لأنّ الله سيكون بأقانيمه الثلاثة في أساس هذا العمل، مع كلّ الذين يؤمنون به، من الديانات الأخرى.

لقد تكلّمتم، عبر اتّصال بكم، عام ١٩٧٠، في موضوع «الإيمان والمستقبل»، وتحدّثتم عن كنيسة تعمل بعدّة طرق وأشكال، فتسم كهنة من بين المسيحيّين المثّبتين الراشدين، الذين يمارسون نشاطًا مهنيًّا.

لقد توقّعت، آنذاك أن تضعف الكنيسة في المستقبل، ويتقلّص عدد أبنائها، فتصبح كنيسة الأقلّيّات، ولا يعود بمقدورها أن يستمرّ تحكّمها بمساحاتها الشاسعة، وتنيظماتها الضخمة. لذا، عليها أن تنتظم بطريقة أكثر بساطة. كما فكّرت بسيامة كهنة، من بين رجال مستقيمي السيرة وعاملين، إلى جانب الكهنة الذين انضووا في هذا السلك، منذ شبابهم. والصحيح العمليّ في هذه الفكرة، كما أظنّ، هو أنّ الواجب يقضي على الكنيسة بأن تتأقلم بهدوء مع تقلّص حجمها، وتبدّل موقعها في المجتمع. والصحيح أيضًا، هو أنّنا سنزيد من خدماتنا المجّانيّة. أمّا، عن مجال العثور على الرجل، صاحب المهنة، فهذا سؤال آخر. ولكنّ الكنيسة في القديم، قامت على أكتاف هذا النوع من الرجال، لعدم وجود أديرة تؤهّل الكهنة. ومنذ القرنين، الثاني والثالث، تقريبًا، ما عاد الكهنة يتزوّجون. وأمّا عن المستقبل، فهذا سؤال يبقى مطروحًا؛ علمًا بأنّه لا يحلّ أحد محلّ الكاهن، وبخاصّة المتفرّغ لرسالته.

هل ستأخذ الكنيسة بثقافة جديدة، مع تبدّل الأجيال؟ هل ستتجدّد أشكال الحياة في داخل الكنيسة؟

إنّي أعوّل كثيرًا على هذا، إذ كلّ حركة ثقافيّة كانت تنتج أشكالاً جديدة من الحياة، داخل الكنيسة، وأشكالاً جديدة أيضًا من ثقافة الإيمان. عودوا إلى الطراز، أو الفنّ الرومانيّ، والغوطيّ، وعصر النهضة، وعصر الباروك، والزخرفة، والثقافة الإكليريكيّة في القرن التاسع عشر، وإلى الأشكال الجديدة للحياة الدينيّة، التي انبجست مع الحركات الشبيبيّة، فكلّها تشهد على مرونة الكنيسة. إنّ ما نتج عن المجمع الفاتيكانيّ

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الثاني، كان أشبه بـ «ثورة ثقافيّة»؛ لأنّ الحماس المفرط أدّى إلى إفراغ مؤسّسات إكليريكيّة، وإلى إرباك رجال دين. واليوم، يرثي كثيرون ذلك التهوّر. ولكن، في الكنيسة النشيطة، تولد بالتأكيد أشكال جديدة من التعبير؟ ولكن، يجب أن تُبذل جهود جديدة، لفصل القمح عن الزؤان، بحسب ما جاء في الرسالة: «لا تخمدوا الروح... تفحّصوا كلّ شيء. احتفظوا بالجيّد» (١ تس ٥، ١٩ –٢١).

هل تعتقدون بأنّ البابويّة ستبقى على حالها؟

إنّ البابويّة ستبقى، من حيث الجوهر. وهذا يعني، أن يستمرّ على الكرسيّ الرسوليّ خليفة للقدّيس بطرس، ويحمل مسؤوليّة شخصيّة مدعومة من المجمع. وهذا المبدأ الشخصانيّ ملازم للمسيحيّة، فلا يضيع في مجموعة من الأمور المستترة، ويتمثّل بكاهن، أو بأسقف، ويجد تعبيرًا له في وحدة الكنيسة جمعاء. وأمّا المسؤوليّة العقائديّة، فباقية، كما نصّ عليها المجمعان: الأوّل والثاني، من أجل وحدة الكنيسة، ووحدة إيمانها، ونظامها الأخلاقيّ. ويمكن أن تتغيّر أنماط من الممارسة، أو هي ستتغيّر حتمًا، إذا التفّت حول البابا جماعات، كانت من قبل منفصلة. يُضاف إلى ذلك، أنّ البابا الحاليّ – بالزيارات التي يقوم بها حول العالم – يرسم للبابويّة وجهة أخرى، مختلفة عن تلك التي كان قد رسمها البابا، «بيّوس الثاني عشر». ولا أقدر، كما أنّي لا أريد أن أتكهّن بالمتغيّرات المحسوسة التي قد تحصل. ولا يمكننا، الآن، التنبّؤ بما ستكون عليه الأمور بالضبط.

هل يمكن أن تحصل أيضًا اكتشافات لاهوتيّة جديدة، قادرة على إحداث تغيير في الكنيسة، فتوضّح مفهوم الإيمان مجدّدًا، أو قد تجعله أكثر صعوبة؟

كلّ هذا ممكن الحصول. وكنّا قد شاهدنا، في هذا القرن، اكتشافات لاهوتيّة، على أيدي رجال، من مثل: «لوباك» (Lubac)، و«كونغار» (Congar)، و«دانيالو» (Daniélou)، و«راهنر» (Rahner)، و«بلتازار» (Balthasar)، وسواهم. وقد فتحت اكتشافات هؤلاء العيون على منظور جديد للاّهوت، لم يكن انعقاد المجمع الفاتيكانيّ الثاني ممكنًا بدونه. إنّ في أبعاد الإيمان العميقة، تختبىء دائمًا رؤًى وصور جديدة. ولكن، تنبجس فجأة، من جهة أخرى، مشكلات غير متوقّعة، كالتي اختبرناها في هذا القرن، مثل طريقة النقد التاريخيّ، ودخول العلوم الإنسانيّة في اللاهوت،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

وغيرهما. وعلينا دائمًا أن نحسب حسابًا لهذه الأمور. لذا، فالإيمان قد يصبح أكثر صعوبة، أو سهولة.

ومن ضمن المسائل المعقّدة الجديدة، على الصعيد اللاهوتيّ أيضًا، قد يكون السؤال الآتي، الذي يطرح بإلحاح، وهو: كيف يتمّ إثبات تجسّد الله في شخص يسوع الفرد، وليس في أشكال إلهيّة متعدّدة، كما يسود الاعتقاد في آسيا؟ وهل يقدر شخص واحد أن يجسّد الحقيقة المطلقة، في المسيرة التاريخيّة؟

يجب القول، أوّلاً، إنّه لا يوجد في تاريخ الأديان معتقد، يسير بموازاة حقيقة الإيمان المسيحيّ، في ما خصّ ألوهيّة الإنسان، يسوع الناصريّ. ولكن، يقرب قليلاً من ذلك، تصوّر الهنود لإلههم «كريشنا» (Krishna)، الذي يجلّونه؛ لأنّه تحدّر من إله، ونزل إلى الأرض، فعبر تاريخ الأديان بطرق مختلفة. ولكنّ هذا التصّور يختلف كثيرًا عن جوهر الإيمان المسيحيّ، في اتّحاد الله الأحد النهائيّ بكائن بشريّ محدّد، عاش في الزمن، وجذب الله، من خلاله، كلّ البشريّة إليه. والإيمان المسيحيّ متداخل في الإيمان اليهوديّ، في ما خصّ الإله الواحد الخالق، الذي يجسّد تاريخًا مع الإنسان، ويرتبط شخصيًّا بهذا التاريخ، ويتفاعل فيه بدون تغيير، من أجل الجميع. لذا، فليس هناك من تشابه بين المسيح و«كريشنا»، وسواه من الوجوه. والخيار هنا، يكون بين إله – أظهر ذاته إلهًا للجميع، واتّحد بالإنسان، حتّى من الناحية الجسديّة – وبين أسلوب آخر لفهم الدين، تتجلّى به الألوهيّة في صور وأشكال مختلفة ومتغيّرة، فيرجع الإنسان، أخيرًا، إلى إله لا اسم له. وفي الحالين، تختلف الطريقة في فهم الحقيقة، والله، والعالم، والإنسان. ويستطيع المسيحيّ، في الوقت عينه، أن يرى، في صور ديانات العالم المقدّسة، محاولات محسوسة تتّجه صوب المسيحيّة. ويمكنه أن يرى أيضًا، وراء ذلك كلّه، عملاً خفيًّا لله، يطال الإنسان عبر الديانات الأخرى، فيضعها على السكّة؛ ولكنّه يبقى دائمًا الإله نفسه، إله يسوع المسيح.

إنّ قسمًا من الأسئلة الجديدة، التي تُطرح، تتمحور حول الأخطار التي تتعرّض لها الكنيسة، وهي ترتسم بوضوح. وسبق أن تحدّثنا عن أصوليّة الكنيسة، التي كما يقال، تعارض حقيقة المجتمع الديمقراطيّ، وتعطّل حرّيّة إبداء الرأي والمعتقد، وتعمل من أجل بناء دولة لله. زد على ذلك، أنّ جوهر الإيمان التوراتيّ ملغوم، فالموت على الصليب، والصعود، ورسالة الخلاص، هي موضع شكّ في الأساس. ويؤخذ على تلامذة المسيح

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

أنّهم صدّقوا ما توهّموه، أو ما تراءى لهم، وأنّ العظة على الجبل لم تحصل، وأنّ الفكرة القائلة بأنّ الكنيسة ستدمّر نفسها، لتفسح المجال لقيام كنيسة ما بعد المسيحيّة، يتزايد أنصارها، شيئًا فشيئًا.

ولكن، يعارض هذه الفكرة بقوّة إيمان ملايين الناس، الذين ما فتئوا يجدون في إيمان الكنيسة، اليوم، ما يجعلهم بشرًا حقيقيّين. ولقد أعلن الملحدون موت الكنيسة مرارًا، في أثناء حكم الديكتاتوريّات المعاصرة. وبعد سقوط الطغاة، برز المؤمنون شهودًا حقيقيّين للإنسانيّة، ومهّدوا الطريق لإعادة البناء. إنّ مستقبل المسيحيّة يحمل من الوعود، ما عجزت عن حمله هذه الإيديولوجيّات، التي تدعو الكنيسة إلى تدمير ذاتها.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

اكتشاف البيئة من جديد – رؤية الكنيسة الجديدة

غالبًا، ما يأخذ بعضهم، على الكرسيّ الرسوليّ، حصر إرادته في إحداث حركة تراجع إلى الوراء، وفي تجاهل نتائج المجمع الأخير. ولكنّ البابا، يوحنّا بولس الثاني يعلن: «إنّ أفضل ما ينبغي القيام به، مع عطفة العام (٢٠٠٠) سيكون تطبيق عقيدة المجمع الفاتيكانيّ الثاني، على حياة كلّ فرد، وعلى الكنيسة جمعاء، تطبيقًا أمينًا.

لقد كان يوحنّا بولس الثاني دائمًا، وبصراحة، بابا المجمع الفاتيكانيّ الثاني، لأنّ تجربته كانت حاسمة فيه. فعند وصوله إلى الفاتيكان، كان ما يزال شابًّا. وفي أثناء انعقاد المجمع، على ما أذكر، أصبح أسقفًا. ثمّ شارك بأسلوب بنّاء، في إعداد الرسالة البابويّة (فرح ورجاء) حول الكنيسة والعالم. إنّ تجربته المهمّة في المجمع كانت، بدون شكّ، المشاركة في إعداد النصّ، فحضّره جيّدًا بفكره الفلسفيّ. وأصبحت هذه الوثيقة، التي كانت أنشط ما في المجمع الموجّه نحو المستقبل، مبدأ أساسيًّا. لقد كان مقتنعًا في العمق بأهمّيّة المجمع السماويّة، وبأنّ الروح القدس أوكل فيه إلى الكنيسة مهمّات جديدة، انطلاقًا من الحركة الليتورجيّة، إلى الحركة المسكونيّة، مرورًا بحرّيّة الدين، والحوار بين الأديان، ومع اليهود، واللقاء بالعالم العصريّ. ولا أتذكّر أنّني رأيت أحدًا سواه، ذهب به التأثّر والانفعال، إلى حدّ أنّه جعل من المجمع وجهة لحياته الشخصيّة. ولطالما كان مقتنعًا بأهمّيّة السنوات الثلاث تلك، التي أمضاها في تسيير عمل المجمع وصياغته. ولقد شعر بأنّ الكثير من الشروحات سيتغيّر، أو يتداخل أو يتعارض، فأعلن وجوب الأمانة الحقيقيّة للمدوّنات؛ لأنّ – بنظره – ما يحدّد الطريق ليس ما كنّا نحبّ أن يأتي به المجمع، بل ما أتى به، بالضبط.

هل يحتاج التقليد في الإيمان أيضًا، إلى نبرة ولهجة جديدتين؟

أجل، لأنّ المسيحيّين المنهوكين، على الأقلّ في أوروبّا، الذين يعانون الصعوبات،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

يحتاجون بالضرورة إلى نبرة جديدة، أو لهجة جديدة. ذات مرّة، قرأت قصّة عن كاهن أورثوذكسيّ، كان يقول: بذلت جهودًا كبيرة، ولكنّ الناس لم يصغوا إليّ. وكانوا ينامون، أو لا يأتون إلى الكنيسة أبدًا. بدون شكّ، كان هذا الكاهن بارعًا في الكلام، وتجربته رائدة في هذا المجال، وكثيرون يمارسونها. ولكنّ، المهمّ في الأمر، أن يكون الواعظ نفسه علاقة داخليّة بالكتاب المقدّس، وبالمسيح الحيّ في تعاليمه. وكونه رجل الزمن الذي يعيش فيه – والعالم عالمه، ولا يمكن الهروب منه – فعليه أن يُعدّ ويحضّر إيمانه من الداخل؛ ومن ثمّ، فإذا استطاع فعلاً الكلام بعمق، وبأسلوب شخصيّ نابض، فإنّ الكلمات تنقاد إليه تلقائيًّا.

هل من دوافع جديدة، وبخاصّة في البلدان النامية، يمكنها – كما ذكرتم من قبل – أن تعيق، أو أن تتصدّى «للريفيّة الأوروبيّة في التعبير»؟ وهل ستكون كنيسة المستقبل أفريقيّة، وآسيويّة، أو أميركيّة، أو أقلّ منها أوروبّيّة، في كلّ الأحوال؟

هذا مؤكّد، لأنّه من الناحية الإحصائيّة الصرف، نجد أنّ القارّات الأخرى تكتسب أهمّيّة متزايدة، نسبة إلى أوروبّا، إذ يفقه سكّانها تدريجيًّا ثقافتهم الخاصّة. ومن الممكن إجراء مقارنة بسيطة مع ما قلناه عن الإسلام. فكما أنّ الإسلام شعر بعنفوان جديد، مع نشأة أزمة الثقافة الأوروبّيّة–الأميركيّة، كذلك، وبسبب هذه الأزمة، أخذت الثقافات الكبيرة الأخرى تعي ذاتها، وتفخر مجدّدًا بماضيها. فالأفارقة يفخرون بأنّهم ما يزالون في طريقهم إلى الاكتساب والتعلّم، من جهة، وبأنّهم يملكون أيضًا ما يغدقونه من طراوة إيمانهم، التي تستحقّ الإعجاب، بفضلٍ ما ينضح منهم من فرح، من جهة ثانية. إنّهم يدركون أنّ في موروثهم الثقافيّ كنوزًا تنتظر أن تُكتشف. وهذا الوعي قويّ جدًّا في أميركا الجنوبيّة، وكذلك في حالة آسيا أيضًا. ويمكن القول إذًا، وبكلّ تأكيد، إنّ التنوّع الثقافيّ سيصبح ظاهرة جليّة في داخل الكنيسة، وإنّ مشاركة القارّات الأخرى ستساهم في بناء المستقبل المنتظر للكنيسة.

لم يعد مستغربًا، منذ زمن بعيد، أن يتولّى أسقف أفريقيّ، أو من أميركا الجنوبيّة، سدّة الكرسيّ الرسوليّ.

كلاّ. فكلّ واحد من الكرادلة يعرف أنّنا نختار أفريقيًّا، أو غير أوروبّيّ. ولكن، إلى أيّ حدّ، ترضى المسيحيّة الأوروبّيّة بذلك؟ فهذا سؤال آخر. وعلى الرغم من المجاهرة بالإيمان، وبالمساواة بين الأعراق، وبمحاربة التمييز العنصريّ، ما يزال هناك نوع من

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الاعتداد بالذات في أوروبّا، يظهر في الأوقات الحرجة. وأظنّ أنّ الكرادلة يبحثون ببساطة عن الرجل الأكثر ملاءمة بغضّ النظر عن اللون والعرق.

هل يمكن القول أيضًا: إنّ بعض المبادئ في العقيدة والأسرار، يعاد تطويرها وصياغتها، في شكل قديم سابق، لأنّ منطق الكنيسة تغيّر؟

إنّ مبدأ العقيدة لا يمكن أن يتحوّل إلى خطأ بمرور الزمن، تمامًا كما في حقل العلوم مثلاً، إذ تبقى المعادلات الصحيحة قائمة؛ ولكنّها تُصاغ في نصّ آخر، فتظهر وكأنّها ذات معنًى مختلف. فما هو صحيح، يبقى على صحّته، ولو ألبسوه حلّة جديدة. وبدون شكّ، يبقى عدد الأسرار سبعة، لملاءمة منطق الحياة البشريّة. ولكن، مع تبدّل الزمن، قد يحياها الناس بطريقة مختلفة. فقبل مئة عام تقريبًا، كان الناس الأتقياء لا يعترفون، ولا يتناولون، إلاّ ثلاث أو أربع مرّات في العام. أمّا اليوم، فالمناولة اليوميّة اعتياديّة. ولقد أصاب سرّ التوبة عدّة تغييرات، عبر التاريخ. وإنّ الشرح، الذي أتى به المجمع التريدنتينيّ (١٥٤٥–١٥٦٣) حول مفهوم الأسرار اللاهوتيّ، وعقيدة النعمة (نزاع مع المصلحين حول النعمة الإلهيّة)، لا يمكن أن يستحيل خطأ؛ ولكنّه استمرّ في تطوّر. وفي هذا السياق، يتماشى الثابت والمتحرّك كلّيًّا، والتاريخ شاهد به.

هناك تصوّر جديد للدين، يرتسم في مطلع الألفيّة الثالثة، يحتوي على مضامين مأخوذة من ثقافات عظيمة، فيها عناصر من البوذيّة، والزندقة أو الإلحاديّة، ومن شعائر الشعوب البدائيّة. فهل يحصل تلاقح جديد للكنيسة، بتأثير التيّارات العالميّة، أو الديانات الأخرى؟

ها هو الحوار مع الديانات الأخرى ينطلق، وجميعنا مقتنع، كما أعتقد، بوجوب أن نتعلّم شيئًا من الصوفيّة الآسيويّة، ومن تقاليدها المهمّة، التي تطرح فرضيّة لقاءات، ليست واضحة بعد، باللاهوت الوضعيّ. وفي هذا السياق، يصبح موروث الأستاذ «إيكارت» (Eckart) من الصوفيّة الأنثويّة، في القرون الوسطى، ومن التصوّف الإسبانيّ العظيم، بخاصّة، ذا أهمّيّة جوهريّة اليوم في حوار الأديان. وهذا يعني إعادة اكتشاف العناصر المشتركة والمتباينة في الصوفيّتين: البوذيّة، والمسيحيّة. ويلاحَظ ذلك الآن، انطلاقًا ممّا تحتويه الأسطورة، والفلسفة الدينيّة الآسيويّة، من عناصر جديدة، يمكن أن تصبّ في الفكر اللاهوتيّ، على الرغم من أنّ الجهود المبذولة، حتّى تاريخه،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

لمعالجة كلّ ذلك، ليست جدّ مقنعة. غير أنّ هناك احتمالات تلوح في الأفق، قد توفّر الفرص، في هذا الشأن، للفكر اللاهوتيّ والحياة الدينيّة.

لقد تطلّب نشر الإيمان والتربية المسيحيّة، نموًّا من ألف وخمسمئة سنة، من عمليّة شدّ الحزام، في الوسط المسيحيّ. واليوم، لم يعد ذلك موجودًا في المدارس، وفي مؤسّسات المجتمع. ويظهر أنّ قيم الكنيسة، وتطلّعات العالم الحديث، تتباعد شيئًا فشيئًا. فهل يكون ممكنًا سيادة مقاصد الحياة وسلام الكنيسة، في المستقبل؟

لقد قلت بحقّ، إنّه ينبغي توفّر وسط مسيحيّ. ومعنى هذا، أنّ المسيحيّ لا يستطيع أن يعيش وحيدًا أبدًا. ولكي تكون مسيحيًّا، يجب أن تتعايش مع الآخر. وحتّى الناسك، فإنّه ينتمي إلى جماعة. وينحصر همّ الكنيسة في خلق هذه الجمعيّات. إنّ ثقافة أوروبّا وأميركا الاجتماعيّة لم تعد تربة خصبة، لنشأة هذا النوع من الجمعيّات. ويعيدنا هذا الكلام إلى الأسئلة التي طرحت آنفًا: كيف تستطيع الكنيسة أن تستمرّ في هذا المجتمع، الذي تتقلّص فيه المسيحيّة، رويدًا رويدًا؟ عليها، بالتأكيد، أن تشكّل أنواعًا جديدة من الجمعيّات. وعلى رفقاء الدرب أن يتعاضدوا، ويتساعدوا بقوّة أكبر، وأن يحيوا في الإيمان.

إنّ الوسط الاجتماعيّ لم يعد كافيًا اليوم؛ لأنّ المسيحيّة تتقلّص، بشكل عامّ. لذا، على المسيحيّين أن يشدّ بعضهم إزر بعض. ويوجد عدّة أشكال من «الحركات»، التي يتجمّع فيها رفقاء الدرب. ولا بُدّ من تجديد عمليّة التنصّر، التي تؤدّي إلى درس المسيحيّة. ولممارسة التجربة المسيحيّة، يمكن الالتحاق بجمعيّات الرهبان. وبكلمات أخرى، إذا كانت الكنيسة مجتمعة، لم تعد تستطيع أن تُوجِد وسطًا مسيحيًّا – وهي لم تفعل ذلك في أربعة أو خمسة القرون الأولى– فهي ملزمة بتشكيل خلايا، بحيث تتمّ ممارسة حياة الكنيسة واختبارها، بتعاضد الأفراد، وتعاونهم، ومسيرتهم معًا.

ماذا يشبه، إذًا، وبشكل حسّيّ، هذا النموذج المعاكس للكنيسة الشعبيّة، التي لم يعد ممكنًا صمودها، في أنحاء واسعة من أوروبّا؟ وما هي الأشكال، التي يجب أن تعتمدها الجمعيّات؟ وهل يمكن أن نتخيّل قيام مزارع مسيحيّة، على غرار المزارع اليهوديّة، في ألمانيا؟

لمَ، لا؟ سنرى. ومن الخطأ والغرور، اليوم، رسم أنموذج شبه مكتمل لكنيسة الغد،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

التي سيتقلّص بوضوح عدد أبنائها، أكثر ممّا هو عليه اليوم. ولكنّني أعتقد بأنّ كثيرين، ممّن يعيشون معها من الخارج، ومن الداخل أيضًا – وإن بطرقهم الخاصّة – سيعتمدون عليها، إلى حدّ ما. وعلى الرغم من كلّ المتغيّرات التي نتوقّعها، فإنّ رعيّة الكاهن، أو الخليّة الجوهريّة للحياة المشتركة، ستبقى بحسب قناعتي. ولكن، لن يكون بالمستطاع أبدًا تماسك النظام الرعويّ الحاليّ بكامله، ولاسيّما وإنّ قسمًا منه حديث العهد. ويجب أن نتعلّم أن يذهب بعضنا إلى البعض الآخر، فيكون في ذلك ثراء وغنًى. وسيكون بجانب الكاهن تجمّعات لتثبيت الطريق الروحيّ. وتتمتّع شخصيّة الكاهن بهبة لدنيّة (كاريزما). ويكون التعاون ضروريًّا بين الكاهن و«الحركة» من حوله، لأنّ الأخيرة في حاجة إلى رابط، كما أنّ الخورنيّة في حاجة إلى «الحركة»، حتّى لا يكون هناك ضيق أفق، أو تحجّر. وستتشكّل في العالم أنواع جديدة من الجمعيّات الرهبانيّة. وإذا أمعنّا النظر، نرى، اليوم، مجموعة مدهشة من أشكال الحياة المسيحيّة، التي بفضلها، نجد ملامح كنيسة الغد تعيش في ظهرانينا بوضوح.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الثورة الروحيّة: «نقيّ، نقيّ، نقيّ»

عالم الكنيسة، اليوم: بيروقراطيّ (ديوانيّ) خائف، يصمّم بطريقة إنسانيّة نموذجيّة. فهل يحتاج مجدّدًا إلى الفكر الحدسيّ، بوجه تسلّط العقل؟ وهل يجب التعويض عن النقص في التأمّل، وعن إهمال القيم الروحيّة لفترة طويلة؟ وكان كاردينال باريس، «فويّو» (Veuillot) يقول: «يجب أن يكون كلّ شيء نقيًّا، نقيًّا، نقيًّا. وهذا ما نحتاج إليه: ثورة روحيّة حقيقيّة». وهل ممكن القول: لن يكون للكنيسة عقب، من جديد، إلاّ إذا كانت نقيّة وعذراء بالفعل؟

إنّ سؤالك هو، نوعًا ما، جواب. وغالبًا ما كنت أردّد: لدينا تنمية في التنظيم البيروقراطيّ. إنّ التبسّط والاختصار ضروريّان؛ فلا يجوز إرجاع الأمور دائمًا إلى اللجان. ويجب أن تحصل لقاءات فرديّة، من جديد. ولن يكون بالمستطاع السيطرة الجذريّة على كلّ شيء. استندت المسيحيّة بقوّة على العقل، واستعانت به. ولكنّ لرؤية الحقيقة أبعادًا أخرى نحتاج إليها. ولقد سبق الحديث عن الحوار بين الأديان، وعن الصوفيّة. وأصبح ضروريًّا هذا البعد من التجميع والحشد، ومن التجميع الداخليّ، في عالم تحكمه السرعة المحمومة. وتقول عبارة «كارل راهنر» (Karl Rahner) الشهيرة: «سيكون إنسان الغد المسيحيّ صوفيًّا، أو لا يكون». وأنا، لن أطرح واجبًا ضخمًا كهذا، لأنّ البشر لن يتغيّروا. وسنستمرّ في ضعفنا، ولن نصبح جميعًا صوفيّين. ولكن يُستشفّ من هذا الكلام، أنّ المسيحيّة قد تنطفئ، أو تزول، إذا لم نكن جديرين بالوصول إلى استبطان ذواتنا؛ ممّا يسمح بالتغلغل إلى عمق الحياة الفرديّة، لتنويرها. فالعمل البسيط، والبنية الثقافيّة البسيطة، لا يكفيان. ومن المهمّ التفكير بالبساطة، وبالاستبطان الذاتيّ، وبالطرق ما فوق العقليّة، في رؤية الحقيقة.

ألا تعني الدعوة إلى التصوّف، أنّه يجب أن نستذكر بساطة الإيمان، طبقًا لركائز المسيحيّة الأساسيّة؟

أحيانًا، يبدو هذا شديد التعقيد، حتّى ليُظنّ أنّ الملافنة وحدهم، يستطيعون إعطاء

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

نظرة شاملة عن هذا الأمر. وقد أوضح تأويل الكتاب المقدّس وشرحه عناصر إيجابيّة كثيرة. ولكنّه، في الوقت عينه، خلق شعورًا بأنّ الإنسان العاديّ، لا يستطيع قراءته وفهمه، لأنّ محتواه شديد التعقيد. ويجب أن نفهم، أنّ فيه ما ينبغي قوله للجميع، وأنّه وضع من أجل البسطاء. ولا بدّ لي، هنا من تأييد «حركة» ولدت في صميم لاهوت التحرير، الذي يتحدّث عن الشرح الشعبيّ للكتاب المقدّس. وبحسب هذه الحركة، فإنّ الشعب هو صاحب التوراة الحقيقيّ، وشارحها الحقيقيّ. وهذا القول، من حيث المبدأ، صحيح؛ لأنّ الكتاب جاء من أجل البسطاء، بالتأكيد. وهؤلاء لا يحتاجون إلى معرفة كلّ الفوارق، التي هي موضوع نقد، بل يكفيهم أن يفهموا المقصود. وإنّ اللاهوت، بمعارفه الواسعة، لن يكون غير مجدٍ، بل سيكون ضروريًّا جدًّا في حوار الثقافات العالميّ، وينبغي له ألاّ يطمس بساطة الإيمان، الذي يضعنا ببساطة أمام الله، القريب منّا بتجسّده.

هل تقدرون أن تتخيّلوا، بعد تقلّص عدد المسيحيّين، وارتداد المؤمنين وغياب الرابط الروحيّ الذي كان يشدّهم إلى الدين، أن تنشأ نوعيّة مسيحيّة جديدة، تحتفظ بمضمون الإيمان وتجسّده؟ يقول الكاردينال «لوستيجيه» (Lustiger): إنّ الثقافة المعاصرة لا تقفل الباب على نهاية الدين والمسيحيّة. بل، على العكس، إنّها تقترح ملخّصًا وتصاميم، بغية استشعار بداءات. ويقول «لوستيجيه» أيضًا: «لن تعيش الإنسانيّة، إلاّ إذا شاءت. وهي اليوم تواجه، في كلّ لحظة، دينونة «أخيرة». ولكنّ الحرّيّة في أن تكون مسيحيًّا، من دون إكراه، هي اليوم تماثل – بحجمها الكبير – حرّيّتنا في هدم الحياة على كوكب الأرض، بإرادتنا». ويضيف الكاردينال أيضًا: «اليوم فقط، سنشهد بداءات العصر المسيحيّ». هل تؤيّدون وجهة النظر هذه؟

لا أجرؤ على القول إنّنا بإزاء بداءات العصر المسيحيّ. وماذا تعني بالضبط هذه العبارة؟ ما أستطيع أن أشاركك رؤيته، هو أنّ المسيحيّة تحظى دائمًا بفرصة التجدّد. وقد كتبت، ذات يوم، أنّ المسيحيّة حبّة الخردل وشجرتها، في آن؛ كما الجمعة العظيمة وعيد القيامة. وإنّ يوم الجمعة العظيمة ليس دائمًا وراءنا، بل هو حاضر أبدًا. وليست الكنيسة شجرة مكتملة النموّ، في طريقها إلى اليبس، وهي موجودة دائمًا في حبّة الخردل. ولعلّي أشاطره الرأيَ، في أنّنا بإزاء بداءة جديدة، فلننعش الرجاء. إنّ الإيمان، انطلاقًا من الحرّيّة، ومن أجل الحرّيّة، يحمل في ذاته آمالاً جديدة، واحتمالات جديدة لعصر مسيحيّ، في عالم منهوك. والحقّ يقال: إنّه، وإن تقلّص عدد المسيحيّين، فإنّ

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

المسيحيّة ازدادت وعيًا وانتعاشًا. في هذا السياق، يصحّ القول: إنّنا أمام عصر مسيحيّ آخر، ولا أجرؤ على التنبّؤ بالمستقبل، وبما سيحدث فيه. ولكنّني أوافق حقيقة على أنّ المسيحيّة هي دائمًا في بداءة جديدة، تنتج أشكالاً قويّة من الحياة المسيحيّة.

لقد عبّرتم، منذ سنوات، عن الأمل في رؤية قريبة «لعنصرة في الكنيسة»، وقلتم: «هناك مجموعات من الشباب ترتبط بالكنيسة، وتعلن إيمانها بها، وبكثلكة كاملة وغير مجزّأة». فهل من حاجة إلى مسيحيّين جدد، أكثر شجاعة وقوّة؟ وقلتم أيضًا، ذات يوم، وأكّدتم أنّ الكنيسة ما عادت تحتاج في أيّامنا إلى مصلحين، بل الى قدّيسين، يأتون بإرادتهم، تدفعهم حيويّة إيمانهم الداخليّة، وغناه الثابت.

لكي نبقى في مضمون كلمتَي: «مصلح» و«قدّيس»، أقول: إنّ كلّ قدّيس هو مصلح، لأنّه ينشّط الكنيسة من جديد، ويطهّرها. أمّا، في ما خصّ كلمة «مصلح»، فإنّ بعضهم يحصرها في المقاييس البنيويّة. ونحن لا نحتاج كثيرًا إلى هذا الصنف من الناس الآن، بل إلى أناس، يعيشون المسيحيّة حقيقة في قلوبهم، فيحيونها بسعادة ورجاء؛ لأنّ نفوسهم أضحت محبّة؛ وهؤلاء هم القدّيسون.

إنّ مصلحي الكنيسة الحقيقيّين، الذين، بفضلهم، أصبحت أكثر بساطة، ففتحت نوافذ جديدة على الإيمان، كانوا قدّيسين. فقد خلق القدّيس بندكتوس شكل حياة سمح للمسيحيّة بالانتشار، مع هجرة الشعوب. ولنا مثال آخر في القدّيسين دومينيكوس (Dominikus) وفرنسيس (Franziskus). وكانت الكنيسة الإقطاعيّة على وشك التحجّر، حين بدأت الحركة الإنجيليّة انطلاقة جديدة، فعاشت الفقر، وبساطة الإنجيل، وفرحه، ومهّدت الطريق، من ثمّ، لظهور حركة جماعيّة كبيرة. ولنا مثال ثالث من القرن السادس عشر؛ فالمجمع التريدنتينيّ كان مهمًّا؛ إلاّ أنّ الفضل في إجراء إصلاح كاثوليكيّ يعود إلى القدّيسين، الذين ضمّهم المجمع، من أمثال: «تريز الأفيليّة» (Theresa von Avila) و«يوحنّا الصليبيّ» (Johannes von Kreuz) و«إغناطيوس دي لويّولا» (Ignatius von Loyola) و«شارل بوروميه» (Carl Borromeus)، وكثيرين غيرهم. وقد غمر الإيمان هؤلاء من الداخل، فعاشوه بطرقهم الخاصّة، وأثّروا في سواهم، ممّا سمح بحصول إصلاحات، كانت ضروريّة ومهمّة وملائمة. ولهذا، قلت: إنّ الإصلاحات، اليوم، لن تأتي حقيقة من المؤتمرات ومجامع السينودس، التي قد تكون ضروريّة، بل من الشخصيّات المقنعة، أي من القدّيسين.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

فرص جديدة للعالم بفضل الكنيسة

أشار البابا، في رسالته الحبريّة المخصّصة لمنعطف القرن، إلى أنّ «الكنيسة... تستطيع بفروعها أن تشكّل سقفًا للإنسانيّة جمعاء». وما يعجبني، في هذه الفكرة، نظرًا للنقص في المعرفة والحزم، اللذين يشكو منهما عصرنا، هو حاجتنا إلى مستشارين صادقين، وإلى شخصيّات، وأكثر من ذلك، إلى مؤسّسات ومحاكم عليا، تبقى راسخة في زمن الاضطرابات. وإنّ المجتمع المنفتح، الذي نريد الحفاظ عليه في العمق، يكلّفنا فوق طاقتنا دائمًا: فنواجه أمواجه بقرارات عديمة الجدوى، أو مضرّة، لا يمكننا ضبطها وتنفيذها. فمن أجل المحافظة على فرص المجتمع المنفتح، ولكي نقي نفسنا الانزلاق نحو أنظمة ديكتاتوريّة، ينبغي حماية الديمقراطيّة بخلق أنظمة مغلقة مساعدة، يمكن لها أن تراقب وتحكم، بعيدًا عن التأثّر بما يجري تداوله والحديث عنه، وبما تأتي به الانتخابات من مفاجآت.

إنّك تثير هنا مسألة مكانة الكنيسة في الحرّيّة، التي يجب أن يتمتّع بها الشعب، وقيمة هذه المكانة، وما تعنيه للمجتمع. وأعتقد بأنّك تعبّر عن شيء مهمّ. وليست الكنيسة تنظيمًا بين تنظيمات أخرى، أو دولة ضمن دولة، تكون على شاكلتها تمامًا، من حيث القواعد الديمقراطيّة. إنّها شيء آخر مختلف. إنّها قوّة روحيّة. فللكنيسة شكلها الاجتماعيّ، ودورها المنظّم، غير أنّها مصدر قوّة لا تملكها الدولة. وهناك عبارة شهيرة لـ «بوكنفورده» (Bockenforde) تقول: إنّ المجتمع الديمقراطيّ يعيش من قوًى لا ينتجها بنفسه. وهذا ما تفضّلتم به، في حديثكم عن أنظمة الدعم.

وإنّنا نبحث مسألة الديمقراطيّة في الكنيسة، في الوقت عينه. فإذا رأينا في الكنيسة صورة عن الدولة، نكون جاهلين لجوهر الكنيسة نفسه؛ لأنّنا نعلم جيّدًا أنّ الديمقراطيّة نفسها هي تجربة خطيرة، تخوضها الأكثريّة ضمن إطار محدّد من الأمور الإنسانيّة. ويستحيل انسحاب هذا المبدأ على مسائل الحقيقة والخير، ولاسيّما إذا كان يضغط باستمرار على الأقلّيّة، التي تتعاظم بطاعتها. وهكذا، نتوصّل إلى خلق «أوليغارشيّة»،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

وإلى تسلّط جماعة. وتستدعي الديمقراطيّة نفسها حقائق تكمّلها، وتتطابق حكمًا ورسالتها الداخليّة.

ومهمّ جدًّا، بالنسبة إلى الكنيسة، ألاّ تعدّ نفسها بعنصريّة جسمًا مختصًّا بذاته؛ مهمّته تقديم بعض الخدمات. بل عليها أن تعي أنّها تحيا من أمور ليست من فعلها، فتحياها بإخلاص وحيويّة، فتقدّم للبشريّة ما لا تستطيع الحصول عليه بعزمها الخاصّ. ولا تستطيع أن تصدر أوامر إلى الناس؛ غير أنّها تقدر، في زمن الاضطراب، أن تقدّم لهم أجوبة وحلولاً. وإنّ الصور في الكتاب المقدّس عن ملح الأرض، وعن نور العالم، توحي بأن يكون للكنيسة عمل تخطيطيّ. وتعني عبارة «ملح الأرض» أنّ الأرض ليست ملحًا بكاملها. ودور الكنيسة في أن تمثّل الجميع، وتتغلغل إلى قلب الجماعة، ولا أن تكون نسخة عن الدولة، لأنّها ليست دولة. وعليها أن تعي رسالتها الخاصّة والاستثنائيّة، أي أن تبتعد عن خصوصيّات العالم، لتدخل في نور الله، فتترك بذلك نافذة حرّة مفتوحة، تعبر منها نسمة الحياة إلى العالم.

أما كان ينبغي – كونها قوّة مكمّلة وخالقة للإدارك – أن تقوّي مقاومتها للتسلّط، ولاستبداد ذوق العصر، وللنظام الاجتماعيّ الرأسماليّ، التي اجتاح طوفانها الحدود المعقولة؟ أما كان ينبغي لها أيضًا، أن تجهد أكثر، وتعمل في مقدّمة الحركة التي تبحث عن حلول، لوقاية الخلق الهلاك؟ لو حصل ذلك، لكانت مؤسّسة يغذّيها العرف والحكمة، ووجّهت تلك الحركة التي يقف الله وراءها.

وبالعودة إلى الأسئلة عينها، نقول: إلى أيّ حدّ، يجب على الكنيسة أن تنفتح على التجديد، وتحذر التصلّب الذي يجعلها تتحصّن في الماضي؟ إلى أيّ مدًى، يجب أن تسير في موازاة العصريّة؟ ومتى ينبغي لها أن تتحلّى بشجاعة المقاومة؟ وفي هذا الشأن، يجري الحديث عن معارضة تنبّئيّة، وعن كلمات مفاتيح أخرى. وهذا ما يعيدنا إلى السؤال الآخر: من هي، أو ما هي الكنيسة؟ وممّا لا شكّ فيه، هو أنّه، على كلّ الذين يتكلّمون باسم الكنيسة، ويعلنون عقيدتها على كلّ المستويات، أن يمارسوا شجاعة المقاومة.

ولا يجوز أن يغرب عن البال عبارة «نحن الكنيسة» بمعناها الحقيقيّ؛ لأنّه لا يجسّد الكنيسة فقط أولئك الذين ينقلون العقيدة. ولا يمكن لهذه العبارة أن تدخل العالم بطريقة فاعلة ومقنعة، وتستحيل مصدر فعل، إلاّ إذا تخلّت عن كونها عقيدة خالصة،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

وما عادت تستمدّ قواها من اندراجها في مستندات روما، وفي الرسائل الرعويّة فقط، بل إذا أصبحت كلمة المرشدين والواعظين، وصوت الكنيسة الحيّ العامّ. ولهذا السبب، يبدو لي مهمًّا جدًّا، ألاّ تكون هذه العبارة تعليمات نازلة من علُ فحسب، بل أن تعلّم المسيحيّين أنفسهم، ومعًا، أن يشكّلوا قوّة مقاومة، في عدّة مجالات.

ولا يستطيع من يمارس سلطة عقائديّة أن يقنع الآخرين، بأسلوب قابل للتصديق وحازم، إلاّ إذا تحدّث عمّا يحصل بالفعل، وعمّا هو قائم. ومن جهة أخرى، فإنّ جماعات الكنيسة يحتاجون دائمًا إلى المساعدة لتحقيق انتمائهم، وليتنشّطوا وينتعشوا، ويحيوا ما هم عليه من إيمان. أمّا إذا قلنا: «على الكنيسة أن تكون قوّة مقاومة»، فعندئذٍ، يجب أن يكون ذلك واجبًا مشتركًا لكلّ المسيحيّين، فلا ينحصر فقط في الذين يعلّمون العقيدة. ولا يجوز التعصّب في التمييز، فيكون كلّ ما هو عصريّ رديئًا بالقوّة، أو جيّدًا قسرًا. إنّ التمييز الصحيح فضيلة مهمّة جدًّا، لا تستطيع الكنيسة من دونها أداء الخدمات، أو ضبط الأمور بإحكام.

أريد أن أرجع ثانية إلى نظامنا الاقتصاديّ الغربيّ، حاليًّا. هل تعتقدون بأنّ هذا النظام، الذي لا يقرّ بأهمّيّة المارك الألمانيّ، سيعيش، أو ستكتب له الحياة، كما هو عليه الآن، في السنوات العشر القادمة؟

أنا، لست مطّلعًا، بما فيه الكفاية، على الوضع الاقتصاديّ العالميّ. ولكنّ الشيء الأكيد، هو أنّه لن يستطيع الاستمرار، إلى المدى البعيد؛ فهناك تناقض داخليّ يتمثّل في استدانة الدول، التي تعيش في تباين ظاهر. فهي تنفق المال، من جهة، وتكفل قيمته، من جهة ثانية، ومن ثمّ، تتظاهر بالإفلاس. وهناك اختلاف في حجم الديون، بين الشمال والجنوب. ويؤشّر كلّ ذلك على أنّنا نعيش في شبكة من الأوهام المتناقضة؛ ولن يستمرّ هذا إلى ما لا نهاية.

وفي ربيع العام ١٩٩٦، عرفنا هذا الوضع الشاذّ في أميركا، حيث بدت الدولة فجأة، كأنّها عاجزة عن الدفع، فأغلقت المتاجر، وسرّحت العمّال في إجازات. وفي هذا العمل تناقض فاضح؛ لأنّ الدولة هي من يتحمّل مسؤوليّة تماسك الأمور. وقد برهن هذا الحدث، بطريقة مذهلة، أنّ نظامنا يحتوي على أخطاء جسيمة، ويحتاج إصلاحه إلى مجهود ضروريّ كبير. كما أنّه من غير الممكن إجراء الإصلاح ببساطة، وعن طريق إصدار المراسيم. والحلّ يكون بالقناعة، إذ لا نستطيع الحصول على كلّ ما

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

نتمنّاه، أو الاستمرار في نمط عيشنا المعتاد. وعلينا أن نجد وسيلة للتخلّص من سعينا إلى الثروة. وأظنّ أنّ التخلّي عن القشور، من أجل المستقبل والآخرين، سيكون اختبارًا حقيقيًّا لأنظمتنا.

هل من الممكن، سيّدي الكاردينال، إجراء جردة حساب تاريخيّة لهذه الجدّيّة؟ ماذا ستعني، بعد حين، نهاية هذه الحقبة، بالنسبة إلى الكنيسة والعالم؟ وهل الأمر يتعلّق بما هو أبعد من نهاية قرن، مع انتهاء عهد الحبر الأعظم الحاليّ؟ وهل سينتهي العالم القديم أيضًا، مع يوحنّا بولس الثاني، الذي يجسّد العالم الغربيّ؟

ها نحن ثانية بإزاء تصوّرات مستقبليّة، أشعر دائمًا حيالها بالخصافة. إنّ البابا الآتي من بولونيا قد حرّك بقوّة هذه التصوّرات. وإنّ حدود الغرب مع بولونيا تتراجع بعيدًا نحو الشرق. وإنّ الأفق ينفتح، مفسحًا المجال للتوغّل في الثقافات الشرقيّة. لقد أظهر يوحنّا بولس الثاني، برحلاته العديدة، ضرورة تخطّي المجال الغربيّ. ولكنّ الموروث الغربيّ، بالرغم من كلّ ذلك، سيحافظ على أهمّيّته، بنظري، في مسيرة التاريخ. ويعود السبب، في ذلك، إلى أنّ الكنيسة القديمة لم تقدّم للإنسانيّة كنوزًا خالدة، تنحصر فقط في الفنّ الرومانيّ، والقوطيّ، والنهضويّ، والباروكيّ، بل أعطت أيضًا قدّيسين كبارًا، طوّروا أشكال الفكر والحياة، فتمكّنت المسيحيّة من التعبير بعظمة وأصالة، وشعر المرء بأنّه أكثر إنسانيّة.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

تاريخ العالم الحقيقيّ

من ملء الزمن

يتحدّث البابا، في رسالته الحبريّة «الألفيّة الثالثة الآتية» إلى الأساقفة، والكهنة، والمؤمنين، عن «ملء الزمن»؛ وذلك بمناسبة اليوبيل الألفين. وجاء في الرسالة أنّ لمفهوم الزمن في المسيحيّة «أهمّيّة أساسيّة». إنّ الساعة الأخيرة لـ «نهاية الزمن» قد بدأت مع مجيء المسيح. والآن، يبدأ «زمن الكنيسة»، الذي سيستمرّ حتّى عودته (المسيح). فكيف تشرحون هذا؟ وهل بلغت هذه المأساة نهايتها المقدّرة، منذ زمن بعيد؟ أصبحنا الآن منهوكي القوى.

في مقدّمة هذه الرسالة فصل من الكتاب المقدّس. ويعود مفهوم «ملء الزمن» إلى القدّيس بولس. وأمّا فكرة «نهاية الأزمنة»، أو المرحلة الأخيرة من التاريخ، فإنّها مشروحة بوضوح في الكتاب المقدّس. ويشرح إنجيل لوقا بإسهاب، وبرؤية بعيدة الغور، المرحلة النهائيّة، بقوله: «ستسحق الشعوب الوثنيّة أورشليم حتّى تمتلئ أزقّتهم» (لو ٢١: ٢٠).

وقد فهم الآباء هذا القول، وشبّهوا التاريخ بالحياة البشريّة، التي تمرّ بستّ مراحل. وقالوا: إنّ تاريخ البشريّة، دخل هو أيضًا في المرحلة السادسة من عمر الحياة. ولم يتبدّل هذا الوعي، إلاّ إبّان الأزمنة العصريّة. وفي عصر النهضة، تفشّت فكرة، مفادها أنّ كلّ شيء بدأ دورته، حينذاك. وأمّا الزمن، الذي عاش فيه الناس من قبل، حتّى ذلك الحين، فلم يكن المرحلة السادسة، وإنّه كان عصرًا وسيطًا. ورأوا أنّهم بدأوا، آنذاك، يدخلون في التاريخ الحقيقيّ. وأضيف إلى ذلك إدراك الناس، أنّ العالم قطع أزمنة سحيقة في القدم، وأنّ تاريخ البشريّة لا يعود إلى ستّة آلاف سنة فحسب، بل إلى أبعد من ذلك بما لا يُقاس. وهكذا، تبخّر مفهوم «نهاية الأزمنة»، وتمدّد الزمان باتّجاه اللانهاية.

وفق هذه القرينة الثقافيّة، ينبغي إعادة ترتيب تصوّر الكتاب المقدّس، ووجهة نظر

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

الآباء التي ترتكز على الصورة القديمة الواضحة، المرتبطة بالأزمنة الستّة، التي يساوي كلّ زمن منها ألف سنة. لذلك، يجب أن نفهم فهمًا جديدًا الفكرة الجوهريّة الواردة في الكتاب المقدّس، والتي تقول: إنّ التاريخ يدخل مرحلته النهائيّة مع مجيء المسيح. وأظنّ أنّ التطوّر الذي طرأ على العقود الأخيرة، وتسارُع عجلة تاريخ العالم، والتهديد المتزايد عليه، أدخل في تصوّراتنا بقوّة فكرة نهاية الأزمنة. وندرك مجدّدًا أنّه مع الحركة المسيحيّة – الساعية منذ البدء إلى توحيد العالم، وإلى فصل الكنيسة عن الدولة، وتجريد العالم من خاصّيّته الإلهيّة – بدأت حقبة جديدة ونهائيّة من التاريخ. ويرافق هذه الحقبة وعي قائل: إنّ النهاية وشيكة، ليس لأنّ آلاف السنين قد انصرمت، بل لأنّ المسيح فتح للتاريخ نهاية مسيرته، ولأنّ العالم يبتعد عن المسيح، لكي يعود إليه من جديد.

وقد تناول الحبر الأعظم هذه التساؤلات في رسالته، وقال: إنّ المسيح نفسه وضع التشخيص النهائيّ لتاريخ العالم وإنّه (المسيح) في خضمّ الشكوك، التي تتّخذ منحًى دراميًّا متصاعدًا في مسلك التاريخ هذا، يبقى ليس الطريق فحسب، وإنّما الهدف أيضًا. ونحن، باندفاعنا نحوه، نسير إلى النهاية، التي ليست إبادة وتدميرًا فقط، وإنّما تتمّة أيضًا، تعطي التاريخ كلاًّ داخليًّا.

ويستنتج البابا في رسالته الحبريّة، التي نحن بصددها، أنّه، بحسب الكنيسة، ليس العام (٢٠٠٠) زمنًا عاديًّا، وليس المثير فيه تبدّل الألفيّة، كون السنة «سنة نعمة» خاصّة من الربّ. فما معنى هذا؟ وهل سيكون هناك ظواهر خاصّة، أو نعم خاصّة، تُمنح لنا؟ يجب أن تساعد سنة اليوبيل، بكلّ تأكيد، في إقامة العدالة الاجتماعيّة، فتكون سنة غفران الخطايا، ومصالحة المتخاصمين، واهتداء الكثيرين، والتوبة. والكنيسة لا تستطيع بغموض عبور عتبة الألفيّة الجديدة، من دون أن تطلب من أبنائها، أن يتطهّروا بالتوبة، وأن يكفّروا عن أخطائهم، وخياناتهم، وانفلاتهم.

أعتقد بأنّه من المهمّ توضيح ما يعنيه هذا التاريخ، وما لا يعنيه. ويجب، قبل أيّ شيء آخر، إسقاط كلّ التوقّعات السحريّة، لأحداث كونيّة عظيمة، أو ثقافيّة، أو دينيّة. وينبغي التحلّي بالعقل، كي نفهم أنّه تاريخ بسيط يحمل شيئًا من المخاطرة والمصادفة. وكان «ديونيسيوس الصغير، ٥٠٠–٥٤٥» (Dionysius Exiguus) قد أخطأ في تحديد تاريخ ولادة السيّد المسيح بعدّة سنوات. وهذا التاريخ هو نقطة انطلاقنا في تقويم الوقت. وقد وُلد المسيح، في الحقيقة، قبل حوالى سبع سنوات من التاريخ المتعارف عليه. إذًا،

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

كان ينبغي أن يقع الاحتفال بالعام (٢٠٠٠) قبل الآن. فلا يجوز تحميل هذا الرقم من التاريخ فوق طاقته من القصص السحريّة المختلفة.

ولكنّ التاريخ صدّق على هذا الرقم وأقرّه...

إنّ التاريخ المعيّن دخل في العادات، ونحن نتكيّف معه، وهو لا يتأتّى من ضرورة ماورائيّة، أو حسابيّة دقيقة. إذًا، يجب، أوّلاً، ألاّ ننتظر عملاً سحريًّا. وثانيًا، نسأل: ما هي هذه الألفيّة؟ إنّ البابا يعتبرها بحقّ تاريخًا للذكرى، لأنّها تذكار ولادة السيّد المسيح، وحدث حاسم، فرض نفسه على البشريّة جمعاء، بل على جزء كبير منها، في ما خصّ حساب الزمن. فالأمر لا يتعلّق باستعادة الماضي في داخلنا فحسب، بل باسترجاع الحديث أيضًا، كون شخص يسوع حاضرًا فينا، وهو يعنينا.

والبابا يقدّم وسيلة للبشريّة، وبخاصّة للمسيحيّة، لتتجدّد بإنعاش الذاكرة. ويقترح مسيرة تستمرّ ثلاث سنوات، ويرسم طريقًا من أجل أن نتذكّر، وأن يتوحّد الحاضر وقوى المستقبل، في المقام الأوّل. وفي المقام الثاني، يستعيد البابا شكل اليوبيل، كما كان في العهد القديم، إذ كانوا يقيمونه بعد مرور تسعة وأربعين عامًا؛ لأنّ التاريخ يعاود دورته، بعد هذه الفترة، أي ٧×٧ = ٤٩. وقد أُلغيت كلّ المناسبات الخاصّة من أجل ذلك، للبدء من جديد، وسيؤدّي هذا العمل إلى التسامح الكونيّ، والعودة إلى الأصل. ويقول البابا: لئن لم يجرِ أبدًا من قبل احتفال بيوبيل، بهذا المعنى، فإنّ العام (٢٠٠٠) يجب أن يكون إيّاه، وبالطريقة الممكنة. وبفضل هذا اليوبيل، نحاول العودة إلى الأصل، إلى المسيح. وتدعونا آيات العهد القديم إلى تصفية الديون القديمة، وإلى أن نتحرّر حقيقة، ولاسيّما من عبء النظام الاقتصاديّ المتحجّر، وإلى أن نحاول البدء من جديد. وإنّ التعقّل مطلوب بالنسبة إلى الموضوعين الأساسيّين: الذكرى والذاكرة. وعلينا أن نتحقّق ممّا هو مطلوب منّا، فنحاول إطلاق القوى المساعدة، كي يكون مجهود الذاكرة فاعلاً، فيقودنا إلى بداءة جديدة.

ولكنّ البابا، مع ذلك، يذهب بعيدًا، وهو يتحدّث عن انعطاف الألفيّة المداهم. يقول: تطهّروا وتوبوا. وفي أثناء رحلته إلى أستراليا، قال بوجوب الذهاب إلى الصحراء ربّما، لانتظار عودة المسيح، هناك.

أنا، لا أعرف ما ورد في النصّ؛ غير أنّه لم يقل بالضبط: إنّ المسيح سيرجع في

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

العام (٢٠٠٠)، لأنّ ذلك يناقض قول الإنجيل: لا أحد يعلم الوقت والساعة. ويمكن القول: إنّ المسيح يعود، عندما تنفتح الذاكرة من جديد، على مراحل التاريخ. وسيبقى السؤال مطروحًا إذًا، لمعرفة الوقت الذي سيدركه التاريخ نهائيًّا فيه، أو يأخذ المسيح التاريخ بيديه، ويشوّشه. ولا نستطيع نحن تحديد الوقت، استنادًا إلى حسابات زمنيّة؛ ولكن، ما ينبغي لنا فعله، هو أن نستعدّ له؛ لأنّه قادر على المجيء في أيّ وقت. وربّما فهم كثيرون كلام البابا «اذهبوا إلى الصحراء» بنصّه الحرفيّ؛ ولكنّه يعني إجمالاً أن نقوم بمجهود، للخروج من هذا العالم الشديد التنضيد، الفائض بالأثاث، فنتحرّر من الداخل، ونكون متيقّظين، ونتوب، إذ لا توجد بداءة جديدة، من دون كلّ هذا.

إنّ كثيرين من علماء الاجتماع، والباحثين في أمر المستقبل، ونقّاد الثقافات، يفتّشون بانفعال عن شرح، وعن ترجمة مفهومة لزمننا هذا. وكان الحديث يدور حول العصريّة وما بعد العصريّة، وهل من شيء بعدها؟ وربّما، هو الحنين إلى الماضي الذي يتحكّم بما سيأتي، وقد يعطي مفهومًا جديدًا للتعريف بهذا العصر. وبأيّ اسم ندعوه؟ وهل كان لديكم اقتراح تقدّمونه؟

لا اسم لديّ أقترحه له. وقد رفضت دائمًا الحديث عن نهاية الأزمنة المعاصرة، وعمّا يليها. إنّ هذا التقسيم سابق لأوانه. ونحن بحاجة إلى بعض الوقت، لنتبيّن كيف ستتقسّم المراحل. فعصر النهضة، هو بالتأكيد الذي أطلق مفهوم «العصر الوسيط»، للدلالة على أمور حدثت في تلك السنين؛ وهي في الطريق إلى نهايتها الآن. وقد اعتبرت النهضة نفسها مرحلة جديدة، عندما تحدّثت عن «العصر الوسيط»، وهي على حقّ في بعض ما ذهبت إليه. ومع تسارع الزمن والتاريخ، قد يحصل الآن انقطاع، ويظهر وقت مختلف عن الأربعمائة والخمسمائة سنة المعروفة بالمعاصرة، وقد أضحت اليوم وراءنا. ومن الأفضل مراجعة تفكيرنا، في ما خصّ تقسيم الزمن إلى مراحل. وهذا من استنباط الغرب، في الواقع. ومن الصعوبة بمكان إقحام التاريخ الهنديّ، أو الصينيّ، في هذا التقويم، حتّى ولو ظهر شيء من التوازي، أو التشابه. وقد ألمح «ياسبرس» (Jaspers) إلى ما يدعى بزمن المداخل، الموجود في كلّ الثقافات. وعلى كلّ حال، لم يكن لزامًا علينا أن نستنبط، منذ الآن، اسما لما لا نعرفه. بل، على العكس، كان ينبغي أن نبقى متيقّظين بإزاء تقطّع الزمن، وأن نستعدّ لاحتمال حدوثه، على أمل أن يكون الزمن الآتي أكثر جدّة من المنصرم، ويستحقّ أن يدعى «زمن البشر، وزمن الله».

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

ونستطرد إلى سؤال أخير، هو: ما هو عمر العالم الصحيح، سيّدي الكاردينال؟ وماذا يريد الله حقيقة منّا؟ وقد كتبتم يومًا: يتميّز التاريخ بأنّه مواجهة، بين الحبّ، والعجز عن الحبّ، الذي هو تصحّر النفوس. ويكون هذا، حيث يقيس الإنسان القيم الأخلاقيّة والحقيقة بمقياس الكمّ والمنفعة... إنّ تقويض المقدرة على الحبّ يولّد سأمًا قاتلاً: إنّه سمّ الإنسانيّة؛ فإذا سيطر وساد، فسيكون مصير الناس والعالم الهلاك.

إنّني توكّأت، في هذا الكلام، على القدّيس أغسطينوس، الذي استقاه بدوره من العرف المسيحيّ الدينيّ، إذ يتجسّد التاريخ في صراع بين دولتين، أو بين جماعتين. وأمّا (Goethe)، فأخذ هذا المعنى، وطرحه بصورة أخرى، فقال: ليس التاريخ سوى صراع بين الإيمان والإلحاد. بينما رأى القدّيس أوغسطينوس ذلك من زاوية مختلفة، إلى حدّ ما، فقال: التاريخ معركة مع نوعين من الحبّ: حبّ الله حتّى إنكار الذات، وحبّ الذات حتّى رفض الله. وهكذا، يكون قد مثّل التاريخ في مأساة، ترتكز على الصراع بين حبّين. وقد حاولت أن أحدّد هذه الفكرة بدّقة أكثر، فلم أعتبر الحركة المعاكسة حبًّا آخر؛ لأنّها لا تستحقّ أبدًا أن تدعى «حبًّا»، بل هي رفض للحبّ. إنّ التاريخ بمجمله هو صراع بين الحبّ، والعجز عنه، أو بين الحبّ، ورفض الحبّ. وربّما قال المرء: لا أريد أن أحبّ، لأنّ الارتباط يفقدني حرّيّتي.

فالحبّ هو التعلّق بشيء، قد يُنتزع منّي، فأتألّم لغيابه. من هنا يتأتّى الرفض. ولذا، فإنّي أفضّل، قبل الإقدام على المخاطرة، والتعلّق بما ليس بتصرّفي – ربّما خوف أن يجرّني إلى العدم – ألاّ أحبّ؛ في حين أنّ القرار الصادر عن المسيح مختلف. يقول نعم للحبّ؛ لأنّ فيه مخاطرة الألم، ومجازفة فقدان الذات، ولأنّه يعيد الإنسان إلى ذاته، ويجعل منه ما يجب أن يكون عليه.

أظنّ أنّ مأساة التاريخ الفريدة، هي هذه في الواقع؛ لأنّه يتمّ اختزاله في جواب: نعم، أوّلاً، للحبّ.

ماذا يريد الله منّا في الواقع؟

يريد الله منّا أن نتحوّل إلى محبّين، لنكون، إذ ذاك، على صورته. وكما يقول القدّيس يوحنّا: الله هو الحبّ، ويرغب في وجود كائنات تشبهه، فتأخذ النور المنبعث منه، وتنشره في كلّ مكان.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

فهرست الموضوعات

تمهيد ١١

الإيمان الكاثوليكيّ: علامات وكلمات ١٣

الفصل الأوّل

السيرة الذاتيّة

الأصل والدعوة ٣٥

الأستاذ الشابّ ٤٨

الأسقف والكاردينال ٦٤

رئيس «المجمع لنشر الإيمان» ٧٠

الخلاصة ٨٧

الفصل الثاني

مسائل الكنيسة الكاثوليكيّة

روما في حَرَج ٩٣

حالة الكنيسة ١٠٠

الوضع في ألمانيا ١١٨

أسباب الانحطاط ١٢٥

أخطاء الكنيسة ١٣٠

لازمات النقد ١٣٩

العصمة ١٤٠

البشارة السارّة عوضًا من الوعيد ١٤٢

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

نحن شعب الله ١٤٤
السلطة المقدّسة والأخوّة ١٤٧
التبتّل ١٥٠
منع الحبل ١٥٦
الإجهاض ١٥٩
إعادة زواج المطلّقين ١٦١
سرّ الكهنوت للمرأة ١٦٤

الفصل الثالث

على أعتاب الزمن الجديد

ألفا سنة تاريخ الخلاص – ولا خلاصَ ؟ ١٦٩
تطهير النفس – تحوّل الزمن ومحنة التمزّق ١٧٧
«ربيع جديد للروح الإنسانيّة»
من أجل الألفيّة الثالثة ١٨١
النقاط الأساس لنموّ الكنيسة وتطوّرها ١٨٥
الحركة المسكونيّة والوحدة ١٨٨
الإسلام ١٩٠
اليهوديّة ١٩٣
مجمع جديد ١٩٧
مستقبل الكنيسة – كنيسة المستقبل ..... ١٩٨.
اكتشاف البيئة من جديد – رؤية الكنيسة الجديدة ٢٠٣
الثورة الروحيّة: «نقيّ، نقيّ، نقيّ» ٢٠٨
فرص جديدة للعالم بفضل الكنيسة ٢١١
تاريخ العالم الحقيقيّ من ملء الزمن ٢١٥

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

سلسلة
الفكر المسيحي بين الأمس واليوم

١ – الأب أغناطيوس ديك: **الله حياتنا.**

٢ – المطران كيرلّس سليم بسترس: **اللاهوت المسيحيّ والإنسان المعاصر.**

الجزء ١: الله الخالق – الشرّ والخطيئة الأصليّة – يسوع المسيح.

٣ – **الجزء ٢:** الروح القدس – النعمة – الكنيسة.

٤ – **الجزء ٣:** الأسرار – الحياة الأبديّة.

٥ – القدّيس يوحنّا الدمشقيّ: **المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسيّ**، عرّبه عن النصّ اليونانيّ الأرشمندريت أدريانوس شكّور، ق. ب.

٦ – الإكسرخوس جوزف نصرالله: «**منصور بنُ سرجون**» المعروف **بالقدّيس يوحنا الدمشقيّ: عصره، حياته، مؤلّفاته.** عرّبه بتصرّف عن النص الفرنسيّ الأرشمندريت أنطون هبّي.

٧ – ج. – م. – ر. تيّار **أسقف رومة.** نقله إلى العربيّة الأب جورج خوّام البولسيّ.

٨ – پول إفدوكيموف: **الروح القدس في التراث الأرثوذكسيّ.** عرّبه عن النصّ الفرنسيّ المطران إلياس نجمه، وقدّم له المطران جورج خضر.

٩ – **سفر المحبّة.** نقله إلى العربيّة الأب جورج خوّام البولسيّ.

الجزء ١: الڤاتيكان – الفنار (١٩٥٨ – ١٩٧٠).

١٠ – **الجزء ٢:** الڤاتيكان – الفنار (١٩٧٠ – ١٩٨٠).

١١ – **خطيب الكنيسة الأعظم، القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم:** حياته وبعضٌ من مواعظه، ترجمها آباء مخلّصيّون. عُني بكتابتها وجمعه وتنظيمه الأب إلياس كويتر المخلّصيّ.

١٢ – **القدّيس باسيليوس الكبير:** حياته، أبحاثٌ عنه، مواعظه؛ عُني بكتابته وجمعه وتنظيمه الأب إلياس كويتر المخلّصيّ.

١٣ – المطران كيرلّس سليم بسترس: **اللاهوت المسيحيّ والإنسان المعاصر.**

الجزء ٤: مريم العذراء أمّ ربّنا يسوع المسيح.

١٤ – المطرانان يوسف ريّا وكيرلّس سليم بسترس: **التجسّد فيض المحبّة.**

١٥ – جوزيف راتسنجر: **مدخل إلى الإيمان المسيحيّ.** عرّبه الدكتور نبيل الخوري.

١٦ – المطران كيرلّس سليم بسترس: **مدخلٌ إلى اللاهوت الأدبيّ.**

الجزء ١: مبادئ أساسيّة في الأخلاق المسيحيّة.

١٧ – المطران يوسف ريّا والأب جوزيف معلوف: **لاهوت الإكليل أو الزواج المقدّس.**

١٨ – **المسيحيّة في عقائدها**، عرّبه المطران كيرلّس سليم بسترس.

١٩ – **المسيحيّة في أخلاقيّاتها**، عرّبه المطران كيرلّس سليم بسترس.

christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

٢٠ – **علم الأصول اللاّهوتيّة**
الجزء ١: عادل تيودور خوري – مشير باسيل عون.
٢١ – **علم الأصول اللاّهوتيّة**
الجزء ٢: عادل تيودور خوري – مشير باسيل عون.
٢٢ – **الأمرُ الأهمّ لكنيسةِ الألف الثالث** – عربّه المطران كيرلّس سليم بسترس.
٢٣ – **يسوع المسيح** – عربّه المطران يوحنّا منصور.
٢٤ – **اللاّهوت الصوفيّ** – الأب تيودور حلاّق.
٢٥ – **مقالات في اللاّهوت والحركة المسكونيّة** – المطران كيرلّس سليم بسترس.
٢٦ – **مقالات في الأخلاق والحياة المسيحيّة** – المطران كيرلّس سليم بسترس.
٢٧ – **الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها**
الجزء ١: ترجمة المطران يوحنّا منصور والأب حنّا الفاخوري.
٢٨ – **الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها**
الجزء ٢: ترجمة المطران يوحنّا منصور والأب حنّا الفاخوري.
٢٩ – **لقد وجدناه!** – إعداد الأخت مادلين رنيه – ترجمة المغفور له المطران حبيب باشا وموريس جلال.
٣٠ – المطران كيرلّس سليم بسترس: **مدخلٌ إلى اللاّهوت الأدبيّ.**
الجزء ٢: تعليم الكنيسة الاجتماعيّ.
٣١ – **أوريجانس في المبادئ.** عرّبه الأب جورج خوّام البولسي.
٣٢ – فالتر كاسبر: **إله المسيحيّين.** عرّبه المطران يوحنّا منصور.
٣٣ – فالتر كاسبر: **اللاهوت والكنيسة.** عرّبه المطران يوحنّا منصور.

أنجزت المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب
في شهر أ٢ سنة ٢٠٠٩

رقم القسم
الرقم العام
الرقم الخاص
christian-lib.com

coptic-books.blogspot.com

ما يثير اهتمام المسيحيّين في القرن الحادي والعشرين؟ كيف تتفاعل الكنيسة الكاثوليكيّة مع أزمة الإيمان ومغادرة البعض جماعتَها والانتقادِ الموجَّه إلى عقائدها؟ يجيب جوزيف راتسجنر، أي البابا بندكتوس السادس عشر، خَلَف البابا يوحنّا بولس الثاني، في حوار مع بطرس زيفالد، عن أسئلة حول مستقبل الكنيسة، ومَقام الباباوات، والعمل المسكوني، وبتوليّة الإكليروس والمجتمع الغربيّ الحديث.

هذا مدخل، يدهش بوضوحه، إلى تفكير البابا وإيمانه، مدخلٌ لاقى انتباهًا عالميًّا كبيرًا.

منشورات المكتبة البولسيّة

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص. ب: ١٢٥

هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦

بيروت - شارع لبنان - هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ - تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣

زحلة - شارع سيّدة النجاة - مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك - تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

christian-lib.com